أعلام العرب

١٢٠

حازم القرطاجني

حياته وشعره

د. كيلاني حسن سند



أعلام العرب
١٢٠

حازم القرطاجني

حياته وشعره

د. كيلاني حسن سند



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

الاخراج الفنى : عفاف توفيق

الباب الأول

الفصل الأول

حازم .. حياته وثقافته

مولده ونشاته :

لقد جرى أكثر من كتبوا عن حازم ؛ على أن اسمه « أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم الأنصارى القرطاجنى » ، ولكن البعض ممن كتبوا عنه قد اختصر سلسلة نسبه . فأبو حيان يقول عنه : هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم الأندلسى الأنصارى ، ويقول معاصره ابن سعيد عنه : انه أبو الحسن حازم بن حازم ، ويلقبه ابن الشماع بالمرسى والغرناطى ، ويتبعه فى ذلك مخلوف والزركشى ، وهو هنىء الدين عند الصفدى والسيوطى . وقد أوقع هذا الاختلاف المقرى فى اللبس ، فقال بعد أن ذكر اسمه ونسبه كما عند السيوطى : « قال بعض المؤرخين : هو حازم بن محمد بن الحسن بن حازم الأنصارى ، فجعل والد الحسن حازما ، وجعله السيوطى محمدا ، فلا ندرى هل هذا من النسبة الى الجد فيرجع مع ما عند السيوطى الى وفاق أو هما مختلفان .. » .

وقد ذكر الدكتور مهدى علام هذا الاختلاف فى اسمه ونسبه ، فقال : « وكان من حظ الشاعر أنه كان معروفا بكثير من الأسماء »

وترتب على ذلك أن من أشاروا اليـــه فى مؤلفاتهم كانوا يختارون بعض هذه الأسماء ، مما جعل استقصاء تاريخه أمرا شاقا ، فهو يذكر تحت اسم حازم ، وابن حازم ، والقرطاجنى ، كما يطلق عليه اسم الأنصارى والمرسى ، والأندلسى ، والغرناطى ٠٠ » ، ثم يقول مواصلا حديثه عنه : « واسمه الكامل هو : أبو الحسن حازم بن محمد ابن حسن بن حازم الأنصارى القرطاجنى المرسى الأندلسى ٠٠ » ٠ وقد نسى الدكتور محمد مهدى علام جدين لحازم ٠٠ هما : محمد وخلف ٠٠ ، وقد ذكرهما السيوطى فى تعريفه بحازم ، اذ قال ان اسمه : « حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم القرطاجنى ٠٠ أبو الحسن ٠٠ » ٠ والذى يرجح ذلك ، ما نقـــله ابن الأبار عن حازم نفسه الذى أخبره بأن اسم والده : « محمد بن حسن بن محمـــد بن خلف بن حازم الأنصــــارى الأوسى من أهل قرطاجنة من عمل مرسية وأصله من سرقسطة ٠٠ » ويعضده ما نقله الصفدى عن أستاذه أبى حيان تلميذ حازم من أن اسمه : « حازم بن القاضى محمد بن حسن بن محمد بن خلف شيخ البلاغة والأدب ، أبو الحسن الأنصارى المغربى » ٠

نزح والده من سرقسطة ، وهى مدينة جميلة ، تحدق بهـــا البساتين ، وتلتف حولها اربعة انهار « وكان كل جهة تغايرت على اتحافها ، فأهدت اليها نهرا يلثم من أعطافها ٠٠ » على حد قول صاحب المسهب ٠ وقد اشتهر بها عدد من الأدباء ، والشعراء ، ويبدو أن ما تميزت به من جمال ، جعل حتى الباعة يقرضون الشعر ، فابن سنعيد يورد ليحيى الجزار السرقسطى قصيدة ضاحكة يرد بها على ابن حسداى اليهودى ، وزير ابن هود ، حين دعاه ابن هود الى أن يلوم يحيى الجزار على ترك الشعر ، والرجوع الى القصابة ٠٠ فقال ابن حسداى ٠

تركت الشعر من ضعف الاصابة ... وعدت الى الدناءة ، والقصابة

فأجابه يحيى الجزار بقوله :

تعيب على مألوف القصابة ... ومن لم يدر قدر الشيء عابه
ولو احكمت منها بعض فن ... لما استبدلت منها بالحجابة
اما ولو اطلعت علي يوما ... وحولي من بني كلب عصابة
لهالك ما رأيت ، وقلت : هذا ... هزبر صير الأوضام غابه

لقد ترك القاضي أبو عبد الله محمد — سرقسطة الى قرطاجنة ، وقرطاجنة من كورة « تدمير » شرقي الأندلس ، ومن أعمال مرسية التي لا تقل جمالا وروعة عن أشبيلية ، يقول ابن سعيد عنها : « هذه بستان شرق الأندلس ، وهذه بستان غربها ٠٠ » ، وقد منح النهر الكبير أحد ذراعيه لمرسية ، والذراع الآخر لاشبيلية ٠٠ ويفضلها ابن سعيد على اشبيلية لسهولة ري أرضها ، لانخفاضها عن النهر ، وارتفاع أشبيلية عليه ، وهي حاضرة عظيمة اشتهرت بما تنسجه من أصناف الحلل ، فكانت العروس حين يراد تجهيزها ، تتجهز من مرسية ٠ كما اشتهرت ببساتينها ، ومناظرها الطبيعية الخلابة ، كالرشاقة ، والزنقات ، وجبل آيل ، وما بسفحه من بساتين ، وبسيط ؛ يؤمها الناس للترويح عن النفس ، والاستمتاع. تولى أبو عبد الله محمد بن حازم — قضاء قرطاجنة أكثر من اربعين سنة ٠٠ وظل بها في منصب القضاء الى أن توفي في شوال سنة ٦٣٢ هـ وهو ابن ثمان وسبعين سنة » ٠ وقد كان والده على حظ وافر من الفقه أهله لتولى هذا المنصب الخطير الذى لا يتولاه الا كبار العلماء ، يقول المقرى : « أما خطة القضاء بالأندلس فهى أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمور الدين ، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدى القاضي ولا سبيل لأن يتسم بهذه السمة الا من هو وال للحكم الشرعي في مدينة جليلة » ٠

كما كان على حظ من الأدب . تتلمذ على القاضي أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي جمرة ، وعلى خاله أبي الحسن بن أبي العافية .. ويبدو أن أسرة خاله أبي الحسن بن أبي العافية .. مشهورة بكثرة علمائها ، فقد ذكر السيوطي من أدبائها محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن أبي العافية الألبيري الأصل ، الذي كان فقيها جليلا برع في الأدب واللغة ، كما كان كاتبا مجيدا ، وشاعرا مطبوعا مكثرا ، سكن غرناطة ومالقة وأخذ عن أهلها ، وسمع من أبي بكر بن العربي وابن الدباغ والخشني .. وقد ولد سنة ٥٥٦هـ ومات بغرناطة سنة ٥٨٣هـ . ويقول عنه ابن الأبار أيضا : « انه كان اديبا كاتبا شاعرا ذا معرفة باللغة العربية »
ويورد له قصيدة رائعة يخاطب بها السرحة رمز المحبوبة فيقول :

يا سرحة الحي ، يا مطول	شرح الذي بيننا يطول
عندي مقال ، فهل مقام	تصغين فيه لما اقول
ولي ديون عليك حلت	لو انه تنفع الحلول
ماض من العيش كان فيه	ملبسنا ظلك الظليل
زال ، وماذا عليك ماذا	يا سرح - لو لم يكن يزول
حيا عن المدنف المعنى	منبتك القطر والقبول

وأرجح أن يكون هذا الأديب الشاعر هو أستاذ أبي عبد الله محمد والد شاعرنا حازم ، ولد في سن تقارب سنه ، اذ أن والد حازم قد ولد سنة ٥٥٤هـ ، وولد ابن أبي العافية سنة ٥٥٦هـ .. وليس غريبا أن يتلقى الانسان العلم على من يقاربه سنا ، اذا تفوق عليه في فرع من فروعه . وقد ذكر الباحثون من أسرة أبي العافية عالما جليلا هو محمد بن أحمد بن أبي العافية ويعرف بالقسطلي وقد ولد بمرسية ، وتوفي بها سنة ٥٥٨هـ « وكان مدرسا للمذهب صدرا في أهل الشورى ، جليلا في بلده ، موصوفا

بالحفظ ، معروفا بالنزاهة عدلا رضى ، تفقه به أبو عبد الله بن أبى محمد بن سليمان بن برطلة وغيره » . وهذا دليل على كثرة النابغين والنابهين من عائلة أبى العافية أخوال أبى عبد الله محمد والد الشاعر .. مما له تاثيره الوراثي والاجتماعى فى شاعرنا حازم .. ، وفى قرطاجنة ولد له ابنه حازم .. والذى يرجح ذلك أنه قد اشتهر بلقب القرطاجنى الذى ظل ملازما له طوال حياته .. وقد ولد لأبى عبد الله محمد ولد آخر ، هو أكبر سنا من حازم ، اسمه أبو على .. ورد ذكره فى رحلة ابن رشيد .. وكان ينظم الشعر أيضا .. وان لم يصلنا من شعره الا أبيات قالها معارضا ، مع عدد من الشعراء منهم ابن الخياط وأبو الحسن حازم وغيرهما ، لبيتى الجوزى الشهيرين اللذين ارتجلهما معتذرا عن الاكتحال فى يوم عاشوراء .. وقد لامه الشيعة على ذلك ، فقال

ولائم لام فى اكتحالى يوم استحلوا دم الحسين
فقلت دعنى احق عضو يحظى بلبس السواد عينى

وقد أنشد البيتين الشريف نجم الدين بن يونس بحضرة مراكش فى أيام رشيد بنى عبد المؤمن ودعا الشعراء حوله الى تذييلهما ، فقال أبو على بن محمد بن حازم خمسة أبيات منها :

لو أننى يوم كربلاء شهدت ما كان من حسين
جنى عليه العدى ضرابا ، بالسيف طورا وبالرديني

والأبيات على قلتها تدل على تمكنه من نظم الشعر ، وقدرته على ذلك .

ولد شاعرنا أبو الحسن حازم بقرطاجنة على الراجح .. ومدينة قرطاجنة التى تعرف بقرطاجنة الحلفاء قريبة من ألش من أعمال تدمير .. كانت أنشئت على مثال قرطاجنة افريقية .. « وهى

من أقدم ثغور أسبانيا الشرقية ، أنشأها هزدروبال القـــائد القرطاجنى الشهير سنة ٢٤٣ قبل الميلاد ، وتمتاز بمناعة موقعها البرى والبحرى ، وهى تقع جنوب مرسية ، على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ٠٠ وتتمتع قرطاجنة بموقع بحرى بديع ، فوق خليج مستطيل تحجبه الجبال من أمامه ، والمدينة من خلفه ، وهى مرفأ طبيعى للسفن ، وقد ظلت أيام وجود المسلمين بها تمتاز بأهميتها البحرية والتجارية ، فكانت ثغر مرسية وما والاها ، كما كانت مركزا من مراكز الجهاد والغزو البحرى ، تجهز فيها الحملات البحرية المجاهدة ٠٠ « ولكن مياه البحر قد طغت عليها فخربت

بعض أجزائها ٠٠ وقد سقطت فى أيدي النصـــارى سنة ٦٤٠هـ ١٢٤٣م ، فى نفس الوقت الذى سقطت فيه مرسية ، إستولى عليها فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس ، ولكن المسلمين استعادوها وبقيت فى أيديهم الى أن استردها النصارى نهائيا فى سنة ١٢٧٦ م ، على يد خايمى الأول ملك أراجون ٠٠ » وثمة قرطاجنة ثالثة قريبة من جبل طارق ، ذكرها ابن بطوطة فى رحلته ٠ ولأن أكثر من مدينة قد سميت قرطاجنة ، ولأن حازما ولد فى احداها .. وعاش فى الأخرى مهاجرا ، حرص الباحثون على أن ينصـــوا فى تعريفهم بحازم الى أنه ولد بقرطاجنة الأندلس لا بقرطاجنة تونس ، فنجد الدمامينى يقول : « القرطاجنى ٠٠ نسبة من قرطاجنة الأندلس لا من قرطاجنة تونس » ٠ وكذلك يفعل سائر الباحثين من النحـاه بخاصة ، ويظهر أن الأمر قد التبس على بعض الباحثين ، وأرجح أن يكونوا من النحاة المتأخرين لقلة درايتهم بالأدب وحياة الأدباء ٠٠ فنجد ابن الطيب الفاسى يقول فى حاشـــيته على كتاب الاقتراح : « القرطاجنى : نسبة الى قرطاجنة الأندلس لا قرطاجنة افريقيـــة خلافا لمن زعمه » ٠

فى هذه المدينة الساحلية الجميلة ، ولد شاعرنا حازم القرطاجنى

سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) فى وسط تتوفر له فيه كل أسباب الراحة والنعيم .. وفى أسرة تتوفر فيها أسباب العلم والثقافة فأبوه قاض شهير ، شدا جانبا من الأدب .. والم إلماما واسعا بالفقه ، والدراسات الدينية ، وأخوال أبيه من العلماء والأدباء .. كما أن أسرته .. فيما يبدو .. قد اشتهرت بكثرة ما فيها من علماء وأدباء .. فصديقه على بن سعيد يقول عنه : ان « بيته فى قرطاجنة من عمل مرسية مشهور » .

عاش حازم في رحاب تلك الطبيعة الأندلسية الرائعة . رغم ما فيها من قلاقل سياسية لا تهدأ ، واضطرابات لا تسكن .. متنقلا بين شواطىء قرطاجنة ، ومتفرجات مرسية ، يصيف في مرسية ويشتى في قرطاجنة ، يطلب العلم على العلماء الأجلاء ، ويتناشد الشعر مع الشعراء .. مستمتعا بمباهج الحياة . ناعما بما فى هذه الأماكن من متع وملاذ . ولكن تربيته الدينية ، ونشأته فى ظل أسرة محافظة .. جعلته يتمسك كثيرا بأهداب الأخلاق الفاضلة ، ويحافظ على القيم الأخلاقية السائدة .. ظل فى قرطاجنة مترددا بينها وبين مرسية ، وسواها من المدن الأندلسية التى نجت من غزو النصارى ، يطلب العلم على أمثال : أبى على الشلوبين ، والطرسيوني .. والعروضى ، وغيرهم . كما يحضر مجالس السمر ، التى تعقد بين الحدائق ، والتنزهات .. والتى تدار فيها كئوس الراح وتنشد فيها قصائد الشعر . ويشدو المغنون والمغنيات بأرق الألحان .. لقد اكتملت شاعريته فى تلك الأماكن التى يحبها ، ويؤثرها على سواها .. ولم يكن يجول بخاطره يوما أنه سيضطر الى فراقها ويهاجر عنها مكرها .. ولقد كان ذلك ، ففى عام ٦٣٢ هـ توفى والده ، وحازم لم يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر .. وألح العدو البغيض على محاصرة مرسية وما حولها ، يغير عليها كل يوم بجيوشه راغبا فى استخلاصها من أيدى المسلمين ، وبخاصة أن

قرطاجنة ومرسية .. لهما أهمية خاصة اكتسبتاها من وقوعهما على شاطىء البحر ، مما جعلهما مركزا من مراكز الجهاد ، وتجهيز الجيوش الاسلامية ... ومازال العدو يغير عليهما الى أن سقطتا في يده سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٣م . وفي ظل هذا الجو القلق المتوتر لايستطيع الفنان شاعرا أو كاتبا .. أن يمارس فنه .. فأخذ عدد من الأدباء والعلماء من شتى أنحاء الأندلس يتركون ديارهم مهاجرين .. فبعضهم قد ارتحل الى بلاد المشرق كأبي حيان ، ومن قبله ابن البيطار وسواهما .. والبعض استقر بأرض المغرب في مراكش مستظلين بظل الموحدين ، والبعض الآخر كحازم وابن الأبار .. وابن سعيد (الذي تركهما لفترة متجولا في بلاد المشرق .. وبخاصة في مصر والاسكندرية) قر قرارهم بافريقية ، وعاصمتها تونس .. حيث كانت الدولة الحفصية التي هي أقوى دولة اسلامية آنذاك في بلاد المغرب ، وأكثرها استقرارا وتقدما .

هاجر حازم الى مراكش أولا حيث كان يحكمها « أبو محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد » الذي تولى السلطة فيها عام ٦٣٠هـ ، وعمره لم يتجاوز أربع عشرة سنة ، وأقام بمراكش الى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، ومات غريقا في صهريج ماء سنة ٦٤٠هـ ولم يتجاوز العشرين من عمره .

وقد انتشر الوباء والغلاء في عهده .. « حتى بلغ قفيز القمح ثمانين دينارا » . وفي عهده استبد أبو زكريا يحيى بالامارة في تونس .. وتغلبت بنو مرين على أكثر بلاد المغرب . وقام بالأمر بعده أبو الحسن السعيد ... وقد نتساءل لم اختار حازم الهجرة الى مراكش .. رغم ما فيها من قلاقل ، وفتن وحروب ؟ والواقع أن حازما قد اختارها لأن بلاط الرشيد كان عامرا بالأدباء والشعراء « كنجم الدين الحسني ، وابن القطان ، والغزاري وابن الحناط ،

والعشبي وابن حجاج ، وابن زغبوش ، والطهري ، وابن زنون ، وابن غالب .. وسواهم » .

كما أن قسما كبيرا من الأندلس قد بايع الرشيد ، فهو الوارث الشرعي لدولة الموحدين ، وحازم أندلسي يدين بالبيعة له كغيره من الأندلسيين ، ولأن الأمير أبا زكريا لم يكن قد استبد بالسلطة بعد ، وانما كان أميرا من قبل الموحدين .. وعلى كل ؛ فالذي نعتقده أنه قد وصل الى مراكش خلال الأعوام ما بين سنة ٦٣٣هـ وسنة ٦٣٩هـ .. ذلك لأن موت والده سنة ٦٣٢هـ جعله يضيق بالبقاء في بلاده التي كثر فيها الخوف والاضطراب ، بعد أن فقدت الدولة الموحدية هيبتها ، وطمع فيها الأعداء .. وتنافسوا في الاستيلاء على مدنها ، وقلاعها .. كما أن الرشيد قد هزم منافسيه على السلطة ، وانتهت متاعبه بموت عمه يحيى سنة ٦٣٣هـ سنة ١٢٣٦م .. ثم غادرها الى تونس عام ٦٤٠هـ .

والذي يرجح أنه قد غادر مراكش الى بجاية التي كان يتولى امارتها أبو يحيى بن أبي زكريا ، ثم الى تونس عام ٦٤٠ هـ ، أن لحازم ثلاث قصائد في مدح الأمير أبي يحيى ، يذكر في احداها بطشه بالخارجين على والده في تلمسان ، وقد كان ذلك عام ٦٤٠هـ فيقول :

لمست تلمسانا بخشن براثن   من كل نابي الظفر غير مقلم

وفي هذه القصيدة يشكو حازم من عناء السفر ، وقطع الفيافي الى الممدوح .. ولم يذكر أحد من المؤرخين أن حازما قد رحل من تونس بعدما ألقى بها عصا التسيار ، مما يجعلنا نرجح أن السفر الذي يشكو منه ؛ هو الرحيل من مراكش الى بجاية أثناء مسيره الى تونس .. يقول حازم واصفا ما كابده من مشقة السفر :

كم قد قطعت اليكم من قفرة   بهماء ، في ظلماء ليل أبهم
وطويت كل ملاءة ، نشر الملا   بعزيمة مثل الحسام المخذم

وبلحرف عجم السرى اعـوادها حتى لقد ضاهت حروف المعجم
جشـمتها تقطيع جـــوز مفازة ما يستبين عليـــه مبسم ملسم
حتي لقد سئم التهجر ، والسرى من وخدها ، لكنها لم تسـام

ويدعم هذا ؛ القصيدة الأخرى التي مدح بها أبا يحيى المذكور ، مهنئا له بولاية العهد التى أسندها اليه والده عام ٦٣٨هـ ، كما يشيد بفتحه لسبتة الذى حدث عام ٦٤٠هـ فيقول :

قد امن الدين ، والدنيـا بقليده عهد الهدى فالتقى سهيد ويعفور
عهد تلقاه من هاد ولى هـدي على سجايا التقى والبر مفطـور

وبعد أبيـات يشيد فيها بشجاعته ، وكرمه ٠٠ يذكر فتحه لمدينة سبتة ٠٠ فيقول :

فاهنأ بغر فتوح طالعتك ٠٠ كما تفتحت في ذري الروض الأزاهير
وفتح سبتة قد وافاك ، يقدمها كما اقتفت أثر الحادى بها العير

وقد توفى الرشيد صاحب مراكش غريقا فى احدى جوابى قصره عام ٦٤٠هـ ٠ وهذا الحادث قد أغرى حازما بالرحيل ، وفي هـذا نخالف الدكتور محمـد الحبيب بن الخوجه الذى يرجع خروجه من مراكش فيما بين سنة ٦٣٣ هـ وسنة ٦٣٩ هـ فيقول : لم نظفر فيما بين أيدينا من مراجع بتاريخ يحدد هذه الهجرة ، غير أنه يمكن لنا أن نتوصل الى تقدير ذلك ٠

فاذا فرضنا أن ذهابه الى المغرب لم يكن الا بعد موت والده ، ودخول النصارى قرطبة ، أى بعد سنة ٦٣٣هـ ، وأنه لا يمكن أن يتأخر سفره عن شهر شوال سنة ٦٣٩ هـ ، لأنه فى تلك الفترة قد كان حتما بتونس قاعدة الحفصيين كما سنبينه ، فان اقامته القصيرة بمراكش التى أشار اليها ابن رشـيد وابن المرابط يمكن حصرها فيما بين سنة ٦٣٣هـ و ٦٣٩هـ ، ويكون خروجه الى المغرب فى أول

تلك الفترة قبل موت الرشيد محمد · ولم يذكر ابن خوجه ما وعد به من أنه سيبين : لم كان حتما أن يكون حازم بتونس قبل سنة ٦٣٩هـ ·

على كل فمن المؤكد أن حازما قد أقام فترة ببلاط الرشيد ، فقد روى أنه أتبعهم فى معارضته بيتى الجوزى اللذين قالهما فى الرد على من لامه من الشيعة على الاكتحال فى يوم عاشوراء ، كما عارضهما أخوه أبو على حازم ، وعدد من شعراء البلاط الرشيدى بمراكش ، وقد ذكر المقرى أنه رأى « فى بعض المجاميع الأدبية من تأليف ابن المرابط نزيل تونس أنه كان فى حضرة مراكش أيام الرشيد ·· » ، وعقب على هذا الخبر بقوله : « وله فى الرشيد أمداح كثيرة أنشدها فى الاشادة » · والقصائد التى أشار اليها المقرى قد ضاعت فيما ضاع من شعر حازم ·· فلم يصل الينا منها شئ ·

هاجر حازم من مراكش الى تونس معرجا على بجاية ، مادحا واليها الأمير أبا يحيى · ولقد كانت الحالة فى تونس أكثر استقرارا وأمنا ، والأمير أبو زكريا يحيى أكثر اثابة وتكريما للأدباء من سواه من أمراء تلك الدويلات ، وقد كان كثيرا ما يدعو اليه الأدباء والشعراء ، مما جعل عددا غفيرا منهم يلجئون اليه ، كابن الأبار ، وحازم ، وابن برطلة الأزدى المتوفى بتونس سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٢م ، وابن حبيش اللخمى الفقيه المحدث الشاعر المتوفى بتونس سنة ٦٨٥هـ ١٢٨٦م والمولود بمرسية ٦١٥هـ ١٢١٨م ، والقمجعى ، المرسى أيضا المتوفى بتونس ٦٨٤هـ/١٢٨٥م وابن رزين المولود بمرسية ، وابن الأندراس ، من أشهر أطباء المستنصر ، وابن سيد الناس ، وابن عصفور ، وابن الرومية ، وابن سعيد ، والخزرجى ، وابن عقاب المحدث ، والغرناطى الفقيه المؤرخ ، وغير هؤلاء كثير ·· من الأدباء والمحدثين والفقهاء والرياضيين ، والأطباء وسواهم · وقد كان الأمير أبو زكريا ينظم الشعر كما كان يدعو الشعراء الى

وصنفت بعض النزهات الخاصة التى يخرجون اليها معه ·· ثم يجيز أفضلهم نظما ، وهو الذى يفاضل بينهم بنفسه وكذلك كان يفعل ابنه المستنصر بعد توليه السلطة ·· وقد أنشا هو أو ابنه بيتا للأدباء يقيمون فيه ·· ويجدون كل أسباب الراحه ·· من مأكل ومشرب ·· كما اهتم أبو زكريا وابنه المستنصر بانشاء مكتبة عامة بلغ عدد ما بها من كتب ستة وثلاثين الفا ، حتى أن ابن خلدون لما احتاج الى مراجعة أمهات الكتب بعد أن وضع أصول مقدمته فى جبل بنى راشد بالجزائر ـ ذهب الى تونس للتزود مما ضمته المكتبة الحفصية من مراجع ومؤلفات ·

عاش شاعرنا حازم فى ظل أربعة خلفاء من الحفصيين ·· كما عاش فى الفترة التى تولى فيها السلطة أحمد بن مرزوق المسيلى الذى يلقبه المؤرخون بالدعى ·· من سنة ٦٨٢هـ الى سنة ٦٨٣هـ ·· وسمى بالدعى لادعائه أنه الفضل بن الواثق الحفصى ·· ثم انكشف أمره وقتل سنة ٦٨٣هـ ·· ولكن أهم هؤلاء الحكام جميعا الأمير أبو زكريا يحيى وابنه الخليفة أبو عبد الله محمد المستنصر ·· فقد مدح أبا زكريا يحيى باحدى عشرة قصيدة « من الشعر الذى وصل الينا ، والذى ضمه ديوان « قصائد ومقطعات » لحازم ومدح المستنصر ابنه باحدى عشرة قصيدة ، ومدح أبا زكريا الواثق بواحدة فقط ·· وفى الديوان ثلاث قصائد لا يعرف الى من من السلاطين والأمراء قد توجه بها حازم ·· هذا بخلاف المقصورة التى هى عمل شعرى مستقل ، والتى نظمها فى مدح الخليفة المستنصر ·· وقد كافأه عليها « بالف دينار من الذهب العين ، بحساب دينار لكل بيت ·· » كما مدحه أيضا بسبعة وعشرين بيتا من قصيدته النحوية المشهورة ، ·· ومن أبياتها :

ثم الدعا لأمير المؤمنين ابى · عبد الاله الذى فاق الحيا كرما

خليفــــة خلفت انوار غرتــه شمس الضحى ونداه يخلف الديما
سالت فواضله للمعتفى نعما صالت نواصله بالمعتدى نقمــا

وكثيرا ما كانا يكرمانه ، ويخلعان عليه « الجبــــاب الجربية » الغالية الثمن .. كما كان يقيم في بيت الكتاب الذى أنشاته الدولة لايواء الأدباء ، وقد زاره فيه تلميذه أبو الفضل التيجاني ، وروى عنه لغزه النحوى الذى يقول فيه :

صـــــليه أو كليه لمــا يلاقى ولا تتكلفى خــدع المـــآقى
ودونك فانظرى طمحــان عزمى الى اعــــلى المراتب والمراقى
باعمـــــالى حروفا مضـمرات نواصب فى الهجير لما تلاقى

كما يثق المستنصر به وبذوقه الأدبى وعلمه حتى انه كان يدفع اليه ببعض المؤلفات التى يقدمها له أصحابها ليقرر مدى قيمتها العلمية ، فقد ألف أبو جعفر أحمد اللبلى كتابه « وشى الحلل » الذى شرح به كتاب الجمل ، وبعد أن أتمه رفعه للأمير المستنصر بالله الذى دفعه للأستاذ حازم لتعقبه ، وبعد التأمل أشار حازم سرا على مؤلفه باصلاح ما لزم اصلاحه ، فأصلحه ، « وتم بذلك غرضه .. » وقد كان اللبلى المتوفى بتونس سنة ٦٩١هـ فقيها أريبا وتاريخيا ولغويا ، وهو من علماء افريقية المعدودين ، تلقى العلم على أبى على الشلوبين ، والأعلم البطليوسى ، وابن لب وغيرهم ، ومن تاليفه : رفع التلبيس على حقيقة التجنيس ، وبغية الآمال فى معرفة النطق بمستقبلات الأفعال ، وشرح الجمل .. ويعترف حازم فى مقصورته ، ومدائحه بفضل الخليفة المستنصر فيقول :

بلغت آراب المنى فى دولة اولت يدى اسنى الأيادى واللها

وقد اشتهر حازم بأنه شـــاعر الدولة الحفصـــية ، يقول الزركشى : « وفى ســـنة ٦٨٤ هـ توفى أبو الحسن حـازم شـاعر

الحضرة » . وقد ظل حازم في تونس لم يغادرها الى بلد آخر الى أن توفى فى ليلة السبت الرابع والعشرين من رمضان من سنة أربع وثمانين وستمائة ٦٨٤هـ ، بعد أن ترك عددا من المؤلفات الأدبية .. وعددا أكبر من تلاميذه ، ومريديه .. كأبى حيان ، وابن رشيد ، وأبى الفضل التجانى ، وابن القويع ، والقاضى أبى القاسم محمد بن أحمد الغرناطى ، وغيرهم .

صفاته واخلاقه :

من خلال الاشارات القليلة النادرة التى عثرنا عليها فى المراجع التى كتبت عن حازم ، أمكننا أن نستنتج بعض الملامح الخاصة بشخصيته ، واذا كنا نعجز عن رسم ملامحه كانسان ، فنصفه بالطول أو القصر أو بالبياض أو السمرة .. لأن هذه المراجع لم تذكر شيئا من ذلك ، الا أننا لا نعجز عن رسم بعض شخصيته الحسية ، والعقلية والأخلاقية ، من ذلك أن انصرافه الى العلم فيما يبدو قد صرفه عن الزواج .. فلم يصل الينا خبر عن زواجه .. أو عن أولاده .. بل نرجح أنه لم يتزوج قط .. فقد نقل الينا ابن رشيد أنه كان يقيم أحيانا ببيت الأدباء ، كما سبقت الاشارة الى ذلك .. وأحيانا ببعض الفنادق . فقد روى أبو الفضل التجانى أن حازما قال : « سهرت ذات ليلة بعلو نزلى من تونس فرأيت جوا فى غاية الصفاء » .. الى أن يقول : « فقامت فى خاطرى قصيدة شيخنا أبى القاسم الطرسولى التى مطلعها :

انى بحبلك ياذا العرش ممتسك ولى ببابك مرتاد ومبترك

وهى القصيدة التى عارضها بقصيدته الصوفية الرائعة .. والتى أولها :

سبحان من سبحته الشهب والفلك
والشمس ، والبدر ، والاصباح ، والحلك

والنزل ما يهيأ للنزيل فلو كان متزوجا وذا ولد لاكترى بيتا أو اشترى منزلا يقيم فيه . وقد كان له خادم اسمه أبو عبد الله القطان المسفر ، روى عنه قصة اللبلى . ورغم عزوبيته التى نفترضها فهو ينأى بنفسه عن الشبهات ، ويزح عن نفسه التهم ، فنجده فى شعره ، وبخاصة فى مقصورته ، يدفع عن نفسه ما يظن من أنه قد شارك أترابه ورفاقه معاقرة الخمر ، على الرغم من أن حديثه عن مرحلة مضت ، هى مرحلة شبابه فى قرطاجنة ومرسية ، فيقول :

واترعت للشاربين اكؤس	مما حلا مطعمه ، وما حلى
فاجتمع الأنس بجمع فتية	على عجوز ، وسمها وسم الفتى
غشيت عنها بكئوس أدب	تسقى فيستشفى بها ويشتفى
وآثرت نفسى عليها شربة	من ضرب يجنى ، ورسل يمترى

وقد كان محببا من غالبية الأدباء والعلماء فى وقته ، فابن سعيد يصفه بأنه : « شاعر مجيد وحبيب مجيد .. » كما نجده مقربا للخليفتين أبى زكريا يحيى ، وابنه المستنصر اللذين كانا يثقان به ، ويعتمدان على رأيه فى تقييم الكتب التى تقدم لهما .. وبفضل عفته ، وانصرافه الى الأدب والعلم ، دون التطلع الى المناصب الأخرى ، نجا من كيد الكائدين . وقد عاش فى عصر ملء بالمؤامرات والدسائس . ولا نحب أن نعيد ذكر الأدباء الذين قتلوا على يد المستنصر خاصة ، كابن عصفور صاحب المقرب ، الذى ألقى به فى بركة ماء لأنه قال ان هذه الدولة قد سمت بفضلنا نحن العلماء والأدباء ، فمرض ومات ، وابن الأبار الأديب الكبير صاحب المؤلفات

الخالدة .. الذى أمر المستنصر بنفيه الى بجاية فترة ، ثم أمر بقتله وحرق شلوه ، ومؤلفاته ، لأن خصمه الأديب الغساني وغيره قد وشوا به . لقد نجا حازم فلم يتعرض لشىء من ذلك . نعم قد يكون تعرض للحاجة ، فهو كثيرا ما يشكو من ضيق الوقت الذى يحول بينه وبين التوسع فى ذكر الشواهد على القضايا البلاغية التى يوردها فى منهاجه ، من ذلك قوله فى المنهج الرابع : « المعلم الأول وأبتيه على ما يتأكد التنبيه عليه من ذلك بقول موجز اذ لا ينفسح الوقت الذى للنفس فيه بعض تخل عن الشواغل الى تسريح العنان فى ذلك » . ويكرر ذلك فى الاضاءة الحادية عشرة ، كما يتعرض ككل عالم للحاقدين ممن يضعون من علمه أو فنه ، فحازم يشكو من بعض أهل الفدامة ـ على حد تعبيره ـ الذين يغضون من قيمة الدراسات الجادة ، كالاهتمام بالبلاغة ، الى حد يكاد معه أن ينصرف كلية عن معالجة هذا العلم . كما يعانى من المتنكرين للشعر « الذين يزعمون أنه نقص وسفاهة ، لأن أخساء العالم قد تحرفوا باعتفاء الناس ، واسترفاد سواسية السوق بكلام صوروه فى صورة الشعر ، ولأن النفوس قد اعتقدت أن الشعر كله زور وكذب .. » ، ويرد عليهم فيرميهم بالجهل والحسد ، ويدافع عن الشاعر بما قاله ابن سينا : من أن الشاعر فى القديم كان ينزل منزل النبى ، فيعتقد قوله ، ويصدق حكمه ، ويؤمن بكهاناته ، وانما هان الشعر على الناس لعجمة ألسنتهم واختلال طباعهم . ويسوقنا ذلك الى القول بأن حازما كان معتدا برأيه الى حد كبير ، معتزا بشخصيته وبعلمه .. فنجده كثيرا ما يفخر بشعره كقوله :

نظمتها فريدة فى حسنها ... منظومة نظم الفريد المنتقى
نحوت فى النقلة فى أغراضها ... مذاهبا أعيت على من قد نحا

ويقول :

زنت المدائح والمحامد باسمه فوسمتها منه بأحسن ميسم
ابكار أفكار ، رخيم لفظها عادت لها عونا عذارى مسلم
تزرى بحسان ، وحسن مديحه فى الحارث الجفنى ، وابن الأيهم
جمعت بديع الحسن بين مرصع ومصرع ، ومقسم ، ومسهم

وهو يرى أن ما جاء به فى البلاغة جديد ، لم يطرق « يتخطى فيه ظواهر الصناعة ، وما فرغ الناس منه الى ما وراء ذلك مما لم يفرغ منه .. » ويتهم معاصريه بالانصراف عن العلم ، وعدم الدراية بالبلاغة والشعر ، كما يهاجم العروضيين ، ويتهمهم بالفقر فى صناعتهم ، ويدعوا الى عدم الالتفات الى ما يقولون .. لأنهم يفتعلون الشواهد كما يفتعلها الرواة ، كما ينكر على المتكلمين العلم بالشعر فهم لا يمارسونه ، ولا يعرفون الطرق الموصلة الى معرفته وتذوقه ، والذى يورطهم فى هذا أنهم يحتاجون الى الكلام فى اعجاز القرآن فيحتاجون الى معرفة ماهية الفصاحة والبلاغة من غير أن يتقدم لهم علم بذلك ، فيفزعون الى مطالعة ما يتيسر لهم من كتب هذه الصناعة ، فاذا فرق أحدهم بين التجنيس ، والترديد ، وماز الاستعارة من الارداف ، ظن أنه قد حصل على شىء من هذا العلم .. وليس معنى ذلك أن حازما عدوانى يشن الحملات ، أو يدير المعارك الوهمية ... ، فالواقع أنه حر الرأى لا يرسف فى أغلال التقليد والتعصب ، سواء كان ذلك للقديم أو للجديد ، فهو على الرغم من تنبيهه للكثير من آراء قدامة ، نجده يناقشه ويناقضه حين لا يقتنع بآرائه ، ويمجد المتنبى ويصفه بأنه امام فى الشعر ، ثم يقول عنه ولكنه « توالى وهو يصيب فيها (أى فى صنعة الشعر) ويخطىء .. » ، كما نجده يمجد معاصريه : ابن عميرة وابن سهل ، وقد يعرض عليه عمل أحدهم فيصلحه أو يشير عليه باصلاحه سرا ، فاذا ما تم ذلك قدمه لأولى

الأمر ليجيزوا صاحبه ، كما فعل ذلك مع معاصره « اللبلى » .. وحريته الفكرية هذه قد اكتسبها من دراسته للفلسفة ، كما سنبين ذلك في الحديث عن ثقافته ، ومن الأخلاق النادرة التى اتصف بها .

وتلاميذه يعترفون بفضله ، ويعتدون بذوقه ، ويشيدون بعلمه وأدبه ، فها هو تلميذه الكاتب المتفنن ، محمد أبو الحسن على بن ابراهيم التجانى ، يتحدث عن أغراض شعره فيقول : أما الغزل بما هو على القديم ، فقولى فى كلمة ، وعهدى بشيخنا أبى الحسن حازم ـ رحمه الله ـ يستظرفها ويستطرفها :

لى عند سكان « النوى » وسائل يدل بها فى الحب راج وسائل
أحاط به وجد ، وفى رمل عالج علاج اترك الوجد والبعد عاجل

فالتجانى يستشهد على جودة غزله بشهادة أستاذه أبى الحسن حازم القرطاجنى . وكثيرا ما نجد تلامذته كأبى حيان ، وابن رشيد، بل سائر من ترجم له ، يفرط فى الثناء عليه ، ويسبغ عليه الكثير من صفات التبجيل والتعظيم .. فهو : « أوحد زمانه فى النظم والنثر والنحو واللغة والعروض وعلم البيان » على حد قول تلميذه أبى حيان .. « وحبر البلغاء ، وبحر الأدباء ، ذو اختبارات فائقة ، واختراعات رائعة لا نعلم أحدا ممن لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقد علم البيان ما أحكم من منقول ومبتدع أما البلاغة فهو بحرها العذب ، والمتفرد بحمل رايتها فى الشرق والغرب .. » كما يقول تلميذه ابن رشيد .

وكشأن الشعراء بعامة ، نحس أن فى أعصابه توترا وارهافا حادا .. فنجده اذا أنكر أمرا هاجمه بعنف ، وقد يفلت منه الزمام فتصدر عنه بعض الكلمات والعبارات الجافية ، كقوله فى صدد الرد على من ينكرون الشعر « بل كثير من أنذال العالم ـ وما أكثرهم ـ

يعتقد أن الشعر نقص وسفاهة ٠٠ وكان القدماء من تعظيم صناعة الشعر واعتقادهم فيه ضــد ما اعتقده هؤلاء الزعانفة ورأوا الحساء العالم قد تحرفوا باعتفاء الناس ٠٠ فصارت نفوس العارفين بهذه الصنعة ٠٠ تستقذر التحلي بهذه الصناعة » ٠ ويتحدث عن الأخيلة المبتكرة ومدى تأثيرها على المتلقى فيقول : « وغير المعتاد يفجؤها بما لم يكن به لها استئناس قط فيزعجها الى الانفعال بديها الى الشيء ، والانقياد له ، أو النفرة عنه ، والاستعصاء عليه » ٠ فالاحســاس الحاد المتوتر وحده هو الذى يشعر بعنف مفاجأة الجديد للنفس الى درجة ارغامها أو ازعاجها ـ على حد قول حازم ـ الى الانفعال فتنقاد النفس للشىء أو تنفر عنه ؟

ومن صفات حازم التى ألمعنا اليها فيما سبق ، اعتزازه بعلمه ، وبشخصه ٠٠ ولكنه لأسباب نفسية قد بالغ فى ذلك ، فكان كثيرا ما يشيد بشعره وأدبه فى المجالس ٠٠ ربما لأن الشعر فى عصره قد تدنى ، وولج مقاصيره من لا علم له بأسراره ٠٠ وقد يكون بعض معاصريه منكرا عليه البعض من شعره ٠٠ وعبارة رفيقه وصديقه ابن سعيد تشير من طرف خفى الى ذلك ، اذ يقول وهو بصــدد الحديث عن شعره : لا يخلو من الألفاظ المبتدعة ٠٠ رحل الى المغرب فاشتهرت له به قصائد لم يخل نظمها من فرائد » ٠ فالتعبير « بلم يخل » ولا « يخلو » تدل على أن رأى بعض معاصريه فى شـــعره أنه ليس كله جيدا ٠٠ لذلك نجد حازما يبالغ فى تقديره لشاعريته ٠٠ فيفيض فى المجالس فى الاعجاب بما نظم أو كتب ٠٠ وقد أوجد المجال للمقارنة بين فخره بنفسه ٠٠ وتواضع معاصره أبى بكر ابن حبيش ، والقصة الآتية التى يرويها ابن رشيد تؤكد ذلك المعنى ، قال ابن رشيد : « بلغنى عن شيخنا ابن بكر أنه اجتاز يوما وهو بمدينــة بجاية ببعض الدكاكين ، وبيد بعضهم شىء من نظم الفقيه أبى بكر

وهم يفيضون في استحسان ما فيه من محاسن ، فأخذ هو (أبو بكر نقشة) في مناقضتهم جريا على عادته ، ولما انصرف عنهم تذكر قوله تبارك وتعالى « وأما بنعمة ربك فحدث » فعاد اليهم وتلا الآية عليهم معترفا بنعمة ربه ، مستغفرا من ذنبه • وحكى بعض أصحابنا : أنه كان هو وشيخنا أبو الحسن حازم رحمه الله في هذا المعنى ضدين ، اذ كان أبو الحسن رحمه الله يفخم كلام نفسه ، ويمدحه ، ويظهر ما فيه من المحاسن •• وأنه شاهد اجتماعهما يوما في مجلس واحد ، وكان الشيخ أبو الحسن يعلى محاسن كلامه جريا على عادته ، والفقيه أبو بكر يخفى محاسن كلامه ، حتى عجب الحاضرون من أمرهما ، ولكل منهما نظر سديد ، ورأى مصيب • وبالجملة فهذان الرجلان كانا الغاية فى طريقتهما : أبو الحسن فى جزالته وأبو بكر فى حلاوته •• » • إن ما فعله حازم يذكرنا بما كان يفعله أديبنا الكبير المعاصر « الدكتور زكى مبارك » من الافتخار بنفسه وبأدبه •• حين وجد اهمالا من النقـــاد المعاصرين له •• وما فعله حازم ليس شاذا بين الشعراء ، فالمتنبى كثيرا ما كان يفخر بشعره حتى فى مدائحه لكبار الحكام ، وبشار الذى كان يصيح فى الجالسين : « لماذا لا تقولون أحسنت » •

وتتصل بهذه الصفة صفة أخرى قد وسم بها بعض الأدباء ، هى الغفلة •• وهى صفة تصيب الأدباء والعلماء لانصراف تفكيرهم الى ما يشغلهم من مباهج الفكر والفن ، فلا يلتفتون لسوى ذلك •• وتحدث منهم بعض التصرفات غير الواعية المخالفة لما اعتاده الناس فيعجبون من شأنهم • ولا أحب أن استطرد فى ذلك ، ويكفينا دليلا على تفشى هذه الظاهرة بين العلماء والأدباء •• ما كان يفعله الخليل : اذ نظر يوما الى قاع بئر ، وأخــذ يترنم بتفعيلات الأوزان التى ابتكرها •• وحين انتبه وجد حوله جمعا غفيرا من الصبية الذين

يتصايحون حوله ·· وقد عرف بهذه الصفة أستاذ حازم أبو علي الشلوبين ، الذي قالوا عنه : انه كان يوما لدى نهر وبيده كراريس يطالع فيها ، فوقع كراس في الماء فغرفه بآخر · ومن القصص التي تساق للتدليل على اتصاف حازم بهذه الصفة ، ما رواه لسان الدين بن الخطيب ، قال : « حدثني الشيخ أبو العباس الكاتب ببجاية وهو آخر من كتبنا منه الحديث عن أصحاب ابن العماد قال : كنت آويا الى أبي الحسن حازم القرطاجني بتونس ، وكنت أحسن الخياطة ، فقال لي : ان المستنصر خلع علي جبة جربية من لباسه ، وتفصيلها ليس من تفصيل أثوابنا بشرق الأندلس ، وأريد أن تحل أكمامها وتصيرها مثل ملابسنا ، فقلت له : وكيف يكون العمل ؟ فقال : تحل رأس الكم بوضع الضيق بالأعلى والواسع بالطرف ، فقلت ، وبم يجبر الأعلى فانه اذا وضع في موضع واسع سطت علينا فرج ما عندنا ، ما يصنع فيها الا أن نرقعها بغيرها ، فلم يفهم ، فلما يئست منه تركته وانصرفت ، فأين هذا الذهن الذي صنع المقصورة وغيرها من عجائب كلامه ·· » · وما أحسن قول الصفدي عن الشلوبين « وكانت فيه غفلة الفضيلة ·· » فمثل هذه الغفلة مما يحمد للعلماء والأدباء لا مما يلصق بهم معرة الجهل أو التقصير في شأن من شئون الحياة ·

الفصل الثاني

ثقافته وأساتذته

نشأ حازم في عصر يموج بالعلم والثقافة رغم الاضطراب والفزع الذى يسود المدن الأندلسية من جراء زحف النصارى عليها والصراعات الداخلية التى تمزق هذه البلاد الاسلامية . وقد ترعرع فى كنف أسرة معروفة مشهورة بالعلم ... فوالده كان قاضيا جليلا ، وأخوال والده من الأدباء والعلماء .. وقد تلقى أول ما تلقى العلم على والده ... فدرس عليه قدرا من الفقه ، وعلوم اللغة العربية ... وتردد كثيرا على مدينة مرسية القريبة منه ، للأخذ من أشياخها أمثال : الطرسونى والعروضى . وهو يروى لنا قصة شاهدها فى مرسية وهى : أن رجلا لم يكن له علم بالطب استعار بعض كتب الأطباء وسهر على قراءتها ليستخلص منها دواء يعالج به صديقه ، ولأنه لم يمارس الطب ولم يدرسه سوى بضعة أيام .. فقد وصف لصديقه دواء .. قضى عليه . مما يدل على أن حازما عاش وعاشر العلماء والأدباء وجماهير الناس بمرسيه فترة ليست بالقصيرة فيما نظن ... وقد تلقى حازم العلم على عدد وفير من العلماء « يقاربون الألف » على حد قول تلميذه أبى حيان ، واستجاز وجيه الدين منصورا ، محتسب الاسكندرية المعنى بفنون الحديث ،

ومصنف تاريخ الاسكندرية ـ والمتوفى سنة ٩٧٢ هـ ـ فكتب اليه الوجيه بقوله :

انى اجزت لحازم بن محمد	صدر الأفاضل والامام السيد
مجموع ما رويته فرويته	عن الف شيخ من رواة المسند
فى مصرها مع شامها وعراقها	وحجازها من متهم او منجد
وجميع ما صنفته وجمعته	فى علم فقه الشافعى محمد
فليروعنى ما رويت رواية	مشروطة بتوثق وتشدد
وليبق فى روض العلوم منعما	بسعادة وسيادة وتأيد

وواضح أن ما أخذه من العالم الاسكندرى ، انما هو مما يتعلق بالدين وبفقه الامام الشافعى وبعضه مما يتعلق باللغة ٠٠٠ وليس فى كتابات حازم ما يشير الى أنه قد كان مالكيا كغالبية أهل الأندلس ، كما يرجح ذلك الحبيب بن خوجه ، ومحمد مخلوف الذى ترجم له فى كتابه « شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية » دون أن ينص على أنه مالكى المذهب ، أو شافعى ، كما يشتم من الأبيات السابقة ٠ كما تتلمذ على الطرسونى المتوفى سنة ٦٢٢ هـ أو ٦٢١ هـ ، والذى كان يقوم بتدريس الفقه والعربية والأدب ، مع مشاركة فى غير ذلك ٠ وحازم يعترف بأستاذيته فيقص علينا قصة ميلاد قصيدته الصوفية التى يعارض بها قصيدة شيخه الطرسونى فيقول : سهرت ليلة ، ونظرت من شرفة منزلى منتصف ليلة مقمرة قد كمل نورها فرأيت جوا فى غاية الصفاء ، وأشرفت على التنزول فرأيت نجوما فى الأرض ونجوما فى السماء ٠٠ فوجدت نفسى فى ذلك الوقت وقامت فى خاطرى قصيدة شيخنا أبى القاسم الطرسونى :

انى بحبلك ياذا العرش ممتسك	ولى ببابك مرتاد ومبترك
يقيمنى الوقت فيه ثم يقعدنى	ذا فيه من درن الأحوال ارتبك

فنظم حازم قصيدته :

سبحان من سبحته الشب والفلك
والشمس والبدر والاصباح والحلك

وهي قصيدة طويلة تقع في اثنين وأربعين بيتا مقتفيا فيها آثار أستاذه أو مستلهما روحه ، وشاعريته . ومن هذا الحديث ندرك أن حازما قد تتلمذ على الطرسوني في الشعر ، كما تتلمذ ـ فيما نعتقد ـ على العروضي الذي نبغ في الأدب واللغة ، والعروض بخاصة حتى لقب بالعروضي .

أما العالم الجليل الذي ترك أثره فيه واضحا ، كما ترك آثارا مماثلة على جيل من الأدباء والعلماء في عصره ممن تخرجوا عليه ـ سواء في الأدب واللغة أو النحو ـ فهو « عمر بن محمد بن عبد الله الأزدي الأشبيلي الشلوبيني » الذي ولد باشبيلية سنة ٥٦٢ هـ وتوفي بها سنة ٦٤٥ هـ ، والذي كان : ذا معرفة بالقراءات ، حاملا للآداب واللغات ، أخذ بطرف صالح من رواية الحديث ، متقدما في العربية ، كبير أساتذها باشبيلة ، مبرزا في تحصيلها مستبحرا في معرفتها . متحققا بها ، حسن الالقاء لها والتعبير عن أغراضها » . ويشهد له بسعة المعرفة ، ووفرة العلم تلميذه ابن سعيد فيقول : « لم يترك أحدا في عصره يوازيه » . وقد قرأ عليه ابن سعيد : الكامل للمبرد ، وديوان أبي الطيب ، وسمع غيره من الطلاب يقرأ عليه غير ذلك .. وهو في جميعها كالعارض الصيب . الا أن النحو كان الغالب عليه » . ورغم شهرته في النحو التي غطت على درايته وعلمه الواسع بفنون الأدب ، فقد كان يقرض الشعر ، وشعره كشعر العلماء ممتلىء بالتوريات النحوية ، ولكنه « كان ذا معرفة واسعة بنقد الشعر ، وغيره » . فتأثر به حازم في كل ذلك .. تأثر به في علم النحو ، فألف قصيدته الميمية

التي نالت اعجاب النحاة منذ أن ذكر ابن هشام بضعة أبيات منها في كتابه المغني ... والتي أهداها للخليفة المستنصر ... والتي لم يصلنا منها سوى مائتين وثمانية عشر بيتا ، وقد أوردها ابن خوجة في آخر ديوان حازم « قصائد ومقطعات » . كما تأثر به في الاطلاع الواسع على التراث العربي - مما سنوضحه فيما بعد - والاهتمام بنقد الشعر .. بل ربما يكون هو الذي هداه الى ما كتبه الفلاسفة كابن سينا والفارابي عن الشعر مما نقلوه عن أرسطو : أرشده الشلوبين الى ذلك حين لمس في حازم نبوغه واستعداده الفعلي الذي جعل « جانب الدراية يغلب فيه على جانب الرواية » كما يقول عنه تلميذه ابن رشيد في رحلته ... وبخاصة أن الشلوبين كان تلميذا لابن رشد الفيلسوف الأندلسي ، ولم يترك حازم منهجا بأسماء أساتذته كما يفعل العلماء ، والأدباء في عصره ، ولكننا نستطيع من خلال مطالعتنا لما وصل الينا من كتابه الرائع « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » أن نلم الماما لا بأس به بالعلماء والأدباء الذين تأثر بهم ... فاذا كان لأساتذته الذين تلقى عنهم العلم والأدب في حياته كالطرسوني والعروضي ، والشلوبين ... فضل توجيهه وارشاده ، فللأساتذة الذين لم يعاصرهم - وانما قرأ ودرس مؤلفاتهم - فضل تكوينه وتثقيفه ، وفي كل فن من الفنون التي نبغ فيها ... أساتذة أجلاء تتلمذ على بحوثهم ودراستهم أو أشعارهم ... واذا كان درس الفقه وعلوم الشريعة على والده ، فانه قد زاد ثروته بما تلقاه من مؤلفات ومرويات أستاذه منصور وجيه الدين ، الذي لم يلتق به فيما نظن ، اذ أنه لم يغادر مصر الى بلد آخر ... ولا شك أنه في النحو قد ألم بكل مؤلفات النحاة التي ألفت منذ سيبويه الى معاصره ابن عصفور صاحب « المقرب » . فلقد كان حازم أحد جماعة من الأندلسيين وغيرهم ، وجهوا سهام نقدهم لكتاب « المقرب » ... ذكر منهم المقري : ابن الصائغ وابن

هشام والجزيرى صاحب كتاب « المنهج المعرب في الرد على المقرب » ، وابن الحاج ، وأبو الحسن حازم القرطاجي الخزرجي ، وكتابه « شد الزنار على جحفلة الحمار » . وابن مؤمن القابسي ، وبهاء الدين النحاس .

وقد تخرج حازم فى الفلسفة وبخاصة ما يتصل منها بفن الشعر ، على ابن سينا الذى نقل عنه فى أكثر من خمسة عشر موضعا ، وكان دليله في بحثه - بل حاول أن يحقق ما وعد ابن سينا أن يحققه من أنه سوف يجتهد فيبتدع فى علم الشعر المطلق ، وفى علم الشعر بحسب عادة زمانه ، كلاما شديد التحصيل والتفصيل ... فقال حازم معقبا على قول ابن سينا السابق : « وقد ذكرت فى هذا الكتاب من تفاصيل هذه الصنعة ما أرجو أنه من جملة ما أشار اليه ابن سينا » ... ويطبق الحدود المنطقية التى ذكرها ابن سينا على التشبيه فيقول : وفرق بين قولك فى الشىء انه الشىء الآخر وبين قولك انه مثله وشبهه ... ويمجد ابن سينا فيلقبه بالامام الرئيس . ويتبنى ما نقله ابن سينا من أنه قد كان شعراء اليونان يلتزمون لكل غرض وزنا يليق به ... فعلى شعراء العربية أن يختاروا فى - رأى حازم - لكل غرض البحر الملائم له ... بل لا أكون مبالغا اذا قلت : ان صلب كتاب حازم (منهاج البلغاء) قائم على آراء وأفكار ابن سينا ، سواء منها ما نقله عن أرسطو أو ما أضافه هو من عنده ... ولكن حازما قد استفاد من الفارابى أيضا ، فنقل عنه فى موضعين ... أولهما : حين تحدث عن مشكلة الصدق والكذب فى الفن ، وأن عماد الفن التخييل الذى يدفع الانسان الى فعل الشىء أو الهرب منه ، ولا أهمية لما فيه من صدق أو كذب ... والموضع الثانى : حين ذكر أن القافية لا توجد فى غير الشعر العربى ... وان « الأليمن

الأعجمية متى وجد فيها شعر مقفى فانما يرومون أن يحتذوا فيه حذو العرب ، وليس ذلك موجودا فى أشعارهم القديمة ٠٠٠ » ٠

ولكن حازما لم يذكر من مصادره تلخيصات ابن رشد لفلسفة أرسطو ، وبخاصة كتابه « فن الشعر » فلماذا ؟ ٠٠٠ لقد سبقنا الى اثارة هذا التساؤل الدكتور عبد الرحمن بدوى ، الذى رجح ـ ونحن نوافقه فى ذلك ـ أن يكون اهمال حازم لتلخيصات ابن رشد عن عمد ، لأنهما قد عاشا فى فترة تاريخية متقاربة ، وطرقا موضوعا واحدا ، وهو تطبيق نظريات أرسطو فى الشعر ، والبلاغة ، على الشعر والبلاغة العربيين ٠ فلكى يبين « حازم » فضله على نحو أظهر ، أغفل ذكر ابن رشد متعمدا ، وهذه ظاهرة نفسية مألوفة ٠ على أن حازما قد قرأ وتمثل ما قرأه وطبقه على الشعر والبلاغة العربيين ٠٠٠ بل قد فصل وتوسع فى شرح فكرة المحاكاة ، مما لا نجد له نظيرا عند ابن سينا ولا الفارابى ولا أرسطوطاليس ٠٠٠ كما اعتمد فيه على نفسه وعلى استقراءاته فى الشعر العربى ، دون أن يعتمد على أسلافه هؤلاء ٠ وقد نقل حازم نصا عن افلاطون لم يرد فى ترجمة ابن سينا ٠ وكما تأثر بالفلاسفة فى تطبيق نظريات أرسطو على الشعر والبلاغة العربيين ، فانه قد ألم الماما واسعا بكل ما كتبه علماء النقد والبلاغة من العرب ٠٠ فيستشهد بكلام الجاحظ ـ ويظهر اعجابه به ٠ وينتفع الى حد كبير بما كتبه قدامة .

فيعتمد على كلامه فى انكار استعمال المعانى العلمية والصناعية والتعبيرات الاصطلاحية فى الشعر ٠٠ لأن البصراء بهذه الصناعة كأبى الفرج قدامة وأضرابه قد نص جميعهم على قبح ذلك ٠٠ ويذكر اصطلاح قدامة ، الذى خالف فيه علماء البلاغة ، وهو تسميته للطباق تكافوءا ، ويطلق المطابقة على اللفظين المتغايرى المعنى ٠ وينتفع بالشواهد التى ذكرها قدامة فى كتبه ، وينقل عنه ما ذكره من أن الفضائل التى يكون بها المدح الحقيقى أربع خلال هى : العقل

والعفة والعدل والشجاعة . والتفريعات التى أوردها قدامة لتلك الصفات الكلية والأمثلة التى ساقها للاستدلال .. وتعليقه عليها.. ويدافع عنه فيرد على الآمدى الذى أنكر ما قاله قدامة : من أن المدح بالحسن والجمال والذم بالقبح والدمامة ، ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة .. مستدلا بانكار عبد الملك بن مروان قول ابن قيس الرقيات :

يأتلق التــاج فـوق مفرقـه على جبـين كأنه الذهـب

فقال الآمدى وتابعه الخفاجى فى ذلك : « ان كان قدامة يعتقد أنه ليس بفضيلة لما كان الانسان قد خلق عليه ، فهذا حكم الفضائل النفسانية ، فان الكريم قد خلق كريما والشجاع شجاعا ، فكما لا يقدر القبيح الوجه أن يستبدل صورة غير صورته ، فكذلك الجاهل لا يقدر أن يستفيد عقلا فوق عقله .. » . وقد وفق حازم فى الرد على الآمدى والخفاجى ، اذ فرق بين الصفات النفسية والجسمية بأن الأولى قابلة للتغيير بخلاف الثانية ، ولأن الحكماء المتكلمين فى الفضائل قد اتفقوا على أن الانسان قد يقدر على أن يكتسب بعض الفضائل بالتطبع ، وأن يستكمل كثيرا مما ينقصه من ذلك بالاعتياد والرياضة ومجاهدة النفس . ولكن حازما رغم تقديره واعجابه بآراء قدامة ، فانه قد يختلف معه .. ويرفض بعض آرائه فى تأدب واحترام .. من ذلك رفضه لاصلاح التكافؤ الذى استحدثه قدامة .. وتعقيبه على ذلك بما يفيد احترامه له .. فيقول « ولا تشاح فى الاصطلاح » . وحين يتعرض لتعليق قدامة على بيت زياد الأعجم فى وصف الكلب :

تراه اذا ما ابصر الضيف مقبلا يكلمـه من حبـه وهو اعجـم

وقوله بأن الشاعر قد تناقض من حيث أوجب الكلام للكلب .. ثم أعدمه اياه بقوله : وهو أعجم . يسوق حازم رد الخفاجى على

قدامة . ودون أن يذكر تحيزه لرأى الخفاجى يذكر هو وجها آخر من التأويل يشعر بتعضيده لرأى الخفاجى ، دون أن يصرح بذلك .. وهذا بسبب تقديره واعزازه لأستاذه قدامة الذى أحبه واعجب بالكثير من آرائه .. حتى أنه قد نقل عنه فى أحد عشر موضعا من كتابه « منهاج البلغاء » . وينقل عن ابن سنان الخفاجى فى نحو سبعة مواضع .. فيستفيد من شواهده ، ويصفه بأنه تلميذ أبى العلاء صاعد ، مما يدل على اكباره له ، ويؤيده فى بعض آرائه ، كما رأينا ذلك فيما سبق ، وكعادة حازم فى أنه ينتفع من كل ما يقرؤه ، ويكن التقدير لكل من سبقه من الباحثين ، دون أن يجعل ذلك غلا فى عنقه يحجر على حريته ويقيد تفكيره . نجده يعترف للخفاجى بأنه تكلم عن كل ما ذكره هو ، من أنه لا يجوز وضع الممكن أو الواجب وضع المستحيل ، والتفرقة بين الممتنع والمستحيل ، فالمستحيل لا يمكن وجوده ولا فى الوهم ، مثل كون الشى أسود أبيض وطالعا نازلا فى واحدة ، والممتنع هو ما يمكن تصوره فى الوهم وان لم يمكن وجوده ، مثل أن يتصور تركيب بعض أعضاء نوع من الحيوان على جسد نوع آخر . ولكنه ينكر عليه منعه أن يوضع الجائز وضع الممتنع على كل حال « والصحيح أن ذلك يقع حيث تقصد المبالغة » .

لقد استفاد حازم من ابن قتيبة وابن سنان الخفاجى كثيرا ، ولكنه لم يهمل الاستفادة من سواهما كالآمدى ، وأثنى على معاصريه : ابى الحسن سهل بن مالك ، وأبى المطرف بن عميرة ، فقال عنهما : « وقد جارانا الكلام فى هذا الباب (وهو الحديث عن حسن المآخذ الذى يسبغ على الكلام حلاوة وحسنا) الفقيه العلامة أبو الحسين سهل بن مالك ، وكان اماما فى هذه الصناعة ، وهناك الكاتب الأبرع أبو المطرف بن عميرة نسيج وحده فى البلاغة » ...

وقد اعترف حازم بأنه تلقى علم البلاغة عن بعض الشيوخ الذين لم يذكر أسماءهم ، واذا كان لم يذكر فى هذا الجزء الباقى من الكتاب علما شهيرا من علماء البلاغة هو « عبد القاهر الجرجانى » الذى لا نشك فى أن حازما قد انتفع منه ، بخاصة فى نظرينه « فى النظم » مع تطويره لها ، فالذى نعتقده أن ما نقله عنه لم يصل الينا لضياع القسم الأول من الكتاب ، وهو القسم الذى تناول فيه بالشرح : الأسلوب ، والصور الخيالية ، من تشبيه واستعارة وكناية ، وغيرها . ويستفيد حازم من علماء اللغة كالأصمعى ، والفراء ، والخليل بن أحمد الذى ينقل عنه ما قاله عن الشعراء من أنهم : « أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا ، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم .. » . ويذكر من الأدباء : أبا الفرج الأصفهانى وابن العميد وأبا على القالى ، وسواهم .

فاذا تركنا ذلك الى الشعر ، وجدنا حازما قد ذكر عددا كبيرا من الشعراء فى منهاجه ، مما يدل على اطلاعه الواسع ، بل ومعايشته لشعر الشعراء ، حتى أنه أمكنه أن يتعرف على الأسلوب الخاص ببعضهم ، والطريقة التى يتبعها فى النظم . ولم يكتف بشعراء عصر دون عصر .. بل استشهد بأبيات كثيرة لشعراء مختلفين : فمن العصر الجاهلى استشهد بأبيات لامرىء القيس ، والأعشى أبى بصير ميمون ، وأعشى همدان ، وأوس بن حجر ، وبشر بن أبى حازم ، وتأبط شرا ، والنابغة الجعدى ، وحسان بن ثابت ، وأبى دواد الايادى ، وأبى دهبل الجمحى ، وزهير بن أبى سلمى ، وعدى بن زيد ، والخنساء ، وعمرو بن كلثوم ، ولبيد ، وعنترة ، والنابغة الذبيانى ، ونابغة بنى شيبان ، والحارث بن حلزة . وعروة بن الورد ، ومهلهل بن ربيعة ، وسواهم . كما استشهد بأبيات كثيرة للشعراء الاسلاميين ، أمويين وعباسيين ، كجرير ، وجميل بن معمر ، وهدبة بن الخشرم ، والشماخ ، والطرماح ، وعبد الرحمن القس ،

وعوف بن محلم ، والفرزدق ، وقيس بن الخطيم ، وابن الرقيات ، وكعب بن زهير ، ونصيبا ، وقطرى بن الفجاءة · ومن شعراء العصر العباسي ، ذكر شعرا للبحترى ، وأبى تمام ، وبشار بن برد ، وأبى العتاهيــة ، وابن الرومى ، وزيادة الأعجم ، والشريف الرضى ، والصنوبرى ، والمتنبى ، ومروان بن أبى حفصة ، والمعرى ، وابن المعتز ، ومهيار ، وأبى نصر بن نباته ، ومنصور النمرى ، وأبى نواس ، والوأواء الدمشقى ، وسواهم ·

وعلى كل فحازم يبدى تقديره واعجابه بفحول شعراء الجاهليه من أمثال : « زهير والنابغة والأعشى وامرىء القيس ، ومن جرى مجراهم وانخرط فى سلكهم · ويستشهد بأبيات كثيرة للشعراء الأمويين ·· ولكنه يطيل الوقوف عند بضعة شــعراء من شــعراء العصر العباسي ·· من هؤلاء الشعراء : أبو تمام ، الذى لا نشك فى أن اتجاهه البديعى هو الذى استعبد شعراء المغرب والأندلس فى عصر حازم ·· كما اســتبد بالمشارقة ، فنجد حازما يثنى على البديع وان كان يخص أنواعا منه بالثناء فى مقدمتها : المطابقة والمقابلة ·· ولكنه يسرف فى استعمال الجناس فى شعره ، وبخاصة فى مقصورته ·· كما نجد أكثر من كتاب قد وضعه العلماء فى عصره ·· وشــارك فيها تلاميذ حازم ، فلتلميذه ابن رشيد كتاب « أحكام التأسيس فى أحكام التجنيس » « والاضاءات والانارات فى البديع ، المسماة بايراد المرتع المريع لرائد التسجيع والترصيع » · ولا تنتظر من حازم أن يعفى أحدا من الشعراء من النقد ، حتى الذين يقدرهم ويصفهم بأنهم (من حذاق المطبوعين) · يفعل ذلك مع أبى تمام كما يفعله مع شاعره الأثير المتنبى · فهو ينقل عن أبى تمام فى نحو اثنين وعشرين موضعا فينقل عنه نصيحته للبحترى ويحث الشعراء على أن يأخذوا بها ، فيقول : « يجب للشاعر اذا

أراد نظم الشعر ــ وكان الزمان له منفسحا والحال مساعدة ــ أن يأخذ نفسه بوصية أبى تمام الطائى لأبى عبادة البحترى فى ذلك ، ويأتم به ·· » · وبعد فراغ حازم من ايرادها كاملة يصلها « بما يكون تفصيلا لبعض ما أجمل فيها ، وتكميلا لما نقص منها ·· » · وهو يثنى عليه فى مجال الحديث عن المبادىء الموفقة كقوله :

يا بعد غاية دمع العين ان بعدوا هى الصبابة طول الدهر والسهر

فيعلق على هـذا البيت بأنه « لو أخلى المعنى من التعجب واقتصر على ايجاب بعد غاية الدمع لبعدهم ، لم يكن له من حسن الموقع ما له فى هذه العبارة » · ويثنى على تخلصه واستطراده ـ وحازم يفرق بينهما فالتخلص ينحى به نحو التدرج ، والاستطراد انتقال من غير تدرج · ويجعله من فحول المحدثين ، وينصح الشعراء بالاقتداء به فى المحافظة على الاستعمال العربى الصحيح ، فالعرب تدخل الباء على المبدل منه فى قولهم استبدل كذا بكذا · وعلى مثل هذا استعمله فحول المحدثين كقول أبى تمام :

فاسـلم أمير المؤمنين لأمـة ابدلتها الامراع بالامحـال

ونشعر بأنه يميل الى تفضيله على شعراء مشهورين ، كالبحترى الذى اشتهر بالتفوق فى الوصـف ، وابن المعتز الذى نبـغ فى التشبيه ، والمتنبى ، الذى أجاد فى الأمثال والحكم ، وابن دراج القسطلى الذى برز فى التواريخ ، ولكن من الشعراء « من يتوفر قسطه من جميع ذلك كأبى تمام ·· وان كان غيره أشف منه فى فى التشبيه والحكم ·· » ، فأبو تمام يجيد فى شتى الأغراض ، بينما أقتصرت اجادة من ذكر على غرض واحد منها ، وان كان بعضهم قد فاقه فى الغرض الواحد الذى قصر همه عليه ، كالمتنبى فى الحكم ، وابن المعتز فى التشبيه · ولم يسلم أبو تمام من وقفات

حازم النقدية معه ... فيأخذ عليه استعماله لبعض كلمات الحكماء والفلاسفة فى شعره ، كالجوهر والعرض ، واستعماله لكلمة (قفا فى المدح .. والعرف قد جعلها لا تستعمل الى فى الذم .

ابو عبادة الوليد البحترى :

لقد استشهد للبحترى بأبيـات من شـعره فى أحـد عشر موضعا ، وحدد لنا صفته البارزة وهى اجادة فن الوصف ، واشتهاره بالحديث عن الطيف ، ويثنى عليه فى ذلك فيقول فى صدد الحديث عن منزع الشعراء فى جعل الكلام مقبولا مؤثرا :

« والمعين على ذلك أن ينزع بالكلام الى الجهة الملائمة لهوى النفس .. » الى أن يقول : « نحو منزع عبد الله بن المعتز فى خمرياته والبحترى فى طيفياته فان منزعهما فيما ذهبـا اليـه من الأغراض منزع عجيب ... » . ويعيب عليه بعض مباديه ، من ذلك: البيت الذى أنشـده البحترى محمـد بن يوسف أو غيره من امراء الثغور ، وهو :

لك الويل من ليل تطاول آخره ووشك نوى حى تزم اباعره

فقال له الممدوح « بل لك الويل والحرب » ، على أن هذا البيت روى بالهاء بدل الكاف فى قوله (لك) وهى أشبه به من الرواية الأخرى ... وهنـا نلمس رغبة حازم فى الدفاع عمـا رمى به البحترى ، مما يدل على اعجابه به ، واكباره له .. ويذكر أن للبحترى قصائد ينتقل فيها من الغزل الى المديح دون توطئة وتمهيد كما كان يفعل قدامى الشعراء ... على الرغم من أن له تخلصات رائعة كقوله :

شقائق يحملن الندى فكأنـــه دموع التصابى في خدود الخرائد

كأن يد الفتح بن خاقان اقبلت تليهـا بتلك البارقات الرواعد

ابن الرومى :

لقد درس شعر ابن الرومى ··· وتزود منه بزاد كبير فيما أعتقد ·· واتضحت له شخصيته ، وعرف أهم ميزاته وسماته الشعرية · ولا أعتقد أن ناقدا أو باحثا بلاغيا قد سبق حازما الى رسم الملامح الكلية لشاعرية الشاعر ، وتجلية منزعه وطريقته ، مثلما فعل حازم ·

لقد استشهد بشعره فى أحد عشر موضعا ··· وبين طريقته وأسلوبه فى الشعر ، فهو يميل الى استقصاء المعنى وتفصيله ·· وهو يثنى على عمله هذا فيقول معقبا على قوله ·

عفى كـلوم زمانى ثم قلمــه عنى فأحفاه ثم اقتص ما اجترحا

« فلم يغادر أى ابن الرومى ـ ركنا من أركان المعنى الا ذكره · فتم المعنى وجاء فى نهاية البلاغة » · ولاحظ (حازم) أن ابن الرومى قد يضطره حب التفصيل والتطويل الى مزج الجيد بغير الجيد ، والمعانى الشريفة بغير الشريفة ··· وان كان ذلك مستساغا منه لما تفرضه عليه الاطالة ··· كما لاحظ أن ابن الرومى كثيرا ما يوفق فى مزج الجد بالهزل (فكثير من معانى الهزل تحرك ذا الجد وتطربه) · وحازم يحذرنا من الاسـفاف فى الهزل اذا كان الشاعر يتناول غرضا من الأغـراض الجادة ·· واذا كان الشعراء يضيق عليهم مجال القول فى تحسين القبيح أو تقبيح الحسن ، فان ابن الرومى » أقوى الناس عارضة وأكثرهم تصرفا فى هذا ·· واعتبر قوته على ذلك بما قال فى صفة السوداء فى الشعر الذى يقول فيه :

اكسبها الحب انهـا صبغت صبغة حب القلوب والحـدق

وبما قال فى النرجس والورد ، وبتحسينه التصابى فى حال المشيب ، بشعره الذى أوله :

لاح شيبى فظلت امرح فيـه مرح الطرف فى اللجام المحلى

ونحو ذلك من حسن تصرفه فى الشعر الذى رثى فيه بعض القيان وهو الذى يقول فيه :

سيشفع الحور فيه أنك منهن بـذاك الدلال والحـــور

ويحذر حازم الشعراء من التعرض للمعانى العقم ، وهى التى اختصت بصاحبها بحيث لا يجرؤ شاعر على اعادة صياغتها « كبيت عنترة المشهور » :

وخلا الذباب بها يغنى وحده هزجا كفعل الشارب المترنـم
غردا يسن ذراعه بذراعــه قدح المكب على الزناد الأجـذم

وقد عاب النقاد على ابن الرومى ــ وحظه من الاختراع الحظ الأوفر ــ على حد تعبير حازم تعرضه لهذا المعنى بقوله يصف روضة :

وغرد ربعى الذبـاب خلالهـا
كما حثحث النشوان صـنجا مشرعا

فكانت لهـا زنـج الذبـاب هناكم
على شدوات الطير ضربا .. موقعا

ولكن حازما يرى أن ابن الرومى « قد نحا بالمعنى نحوا آخر حين جعل تغريد الذباب ضربا موقعا على شدوات الطير وهذا تخييل محرك الى ما قصد ابن الرومى تحريك النفوس اليه » .

ومن الشعراء الذين سجل اعجابه بشاعريتهم دون أن يطيل الوقوف عندهم ابن المعتز الذى اشتهر بخمرياته ، وتشبيهاته ، والشريف ومهيار وابن خفاجة ، الذين وصفهم حازم بقوة الشاعرية التى لا يحتاجون معها الى بواعث خارجية تثير فيهم الرغبة الى قرض الشعر ، كما أن لديهم قوة التشبه أو التقمص ، بحيث يستطيع الواحد منهم أن يتغزل دون أن يعشق ، ويعبر عن التجربة دون أن يمارسها • لقد أثيرت فى العصر الحديث هذه القضية حول بعض الأدباء المترفين ، كالكاتب القصصى محمود تيمور الذى قالوا عنه : كيف يصف حال الفقراء ، وهو لم يذق آلام الفقر ! • وحازم يحسم هذا الخلاف ، اذ يرى أن الشاعر الكبير يستطيع أن يعيش التجربة بخياله أكثر مما يعيشها الانســان العادى أو الشاعر الأقل موهبة فى واقعه ــ ولننقل كلام حازم حتى لا نكون مدعين ذلك لوسمه بالمعاصرة • يقول حــازم : « اعلم أن خير الشعر ما صدر عن فكر ولع بالفن ، والغرض الذى القول فيه مرتاح للجهة والمنحى الذى وجه اليه كلامه لاقباله بكليته على ما يقوله •• » •

ثم يذكر ما يؤيد ذلك فيقول : « ولهذا كان أفضل النسيب ما صدر عن سجية نفس شجية وقريحة ، وكذلك الاخوانيات وما جرى هذا المجرى ••• » • ويستدرك على ذلك بما ألمعنا اليه فيقول : « وقد توجد لبعض النفوس قوة تتشبه بها فيما جرت به من نسيب وغير ذلك على غير السجية بما جرى فيه على السجية من ذلك ، فلا تكاد تفرق بينهما النفوس ولا يماز المطبوع فيها من المتطبع » ويرى حازم أن لمهيار وابن خفاجه منزعا خاصا بهما •• ومثلهما الشريف الرضى الذى يمزج بين المؤلم والسار ، وهو ما يطلق عليه حازم المعانى الشاجية ••• كقوله :

أرسى النسيم بواديكم ، ولا برحت
حوامل المزن فى اجداثكم تضع

ولا يزال جنين النبت ترضعه
على قبوركم العراصة الهمع

اذ ذكر الشريف الرضى ما يبسط النفس ويبعث فيها الأمل وذلك بتجدد الحياة من الحمل والنشىء والرضاع والولادة ، فى موطن من مواطن البلى والهمود ، والغناء ٠٠٠٠ ويثنى على البيت الذى يمزج فيه الشريف الرضى مزجا رائعا بين التعبير عن رقة الحب وضعفه ، وشجاعة الفارس وقوته ٠٠٠٠ بلفظ مختصر يلحقه فى تضاعيف كلامه ليدرأ عنه الظن بأن رقته بسبب ضعفه وخوره ٠٠٠ وهذا البيت هو :

ما لوا على شعب الرحال ، واسندوا
ايدى الطعان الى قلوب تخفق

ابو الطيب المتنبى :

لقد أخرنا ذكر المتنبى ٠٠٠ لأن له عند حازم منزلة خاصة ٠٠٠ فهو يعجب بشعره كثيرا ٠٠٠ وربما يكون ما فى طبع حازم من ميل الى الفخر ، والمباهاة بشعره ، قد سرى اليه من ولوعه بالمتنبى وشعره ٠٠٠ حتى انه ينهى مقصورته بالفخر بشعره ، ويعزو المعجبون بها ما فيها من احسان الى المتنبى ٠٠٠ ربما يشبهونها بشعره فى القوة والجزالة أو لتأثر صاحبها بالمتنبى ٠٠٠ فيقول حازم :

نظمها ابن حازم ، وقد نمى   نسبها لابن حزام مـن نمى
وقد عزا الاحسان فى أمثالهـا   لابن الحسين احمد من قد عزا

والواقع أن حازما قد تأثر في شعره وبخاصة المقصورة بالكثير من معاني المتنبي ، كما سنوضح ذلك فيما بعد ٠٠ وحازم يجعل المتنبي من ذوى المنازع الخاصة ، ومنزعه ـ كما يتبين من خلال تعليقاته المتفرقة على شعره ـ أنه يمزج أو يراوح بين الأسلوب الخطابي الاقناعي والاسلوب التخييلي الشعرى مزجـا يحبذه حازم ويؤثره ٠٠٠ وهو عادة يقدم الأسـلوب التخييلي وينهي الفصـل بالاقناعي ٠٠ « والى هذا كان يذهب أبو الطيب المتنبي ـ رحمـه الله ـ في كثير من كلامه ٠٠ » والمعيب عند حازم أن يسرف الشاعر في حشد المعاني الاقنـاعية ، ممـا كان يتجنبه المتنبي الذى كان « يحسن وضع البيت الاقناعي من الأبيات المخيلة لأنه كان يصدر الفصول بالأبيات المخيلة ثم يختمها ببيت اقناعي يعضد به ما قدم من التخييل ويجم النفس لاسـتقبال الأبيـات المخيلة في الفصل التالى ٠٠ فكان لكلامه أحسن موقع في النفوس بذلك » ٠ ويحث الشعراء على أن يعتمدوا مذهب أبي الطيب في ذلك فانه حسن ٠ ومما يتميز به أسلوب أو منزع المتنبي ٠ اكثاره من ذكر الأحوال الشاجية ، وهي اعقـاب السعادة بالألم ، كالفراق بعد اللقـاء ٠ والتشكي من جور الزمان وخون الاخوان ، وغير ذلك مما يوضـع فيه الجور موضع العدل ، والاساءة موضع الاحسان « فكان ذلك مما حسن موقع « شعره » من النفوس اذ أكثر الناس لا يخلو عن بعض هذه الأحوال ٠٠٠٠ » ومن خصائص منزعه الشعرى أنه « يشعشع المعاني الموحشة » بمعاني مؤنسة » ٠ ويشاركه في ذلك الشريف الرضى ٠٠٠ ومن هذا قول أبي الطيب :

ما زال طرفـــك يجرى فى دمائهــم
حتى مشى بك مشى الشــارب الثمل

كما اختص أبو الطيب المتنبى بالتوطئة والتمهيد بما يذكره فى صدور فصول قصائده للحكم التى يصوغها فى نهايات هــذه الفصول ، وهو « منزع اختص به أو اختص بالاكثار منه والاعتناء به » . ومن الصفات التى تميز بها - فى رأى حازم أيضا « اضافته الشىء الى ضده » كقوله :

صلة الهجر ، وهجر الوصال

واعمال الشىء فى مثله كقوله :

اسفى على اسفى الذى ولهتنى

وقوله « ترى غير صاف أن ترى الجو صافيا .. » وتنزيل الشىء منزلة ضده كقوله :

وشكيتى فقد السقام لأنــــه قد كان لما كان لى اعضـــــاء

« فكان أبو الطيب المتنبى يستعمل هــذه الأنحاء الثلاثة فى المعانى ، ويقصدها فى مواضع كثيرة من شعره » ، « وهو يحسن المطابقة ، فتأتى فى أحسن ترتيب وأبدع تركيب » . ومن ميزات المتنبى التى يقدرها حازم ، اهتمامه بما يطلق عليه حازم «التسويم» وهو أن يفتتح كل فصل ببيت يحشد له كل قوته وقدرته ليؤثر فى النفس .. ويورد قصيدة المتنبى التى مطلعها :

الغالب فيك الشوق ، والشوق اغلب
واعجب من ذا الهجر والوصل اعجب

ليبين ما فيها من تسويمات - ففى الفصل الأول بدأ بالبيت

المذكور الذى ضمنه « تعجيبا من الهجر الذى لا يعقبه وصل ، ثم أكد التعجيب فى البيت الثانى الذى هو تتمة الفصل الأول ، ثم ذكر من لجاج الأيام فى بعد الأحباء ، وقرب الأعداء ، وكان ذلك مناسبا لما ذكر فى الهجر » وهكذا يحلل فصول القصيدة الستة تحليلا رقيقا عميقا نابعا عن ذوق شاعر مرهف قادر على التمييز بين الجيد والردىء .. وينهى تحليله ذلك بقوله : « فكان الكلام بذلك مرتبا أحسن ترتيب، ومفصلا أحسن تفصيل، وموضوعا بعضه من بعض أحكم وضع ... » وكما أولع المتنبى بالتسويم ، أولع بما أطلق عليه حازم (التحجيل) وهو أن ينهى الفصل بحكمة خالدة أو غير ذلك من المعانى الكلية التى تعتبر خلاصة لما تقدمها من معان ، أو نتيجة لها ، كانهاء زهير بن أبى سلمى الفصل الأخير من قصيدته اللامية بقوله :

فما يك من خير اتوه ، فانما ... توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطى الا وشيجه ... وتغرس الا فى منابتها النخل

« فجاء أبو الطيب المتنبى فى المولدين ، فولع بهذا الفن من الصنعة وأخذ خاطره به حتى برز فى ذلك وجلى وصار كلامه فى ذلك منتميا الى الطراز الأعلى ... » واذا كان شعره من الطراز الأعلى عند حازم « فهو من حذاق المطبوعين » وامام فى الشعر .. ولكنه ليس منزها عن الخطأ بل يخطىء فى شعره ويصيب رغم أستاذيته .. ويقع فى هفوات يسجل حازم عليه بعضها ، كالمبالغة القبيحة فى قوله فى وصف الأسد :

سبق التقاءك بوثبة هاجم ... لو لم تصادفه لجازك ميلا

وقوله فى أم سيف الدولة :

رواق العز فوقك مسبطر ... وملك على ابنك فى كمال

« فلفظة مسبطر بعد قوله للمرآة فوقك قبيحة ، ولا سيما بعد أن استعملها ابن حجاج حيث استعملها وعرف ذلك من قوله ٠٠ » ٠

ويرى الحبيب بن خوجه : أن حازما قد تأثر بالمتنبى فى نظمه « جاريا على طريقته فى الاطار أو الشكل والصورة أو الغرض جميعا » ٠ وهو ينحو أيضا منحى ابن المعتز فى استعاراته وتشابيهه ٠٠ ولم تقتصر قراءات حازم على هؤلاء الشعراء ، بل تجاوزتهم الى العديد من الشعراء ، قدامى أو محدثين ٠٠٠ بل وأولع بمعارضات عدد من القصائد التى اشتهرت فى عهده بالجودة ، فعارض رائية ابن عمار ، وصادية ابن الصابونى ، والقصيدة الصوفية للطرسونى ، ومقصورة ابن دريد ٠٠٠ وتأثر بمعانى الشعراء وبعض أساليبهم ، وقد ظهر ذلك كله فى شعره ٠٠٠ مما سنتعرض له بالابانة فى حديثنا عن مقصورته وعن شعره بعامة ٠ ولقد كان حازم موسوعيا الى حد كبير رغم اتهامهم له بأن الدراية أغلب عليه من الرواية ٠٠٠ ففى شعره نجد آثارا محفوظة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والحكم والأمثال ، وقصص العرب ٠٠٠ وأساطيرهم ٠٠٠ وكثيرا ما نجده وبخاصة فى مقصورته يضمن أو يقتبس أبياتا لبعض الشعراء أو أجزاء من أبيات ٠٠٠ أو يلمح الى أحداث تاريخية ٠٠ مما يدل على أن حصيلته من التراث العربى - وفيرة تمده بما يحتاج ٠٠ مما يجعل لشعره وزنا خاصا ٠٠ يجعلنا نثير مناقشة هذا السؤال ٠٠ لمن يكتب أو ينظم الشاعر ٠٠٠ فالكثير من شعره يحمل من التلميحات والاشارات ٠٠ ما لا يستطيع الولوج الى أسراره الا القارىء المثقف ٠٠٠ وأى أنواع القصص أو الأحداث أو الأساطير يمكن للشاعر أن يضمنه فى الكلام ٠٠٠ وما رأى حازم فى ذلك ٠٠٠ ؟؟ ٠٠٠ نرجو أن نناقش هذه القضية حين نتحدث عن أسلوبه الشعرى ٠٠٠

الرسم والنحت والموسيقى :

هل كان حازم مثقفا عصريا يلم بكل فروع الفن أو غالبيتها ٠٠ نعتقد أن حازما كان يلم بطرف من هذه الفنون ، فمن المعروف أن الفلاسفة المسلمين الذين قرأ لهم حازم ، كالفارابى وابن سينا ٠٠ قد تحدثوا فى كتبهم الفلسفية عن الموسيقى ٠٠ بل ان فن الموسيقى كان آنذاك فرعا من فروع الفلسفة ٠٠ وقصة الفارابى التى تروى من أنه ركب بعض الأعواد وعزف بها فضحك الحاضرون ٠٠ ثم غير تركيبها فبكوا ٠٠ ثم أعاد تركيبها مرة أخرى فناموا ٠٠٠ فتركهم وانصرف ٠٠٠ قصة مشهورة ٠ وفى منهاج حازم ما يشير من قرب الى المامه بهذه الفنون ، فهو يذكر أن وسائل المحاكاة قد تكون « بأن يحاكى نفس الشيء بتصوير نحتى أو خطى أو ما يجرى مجرى ذلك ٠٠٠ أو يحاكى لها صوته أو فعله أو هياته بما يشبه ذلك من صوت أو فعل أو هياة ٠٠٠ » ٠ فهو قد ذكر المحاكاة عن طريق النحت أو الخط ، والمقصود به الرسم فيما أعتقد ، والصوت وهو الغناء ٠٠٠ أو الموسيقى ٠ وهو ينصح الشاعر فى وصفه للشيء أن يتدرج فى وصفه فينتقل من الشيء الى ما يليه فى المزية « ويكون بمنزلة المصور الذى يصــور أولا ما جل من رسوم تخطيط الشيء ثم ينتقل الى الأدق ٠٠ فالأدق ٠٠ » ٠ ويوضح هذا المعنى أكثر فى موضع آخر من كتابه فيقول : ويجب فى محاكاة أجزاء الشيء أن ترتب فى الكلام على حسب ما وجدت عليه فى الشيء ، لأن المحاكاة فى المسموعات تجرى من السمع مجرى المحاكاة بالمتلونات من البصر ، وقد اعتادت النفوس أن تصور لها تماثيل الأشباح المحسوســه ونحوها على ما عليه ترتيبها فلا يوضع النحر فى صور الحيوان الا تاليا للعنق وكذلك سائر الأعضاء ٠٠ » ٠ وحسن انتقاء الألفاظ واجادة تأليفها بمنزلة عتاقة الأصباغ وحسن تأليف بعضها الى

بعض ، وتناسب أوضاعها من الصور التى يمثلها الصانع ٠٠٠
ورداءة الألفاظ كرداءة الأصباغ كلاهما يسىء الى العمل الفنى
والفرق بين الشعر والرسم أن الأول يخاطب حاسة السمع والثانى
يخاطب حاسة البصر ٠ ويبدو أن حازما يفضل المحاكاة الشعرية على
المحاكاة فى الرسم والنحت ٠

ويلمع حازم فى حديثه عن أوزان الشعر الى استهدائه بفن
الموسيقى ٠٠٠ وبخاصة فيما خالف فيه العروضيين ٠٠ يقول :
« وقد وضح فى صناعة الموسيقى أن فعولات مضاد لفاعلات كما أن
فعولن مضاد لفاعل لأن الوضع فيهما متخالف ٠٠٠ » ٠

ويحذرنا من الانخداع بما وضعه أو غيره العروضيون من
الشواهد « التى تدفعها المقاييس البلاغية والقوانين الموسيقية ٠٠ » ٠
وهو يؤكد أن ما قاله فى العروض مما لم يذكره العروضيون ٠٠٠
صحيح لا يتطرق اليه الشك لأنه قائم « على علم اللسان الكلى المنشأ
على أصول منطقية وآراء فلسفية موسيقية ٠٠٠ » ويكرر ذلك
فيقول : لهذا الذى قلته فى مجارى الأوزان واتحاد تركيباتها وما
يسوغ فيها هو الرأى الصحيح الذى تعضده الآراء البلاغية والقوانين
الموسيقية ويشهد به الذوق الصحيح والسماع الشائع عن فصحاء
العرب ٠٠٠ » ٠

والخلاصة : أن حازما قد تتلمذ على عدد كبير من العلماء ،
والشعراء ٠٠٠ وقرأ كل مؤلفاتهم وتأثر بكل ذلك فنبغ فى عدد
من العلوم وفى مقدمتها البلاغة والنقد ، بل نعتبره فى نظراته
النقدية التى ألمعنا الى بعضها فيما سبق غير مسبوق ، كالنظرة
الشاملة لشعر المتنبى أو الشريف الرضى ، كما نبغ فى النحو ونظم
مطولته الميمية ، وكتابه الذى يرد به على ابن عصفور ٠ وتفوق فى
الشعر فأصبح من أبرز الشعراء فى الدولة الحفصية ، وكفاه

فخرا عمله الخطير ، وهو مقصورته التى تقع فى ألف بيت ، وستة أبيات ·· وشعره الذى لم يصلنا منه الا القليل ، كما أن حازما قد درس كل علوم عصره من فقه وحديث وأدب ، وفلسفة وبلاغة ، وموسيقى ورسم وغير ذلك ··· مما أخصب ثقافته ·

الباب الثانى

الفصـــل الأول

شبـعره

لقد نبغ حـازم فى قرض الشعر كمـا نبغ فى علمى البلاغة والنحو ، ولكن شهرته فى البلاغة والشعر قد تغلبت على شهرته فى النحو .. حتى قيل عنه : « انه خاتمة شعراء الأندلس الفحـول مع تقدمه فى معرفة لسان العرب ، وأخبارها .. » ومن المؤكد أن سبب حظوته لدى الخلفاء والأمراء هو ما اشتهر به من قدرة على نظم الشعر ، واجاده فى فنونه .. فقد تقدمه شعره حتى بلـغ أسماعهم مما جعلهم يرحبون بقدومه سـواء فى مراكش أو بجاية أو تونس .. يقول عنه رفيقه فى الهجرة ابن سعيد : « أبو الحسن حازم بن حازم شاعر مجيد .. وشعره يطوى الأقطار .. وذكره منشـور .. وهو فى نظمـه طـويل النفس .. منير القبس .. مقتدر على حوك الكلام .. مديد الباع فى ميدان النظام .. » ثم يقول عن رحلته الى كل من مراكش وتونس ، واشتهار قصـائده بهما « رحل الى المغرب فاشتهرت له به قصائد لم يخل نظمهـا من فرائد .. ثم قصد هذه الحضرة العلية فى الدولة الأميرية فكانت له بها أمداح كطلوع أنوار الصباح .. » وقد كان حازم يـدرك ذلك فى نفسه ، ويعتز بشاعريته ويباهى بما فى قصـائده من

بدائع وروائع ·· مما جعل بعض معاصريه ينكر عليه ذلك ، ويوازن بين افتخاره بشعره ·· وتواضع معاصره ابن حبيش ·· كما سبقت الاشارة الى ذلك ، ونجد حازما فى أكثر من قصيدة يفتخر بشعره ، يقول فى مقدمة مقصورته : « أما بعد فانى أريد أن أنص فى هذا المجموع ، وأجلو فى هذا الموضوع عقيلة من بنات الأفكار ، تزهى على العقائل الأبكار ، قد تحلت بعقود ، من كل لفظ بالقلوب معقود ·· » ويخاطب الأمير أبا زكريا يحيى بقوله :

دونكم عز اللآلى من فرادى ، وقرائن
قد تحلت بصفات حسنها للقلب فاتن

وقصائده ـ كما يقول ـ اذا قورنت بشعر مسلم ، على ما اشتهر به من ابداع ، أحالت عذارى شعر مسلم عونا ·· وأزرت بمدائح حسان فى « الحارث الجفنى ، وابن الأيهم » ·· وغادرت الشعراء ينشدون « كم غادر الشعراء من متردم » لأنها جمعت ألوانا من البديع ·· كالترصيع ، والتصريع ، والتقسيم والايغال ·

وقد كانت لدى حازم القدرة على ارتجال الشعر كتذييله لبيتى ابن الجوزى ·· الذى شارك فيه عدد من شعراء الحضرة بمراكش ، وقد كان على بن حازم أخو الشاعر واحدا ممن ذيلوا هذين البيتين · ومن قصائده المرتجلة قصيدته التى أولها :

ملأت من ابدع الحكم دلو آمالى الى الوذم

وهى تقع فى سبعة أبيات ·· يقول ابن سعيد : وله ارتجالا ، ويسوق تلك القصيدة مع تغيير فى البيت الأول ··· ومن ارتجالياته هذه ندرك مدى قدرته على النظم ، فالأبيات الميمية المشار اليها قوية متماسكة تخلو من الضعف الذى يعترى كل شعر

ارتجالى .. كما أنها تنضح بالصدق العاطفى . وان كانت تعتمد على التعبيرات الواقعية .. ولنورد منها هذه الأبيات :

بنت فكر قمت ـ اذ قدمت لتلقيها على قدم
فارتوى منها على ظمأ خاطرى فى مورد شبم
اصبحت اولى بما نسبت لى من الاحسان والكرم
دونكم ما قد تكلفه خاطر يشكو من السأم
من بوادى الشعر هام هوى ففؤادى فيه لم يهم
ان رسم الشعر فى خلدى طلل اقوى على القدم

لقد حافظ حازم على خصائصه الأسلوبية ، وفى مقدمتها العناية بفن البديع .. فنجده قد جانس فى « قدمت » .. وعلى قدم » وطابق فى » ارتوى وعلى ظمأ » .. كما نجده يعارض بعض الشعراء بل يتفوق على بعضهم .. كما سنرى ذلك فيما بعد ...

وشاعرنا حازم يؤثر القصائد على المقطعات ... فالقصائد عنده هى التى يستطيع الشاعر فيها النفاذ من معانى جهة الى معانى جهة أو جهات بعيدة منها من غير ظهور تشتت فى كلامه .. « وهى نوعان . بسيطة ومركبة .. والبسيطة مثل القصائد التى تكون مدحا صرفا أو رثاء صرفا ، والمركبة هى التى يشتمل الكلام فيها على غرضين مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح .. وهذا أشد موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق لما ذكرناه من ولع النفوس بالافتنان فى أنحاء الكلام ، وأنواع القصائد .. »

فاذا كان الشاعر لا يقوى على أكثر من أن يجمع خاطره فى وصف شىء بعينه .. فهو المقطع ، وعمله هذا يسمى مقطوعة ، ولا يوصف صاحب المقطوعات بأنه « بعيد المرامى فى الشعر .. »

لأنه يعجز عن الامتداد بقصيدته من الغرض أو المعنى العام الذى تدور حوله الى معان آخر لها علاقة بالمعنى الأول ، أو أوصاف خارجة عن الغرض الذى يقوم بوصفه . وقصائد حازم فى الغالب من القبيل الأول .. بعضها من النوع المركب ، وبعضها من النوع البسيط .. ويقل فيها ما جاء على نظام المقطوعة .

ويخلو شعر حازم الذى وصل الينا من الموشحات .. لأن حازما لا يؤمن الا بالطراز العربى الموروث ، وان كان يؤيد المحدثين فى بعض تجديداتهم كالافتتان بألوان البديع ، وعمق المعانى .. وروعة التصوير .. ولكنه فيما يبدو لا يقر الخروج على النمط العتيق للقصيدة العربية ... وسنرى فيما بعد أنه يجدد محتفظا بهذا الطراز التراثى .

أغراضه الشعرية

يغلب على القصائد التى وصلت الينـــا من شعر حازم الذى ضاع ـ لا شـــك ـ منه الكثير ، فشـــعره الذى نظمه فى الرشـــيد الموحدى بمراكش وغيره ، وشعره الذى نظمه فى الأندلس قبـــل قدومه الى افريقيا ، كل ذلك قد ضاع ولم يصلنـــا منه الا تلك الأبيات التى ذيل بها بيتى ابن الجوزى فى أحد مجالس الخليفـــة الرشيد الموحدى بمراكش . يغلب على هذا الشعر أنه فى المديح ، والقليل فى الغزل ، أو فى التوسل والزهد ، والوصف وليس له فى الرثاء سوى ما تضمنته مقصورته أو بعض قصائد المديح من تفجع وتحسر على ضياع الأندلس .. مما نعتبره من بكـاء الديار ، وندب المدن والممالك الزائلة .. ولا نجد لحازم شعرا فى الهجاء .. لأن طبيعته الجادة ـ طبيعة العالم الذى لا يتدنى الى مثل هذا ـ قد جنبته النظم فى هذا الغرض ... كما أنه لا يفتخر الا بشعره .. فهو حريص على الا يكتسب عداوة أحد ، وان كان شأن كل شاعر وعالم لم يخل من بعض المنافسين .. الذين يعرض بهم أحيانا فى بعض صفحات منهاجه ... ، ونجد له فى خلال مقصورته وقصائده

بعض الحنين الكظيم الى ديـــاره ، ومراتع أنســـه ، وهـواه فى الأندلس ·

هذه هى أهم أغراض شعر حازم نجملها فيما يأتى :

المديـــح · الغزل · الوصـــف · الزهـد والتوســـل · الحنين · بكاء الديار والدعوة الى تخليصها · الفخـــر ·

المديـــح

لحازم فصل مطول عن المعانى الأصيلة فى المدح والذم ·· فهو يرى أن أكثر ما تعتمده العرب فى المدح هو ما تتجشم فيه النفس الضرر لنفع غيرها ، والأمور التى تتجشم فيهـا النفوس المشـــقة لنفع غيرها نوعان : **حقوق ثابتة** قبـــل المتجشم للمشقة ، ويكون ذلك منه نصفة وعدلا : **أو تبرع وتفضل منه** ، وأحسن المدح ما كان على هذه الصفة الأخيرة · وهو يوافق قدامة على أن أهم الفضـــائل التى يجب المدح بها ترجع الى أربع خصائل : العقل ، والعفـــة ، والعدل ، والشجاعة ·· فالقاصد للمدح بها مصيبا ؛ وبغيرها مخطئا · ولكل صفة من هذه الصفات أقســـام وأنواع ، فالثقافة والحياء والبيان والصدع بالحجة والعلم والحلم ، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، من أقسام العقل ·· والقناعة وطهارة الازار من أقسام العفة · وقتل الأقران ، والمهابة ، والسرى فى المهامه والقفاز والحماية والأخذ بالثأر ، وما شاكل ذلك من أقسام الشـــجاعة · والسماحة والتغابن والانظلام ، والتبرع بالنائل وقرى الأضياف من أقســـام العدل · وقد يتركب بعضها مع بعض فتحدث منها ستة أقسام ، فيحدث من تركيب العقل مع الشجاعة الصبر ، وعن تركيب العقل مع السخاء البر وانجاز الوعد ·· ويتفق مع قدامة أيضا فى أن

كل صفة من الصفات المحمودة انمــا هى أمر وسط بين طرفين مذمومين ٠

واذا كان قدامة يرفض المدح بالجمال الخلقى الذى ليس للانسان فيه اختيار ٠٠ بينمــا يجيز كل من الآمدى وابن ســنان الخفاجى ذلك ٠٠ فان حازما اتخذ موقفا أكثر دقة حيال هذه القضية ٠٠ فمن رأى حازم أن المدح بالصفات الخلقية ٠٠ ان كان ينشأ عنــه ويرتبط به بعض الفضائل ٠٠ جاز المدح به ، والا فلا حاجة اليه ٠ ويقسم حازم الممدوحين الى طبقات : فهناك الخلفاء ٠٠ الذين يمتدحون بصفات رفيعة كنصر الدين ، واقاضة العــدل ، وحسن الســيرة والسياسة ، والعلم والحلم والتقى ، والورع ، والهيبة وما أشبه ٠٠ ويتخطى فى وصفهم حدود الاقتصاد الى حدود الافراط ٠ والأمراء الذين يمدحون بالــكرم والشــجاعة ، وسداد الرأى ، والتيقظ والحزم ، والدهاء ، وما ناسب ذلك ٠٠ وتكون رتبتهم بعد رتبــة الخلفاء ٠٠ والوزراء ومن حل محلهم من الكتاب ، يمدحون بالحلم والعلم والكرم وحسن التدبير وتثمير الأموال ونحو ذلك ٠٠ وتكون مراتبهم بحســب مراتب ملوكهم ٠ أمــا القضــاة فيمدحون بالعلم والتقى والدين والنزاهة والعدل بين الخصــوم وانصاف المظلوم ، وللقضاة مراتب : فقاضى الخليفة أعلى مرتبة من قضاة الملوك ؛ وهم أسمى من قضاة الأصقاع ؛ وينبغى أن يكون تعظيمهم أيضا على قدر عظمهم فى علومهم وأديانهم وعقولهم ٠

بعد هذه المقدمة نحاول أن نرى حازما فى مدائحه ٠٠ وهل سار على ذلك النهج الذى دعا اليه ؟ لا شك أن هذه النظرات التى دعا الى اتباعها انما هى نتاج مطالعته لمدائح الشعراء ٠٠ ولممارسته الفعلية لذلك ٠٠ ولكن حازما حين يمدح لا يضع هذه الملحوظات امامه ٠٠ ويسير على نهجها ، والا كان مجرد ناظم للشعر ٠٠ يستاهم

عقله أكثر من الاهتداء بخطرات نفسه ، ونبضات وجدانه ، والشعر احساس وشعور قبل أن يكون مجرد عقل وتفكير ... ان حازما يعتمد في مدائحه .. على ثلاثة مصادر أصيلة يستقى منها معانيه وأوصافه :

المصدر الأول : صفات الممدوح التى اشتهر بها ، فلقد اشتهر الخليفة المستنصر بسعد الطالع ، وبخاصة بعد ان أهلك الوباء الجيوش الفرنسية سنة ٦٦٨ هـ بعد محاصرتهم لمدينة تونس قرابة أربعة أشهر وعشرة أيام ، مما اضطرهم الى الجلاء تاركين رفات ملكهم لويس التاسع يلعنها التراب التونسى .. فنجد حازما يذكر هذه الصفة فى أغلب قصائده . وقد عرف أن كلا من أبى زكريا يحيى وابنه أبى عبد الله محمد المستنصر على جانب طيب من العلم ، فنجده يستغل هذه الصفة ويكثر من ذكرها فى قصائده ، يقول فى أبى زكريا ذاكرا تلك الصفة :

يفيد افانين المعارف شافعا	بها ما حبا من عارفات وآلاء
افاض ينابيع العلوم معينة	واصفى فما فيها مجال لأقذاء

كما يصفهما بالشجاعة والعدل ، ويجد فى الحروب التى خاضاها معينا طيبا للمدح فيكثر من ذكر تلك الحروب ، والانتصارات ، كما يستمد بعض معانيه وأوصافه من الأصول التى ينتمى اليها الممدوح .. فنجده يذكر فى كل قصيدة يمدح بها أحد هؤلاء الخلفاء الذين مدحهم ــ وأعنى بهم أبا زكريا يحيى الذى مدحه بقرابة احدى عشرة قصيدة ، والمستنصر الذى مدحه بما يقرب من هذا العدد ، والواثق الذى لم يمدحه بسوى قصيدة واحدة ــ نجده يذكر انتماءهم الى عمر بن الخطاب .. والى قبيلة بنى عدى ، وكيف أن الرسول قد قرب اليه عمر ، كما قرب المهدى

جد الحفصيين الشيخ أبا حفص ، يقول حازم فى ذلك مادحا الخليفة المستنصر .

أبقى له العمران مجدا لم يزل ... بالبيض والسمر الطوال مشيدا
عمر الذى ابتدأ الفتوح بيته ... وسميه عمر المتمم ما ابتدأ
لا خلق من بعد النبى وصحبه ... أعلى يدا منه ، ولا اسنى يدا
ان قيل من لشفاعة ومعيشة ... أعددت قال : محمدا ومحمدا

ويفعل حازم مثل ذلك حين يمدح أبا عبد الله بن أبى الحسين ابن سعيد ، وزير الأمير أبى زكرياء يحيى وحاجبه .. والذى يقول عنه ابن عمه على بن موسى بن سعيد : « أبو عبد الله محمد بن الحسين ابن سعيد ، وهو الآن قد اشتمل عليه ملك افريقية اشتمال المقلة على انسانها ، وقدمه فى مهماته تقديم الصعدة لسنانها ، واقام لنفسه مدينة حذاء حضرة تونس ، واعتزل فيها بعسكر الأندلس الذين صيرهم الملك المنصور الى نظره .. » وقد كان شاعرا ناثرا ، أورد له على بن سعيد شعرا جيدا يمدح به أبا زكرياء يحيى أمير تونس .. ومن شعره قصيدة رائعة فى وصف نهر يحف بشاطئيه الزهر ، نظمها تلبية لطلب الأمير أبى زكرياء حين دعا شعراءه الى ذلك .. يقول فيها :

ونهر يرف الزهر فى جنباته ... ويثنى النسيم قضبه فتناظر
يسيل كما عن الصباح بلالئه ... والا كما شيم الحسام المجوهر
عليه ليحيى قبة ، هل سمعتم ... بقرصة شمس حل فيها غضنفر
فان قلت هذى قبة لعفاتها ... فقل ذلك الوادى الذى سال كوثر

وبنو سعيد ينتمون الى عمار بن ياسر .. فيستغل حازم هذه الآصرة .. حين يمدح أبا عبد الله بن الحسين بن سعيد الذى كان يكن له حازم الحب .. ويعتمد عليه فى جلب الخير اليه ، ودفع

الملمات عنه ٠٠ وقد مدحه حازم بقصيدتين نشعر فيهما بالصدق ، وحرارة الاحساس ٠٠ لأن ابن سعيد المذكور كثيرا ما حقق لـــه بعض آماله ٠٠ بل كثيرا ما أثنى على حازم فى مجلس الخليفة ٠٠ يذكر حازم كل ذلك فى قصيدتيه ، فيقول فى أولاهما مشيرا الى أنه من نسل عمار بن ياسر الذى وعد الرسول جده بالجنة :

سبط الرضا عمار الهادى الذى	**ما رسم منهج رشده بالمنهـــج**
صحب الرسول فحاز كل فضيلة	**لمهـــاجريه وأوسه والخـــزرج**
شهد النبى له بخير شـــهادة	**كانت نتيجة كل فضـــل منتج**
قالت ملائكة السماء لروحـــه	**قد طبت فاصعد للسعادة واعرج**
لقى الملائكة الكرام بغـــرة	**ابهى من القمر المنير ، وابهج**

ويذكره بمثل ذلك فى قصيدته الرائية التى تشف عما يكنه حازم له من حب واجلال فيقول :

لجده شهد الهادى بكل هـدى	**فى جلة من خيار الصحب أبرار**
كفى دليلا على الهدى الذى لكم	**شهادة نقلت من خير مختـــار**
مآثر ليس يبلى الدهر جدتهـا	**ما دام منكم لها تجديد آثـــار**

ويذكر خلاله التى اشتهر بها ؛ كالحلم ، والعلم ، والكرم ، وسداد الآراء ، والبلاغـــة :

لا يستطيع بليغ أن يجاريـه	**من البلاغة فى شأو ومضمـــار**
يملى عليه الحجا ما شاء من كلم	**قليلـــة ومعان ذات اكثـــار**
ان ذيل النظم بالنثر استقلت به	**منثور سحبان فى منظور بشار**

والمصدر الثانى : الذى يستوحى منه ما يثنى به على ممدوحه ٠٠ هو المناسبة التى تقال فيها القصيدة ٠٠٠ فحين تكون المناسبة انتصارا على العدو ، أو اطفاء لفتنة ٠٠ يذكر شجاعة ممدوحه ،

وقوة بأسه وقضاءه على الفتن بجيوشه الكثيفة ، ثم يأخذ فى وصف قوة فرسانه ، وخيوله ، وفرار الأعداء ؛ واستسلامهم ٠٠ ، نجد ذلك فى أغلب قصائده ، لأن حياة ممدوحيه من الخلفاء والأمراء لم تخل يوما من حرب ضد ثائر أو متمرد ، كما لم تخل من غزوة يضيف فيها فتحا جديدا الى فتوحاته السابقة ٠٠ ، فاذا كانت المناسبة تهنئة بعيد ـ وحازم قد دأب على تهنئة الأمير أبى زكرياء خاصة فى كل بعيد بقصيدة من قصائده ـ نجده يذكر العيد ، ويأخذ فى تشقيق المعانى منه ، ومن أجمل ذلك تهنئته له بحلول عيد الفطر ٠٠ فهو يذكر ارتحال شهر الصوم ، واقبال شهر الفطر حاملا له اليمن والسعادة ، كما ينقل لنا صورة للخليفة وقد بكر للمصلى فتلألأت ساحاته بما يشع به وجهه من بشر وسماحة ، ثم عاد فهل عليه الوافدون يقبلون يمناه ٠٠ ، وهو لا ينسى أن يشيد بالطائعين ، ويندد بالعصاة ٠٠ يقول حازم فى ذلك :

ترحل شهر الصوم عنك مودعا ... وقد ملئت من كل بر حقائبه

وجاءك شهر الفطر،واليمن والمنى ... تزجيه ، والجد السعيد يواكبه

ولما بكرتم المصلى تلألأت ... بانواركم ساحاته وجوانبه

وأبت نور الله يسعى أمامكم ... فيهدى ضياء يملأ العين ثاقبه

رأى الناس بدرا منك قد احدقت به ... كاحداق هالات البدور مواكبه

ولما قضوا حق السلام عليكم ... وقضى من تقبيل يمناك واجبه

ارب عليهم من سماء سماحكم ... غمام ملث ليس يقلع ساكبه

لقد استشعر حازم الجو الدينى ، فاستمد بعض عباراته وصوره من القرآن الكريم كقوله « نور الله يسعى أمامكم ٠٠ » واستعان بالطبيعة التى شاركت الناس ابتهاجهم ، فجعل سماحة الممدوح غماما قد هطل سيله على الوافدين ٠ وفى قصيدته التى يمدح بها أبا عبد الله بن سعيد ، يشير حازم الى تلك الجفوة التى

حدثت بين ابن سـعيد وبين الخليفـة المستنصر ، فصادر دياره وأمواله ، وحدد اقامته ·· ولكن ابن سعيد كتب الى السلطـان رقعة يطلب فيها الاجتماع به ، ولما استدعاه أخبره بأن والده قد بنى دارا تحت الأرض وعباها بالمال والسلاح لتكون عدة للسلطان الذى يئول اليه الأمر من بعده ·· ولا يعلم أحد بذلك غيره ·· ففرح السلطان وبادر الى تلك الدار فرأى ما ملأ عينيه وسر قلبه فعفا عن ابن الحسين بن سعيد ، وأخرجه فى موكب عظيم تجنب الخيل أمامه ، وبدر المال بين يديه ، وأعاده الى أحسن أحواله ، وجعله وزيره وكاتم سره ··· فيقول حازم مومئا الى ذلك :

كم بدأة فى اصطناعى قد بدأت ، وكم
رفعت فى الناس قدرى فوق أقـدار

ولم يؤخـرك عن تكميـل ما بـدأت
عليـاك غـير مشـيئات ، وأقـدار

وقـد تبعت نجـوم السعد ، وانبلجت
أنوارها بين احـداق وابصـار

وساعدتك الليـالى فانتفع ابـدا
وانفع ، وخذ من صروف الدهر بالثـار

وأخيرا نجد حازما يستمد معاني وصور مدائحه من الصفات الموروثة ·· التى طالما ترددت على ألسنة الشعراء ·· وتقل لديه حين يجد المناسبة الحية ، وحين ينفعل بتجربته ·· فاذا اضطرته الظروف اضطرارا الى المدح ·· وضـاقت عليه مناحى القول لجأ الى مخزونه الثقافى ، وهو كثير ، فاستعان به فى اسباغ صـفات المديح على ممدوحه ·· التى قد ترضيه ، ولكنها لا ترضى الدارس والناقد ، لأنه لا يجد فيها الصور المشعة المبتكرة ، ولا العاطفـة

الصادقة .. وانما يجد عبارات وصورا طالما شاهدها فى أنابيق الآخرين . من هذا قصيدته التى يهنىء بها الخليفة المستنصر بالعيد . فيضطر لفتور الاحساس بالتجربة الى نظم قرابة خمسة عشر بيتا حول « العيد » وكلها فاترة واهية .. يقول حازم فى هذه القصيدة :

عيد بجودك جيده قد قلدا — وبيمن جدك يمنه قد أكدا
فاهنأ به وبآلف عيد بعده — واسعد بلقياه كما بك اسعدا
ما العيد فى التحقيق الا عادة — ليديك فى منح الأيادى والجدا
أضحى نداك لكل عيد قادم — عيدا مفيدا للسرور مجددا
فلو ان اذ العيد احتذى حذو الورى — فعلا ، اهل الى سناك وعيدا
عيد تشرف يومه بل شهره — بك فاغتدى بين الشهور ممجدا
ايام تشريق واشراق بها — أطلعت فيه من سنى شمس الهدى
ووقوف حج قد علت لك حجة — فيه وسلطان على كل العدى
وقدوم عيد عاد بالبشرى لكم — وبمثل ما قد عاد من خير بدا
ودعوه عيدا اذ غدا لك منجزا — فى النصر والفتح المعجل موعدا

واضح أن الصور بالرغم من اقتدار حازم على جودة الصياغة ، وحسن السبك .. قد جاءت مستهلكة بالية ، كما أن العبارات ترسف فى أغلال من الجناس الثقيل « عيد بجودك جيده « وبيمن جدك يمنه » كما تخلو من الشاعرية كقوله « فى التحقيق .. » و « احتذى حذو الورى » و « تشرف يومه » وهى عبارة مبتذلة .. ، ويكرر المعانى وان غير فيها قليلا ، « فالعيد سمى عيدا لاعتياده على منح الأيادى » وهو مفيد للسرور ، وسموه عيدا لأنه « ينجز له النصر على الأعداء » . انها معان متقاربة .. لا نلمس فيها جديدا .. كما لا نحس لها بايقاع شعرى جميل ..

ذلك لأن حازما اضطر الى أن يستعين بالمعانى والصور المخزونة فى عقله الواعى ٠٠ فيعيد صياغتها دون احساس ، مما جعلها تاتى فى أزياء باهتة ٠

ولنستعرض رائيته التى استشهدنا ببعض أبياتها فيما سبق ٠٠ لاثبات ذلك لقد بدأ حازم قصيدته هذه بالغزل على عادة شعراء العرب القدامى وهو يصرح فى هذا الجزء الغزلى بأن محبوبته أندلسية تقيم :

بجنة الحسن من شرقى اندلس قد خيمت بين أزهار وأنهار

تحل فى الصيف بموطن تحدق به المياه الزرقاء الصافية ، والأشجار الخضراء الملتفة ٠٠ وفى الشتاء تقيم بالصحراء قريبا من شاطىء البحر :

تسمو اذا ما سما نجم المصيف الى
زرق صواف عليها خضر اشجار
حتى اذا كوكب الأسحار لاح لها
فى شهر تشرين اضحت ذات اصحار
واستبدلت فوق شط البحر منزلة
من منزل فوق نهر العسجد الجارى

وهو يذكر بعض مراتع صباه كنهر العقبان ، وجبال الفضة ، حيث مساقط الأنواء والأمطار ٠

حيث استفاض شعاع الحسن وابتسمت
اضواؤه بين انجاد واغوار

وأجبل القبلة التي يقابلها طود المحاريب من أعلام « منذقار »

معاهد قد لبسن الأنس متصلا فى غراندية منها واسمار

لكن هذه الأماكن : قد أوحشت بعد ايناس وصار بها ٠٠ صرف الحوادث طلابا بأوتار ٠

ان حازما هنا يخاطب آندلسيا مكلوما مثله بالرغم من اقبال الحيـاة عليه ٠٠ وقد سـاوى حـازم بين الهلاك ومفارقة الديار حين قال :

ان ثـواء المرء في أوطـانه عز ، وما الغـربة الا كالتوى
وقلما بان امرؤ عن أرضـه الا وبان الصبر عنـه وناى

وبعد أن يتحدث عن ذكرياته في الأندلس حديث المتـألم الباكى ٠٠ يمدح ابن سعيد بصفاته التى عرفها ، يعرضها عرضا شعريا جميلا ، فهو عربى من مذحج ؛ اكتسى حلل العـلا جديدة ؛ وهو هضبة من هضاب العلم والحلم ، وهو غيث جود وليث بأس، آراؤه كالسهام المريشة الصائبة وهمته عالية ، ينأى بنفسه عن كل عار وإثم ٠٠ اشتهر بأسلوبه الموجز ومعانيه الكثيرة الثرة ٠٠ وهو من نسل عمار بن ياسر الذى شهد له الرسول ــ عليه السلام ــ ، وهو من بيت كثر أخياره وعظماؤه ٠٠ قد حقق الكثير من أمانى الشاعر فأصبح « شرب المنى لى عذبا بعد امرار » ٠ وكثيرا ما ارتاح للشاعر دون حاجة لمديحه ، والشاعر يدعوه الى أن ينجز له ما وعد ، ويتم ما بدأ ، فليس له من نصير سـواه ٠٠ فى زمن عز فيه النصراء والأصـدقاء :

بك انتصـارى ــ أبا عبد الاله ــ على
دهـر عدمت به نصرى ، وانصـارى

ويشير الى غضب الخليفة عليه ثم رضاه عنه ، فأقبلت عليه الحياة بعد ادبار ، وارتوت أرضه بعد قحط وامحال ٠٠ وينصحه بان ينتفع وينفع من هذه الفرصة التى أتيحت له ٠٠ وحازم ينقل من واقع حياته ، ومن تجربته الشخصية مع الممدوح ، تلك الصفات التى يمدحه بها فى شعر صادق نابض بالحياة ، من ذلك قوله :

كم موطن فيه لم أحضر غنيت به
عن محضرى بخلال منك حضار

خفرتني من خطوب الدهر أزمنة
وبعد خفرى لاترضي باخفار

ويظهر من الأبيات الآتية أن حازما قد حزن ، وارتاع فترة غضب المستنصر على ممدوحه اذ يقول في هذه القصيدة :

أومت دهرى بما عنك المنى وعدت
وما ضجرت له اذ رام اضجارى

وظلت آمله من حيث احذره
فالخير والشر ليسا غير ادوار

لا غرو ان تختفي انوار ذى كرم
حينا وتبدأ حينا ذات اسفار

فعادة للحميا أن تصير الى
نور الزجاجة من محلولك القار

فالدر ينقل من اصدافه فيرى
في عقد غانية او تاج جبار

أضمرت في حبكم اضمار معتقد
قد جل عن كل اخلاص واضمار

ومن خلال دراستنا لمدائح حازم وجدناه لا يلتزم بمنهج واحد فى تشكيل قصيدة المدح ، فهو آنا يبدؤها بالغزل كالقصيدة السابقة ، وحينا يبدؤها بالغرض مباشرة كهذه القصيدة التى يمدح بها أبا زكريا يحيى ويهنئه بمبايعة أهل حمص (اشبيلية) لـه .

فلقد بايعته اشبيلية والمرية وغرناطة سنة ٦٤٣هـ حيث وصل وفد الأندلس الى تونس ، وقرئت بيعتهم على الناس . فيقول :

دامت لك البشرى ، ودامت للورى
بكم ودمت على العداة مظفرا

وملكت ما ملك ابن داود الذى
كل الأنام لأمره قد سخرا

وأحيانا يبدأ قصيدته بالحكمة ، شأن المتنبى فى الكثير من قصائده .. من ذلك قصيدته التى يمدح بها ابن سعيد السالف الذكر ، فيبدؤها بقوله :

ما أقرب الآمال من يد مرتج	**يقضى الاله له بفتح المرتج**
واحق من يهدى لمنهج رشده	**ان يستبين له اتضاح المنهج**
فانظر بعين هداك لا عين الهوى	**وبنورعقلكفاستضىء واستسرج**

وبعد أحد عشر بيتا يأخذ فى الغزل الى البيت الثلاثين حيث ينتقل الى المدح فيقول :

كم بت بعدهم بليل لم يلح	**فيه سنا صبح ولم يتبلج**
حتى استضات ببدر آفاق العلا	**اليعربى الياسرى المدحجى**
وتطلعابن ابى الحسين لناظرى	**كتطلع الصبح المنير الابلج**

وحينا يبدأ قصيدته بالحديث عن البرق ، والسحاب الممطر الذى يسقى دار محبوبته ، ويكسو أرضها بالأزهار ، مازجا بين الغزل ووصف الطبيعة ، يقول فى ذلك :

أترى اللوى نشرت على لواءها	**سحب تشق بها البرق ملاءها**
من كل بكر حرة ما فارقت	**اطراقها وبكاءها وحياءها**
يبدوا حمرار البرقفى صفحاتها	**خجلا اذا رفع النسيم رداءها**
يلد الربا خضرا ، وكانت قبلها	**عفرا اذا سفحت بها انواءها**

وبعد بضعة أبيات يأخذ فى التغزل فيقول :

وبمهجتى من ذلك السرب الذى حل الجوانح وارتمى افنـاءها
ثعلبة الألحاظ لمـا أن رنت أصمت فؤادا لم يطق اصماءها

الى البيت الخامس والثلاثين حيث يأخذ فى مدح الخليفة ٠٠ بهذه القصيدة الطويلة التى عدد أبياتها ثمانية وتسعون بيتـا ٠ والواقع أن حازما طويل النفس ٠٠ كما قال عنـه ابن سعيد فى مدحه ٠٠ ٠٠ لذلك عدا آخرا للشعراء الفحول ٠

ومدائح حازم وبخاصة التى يبدؤها بالغرض مباشرة ، وهى قصائد ليست بالقليلة ، تتوفر لها الوحدة والتسلسل والتماسك ٠٠ فأبياتها متواصلة مترابطة ٠٠ وفى القصائد المركبـة ـ وهى القصائد الأثيرة عنده لاشتمالها على أكثر من غرض ، مما يدل فى رأيه على اتساع أفق الشاعر ، وغناه فى المعانى والأفكار ، ولأنها تدفع عن المتلقى الشعور بالملل الذى ينشأ عن توحد الغرض ـ تجد حازما يمهد للانتقال تمهيدا حصيفا لا يفجؤنا ٠٠ وانما ينتقل بنا فى ألفة ، وذكاء ، فلا نشعر بأنه انتقل من غرض الى غرض أو من فكرة الى أخرى ٠٠٠ مما سنوضحه فى الحديث عن بنائه للقصيدة، وحسن تخلصـــه ، وهو شـــأن الشعراء الرسميين أو المحترفين تضطرهم ظروف العمل فى قصور الأمراء والخلفاء الى تسجيل كل أحداثهم ـ فنجد حازما له فى كل عيد تهنئة شعرية ٠٠ وفى كل معركة أو اطفاء لفتنة قصيدة يسجل فيها هذه الأحداث ، ونجده يهنىء الخليفة حين يبرىء من مرضه ، وحين يزوره ابنه أبو يحيى ٠٠ وحين يوليه عهده ٠ ولكن حازما بالرغـم من اضطراره لكل ذلك نجده شاعرا قويا ٠٠ يمنح من آبار ثقافته الواسعة ٠٠ فاذا خانه الشعور لم تخنـه الصنعة القـادرة التى تبهر وتروق ٠ وكثيرا ما يبهرنا بما يبتكره من تصوير خلال قصائد مديحه فيشد اليه

المتلقى ، ويغريه بمواصلة القراءة أو الاستماع ، من ذلك حديثه عن النجوم فى قصيدته الطائية التى يمدح بها المستنصر والتى أولها :

أمن بارق أورى بجنح الدجى سقطا
تذكرت من حل الأبارق فالسقطا

فيتخيل الثريا كاعبا أزمعت الرحيل ، فاتخذت نجوم البقعة الزهر لها هودجا ، وامتد اليها « رشاء الدلو » كى تقدم لها رشوة لتبقى ، والسها الضعيف الباهت قد نحل واصفر من فرط حبه لها ، وحين رحلت هاجر سهيل منجدا ·· الى آخر هذه الصور المبتكرة والتى سبقه اليها ابن خفاجة ، ولكن حازما أضاف اليها ما جعله يتفوق عليه ·· مما سنبينه فى الحديث عن الموازنة بين بعض قصائد حازم وقصائد غيره من الشعراء ·

ونحب أن نؤكد أن حازما لم يسف فى مدائحه فلم نجده مستجديا أو طالبا ملحا فى الطلب كعادة الشعراء ·· وانما نجده ــ وقلما يفعل ذلك ــ اذا رغب فى العطاء ألمح الى ذلك الماحا ، كقوله مخاطبا الخليفة أبا زكرياء يحيى فى نهاية قصيدته :

كم مدحة ارجت بذكرك مسكة ... صيرت فكرى فهرها ومداكها
واذا عقيلة مدحة زفت الى ... عليائكم ولى الندى املاكها

وهو يختم مدائحه كلها تقريبا بالدعاء للممدوح · ونلاحظ أنه كثيرا ما كان يفتخر بشعره فى حياء ، ودون تبجح ــ وبخاصة فى مدائحة لأبى زكرياء يحيى ·· وقد أهمل هذا الفخر فى قصائده التى مدح بها المستنصر غالبا ·· لما عرف عن المستنصر من تهور فى معاقبة الشعراء وقتلهم كما فعل مع ابن الأبار ، وسواه ·· وان كانت مقصورة حازم التى مدح بها المستنصر لم تخل من هذا الافتخار ·

الغــزل

ان كل ما فى الحياة الأندلسية يغرى بالحب ، ويدعو الشعراء الى الغزل · الطبيعة التى منحت جمالا غـير عادى ، فأغلب مدن الأندلس تقع على أنهار وجداول ·· وتحيط بها الرياض والحدائق ·· وقد اهتم العرب بالزراعة كما اهتموا بانشـاء المصانع ·· وقـد اشتهرت كل مدينة بالتفوق فى صناعة ما ·· فمرسية التى عاش فيها الشـاعر والتقى بالعلمـاء والشعراء ، والتى تقع على النهر العظيم ، وتمتاز بيسر السقيا منه ، حتى قيل : ان مرسية بستان شرق الأندلس ، واشبيلية بستان غربها ·· قد اشتهرت بما يصنع فيها من أصناف الحلل ، والديباج · قال الحضرمى : كمـا يتجهز الفارس من تلمســان ، كذلك تتجهز العروس من مرسية ، كمـا اشتهرت بمتفرجاتها كالرشاقة ، والزنقات ، وجبل أيل ، وهو جبل تحته بساتين وبسيط يسر القلوب والعيون ·

والعرب على العكس من الاسبانيين الذين قضوا على كل ما تركه العرب من حضارة حين استعادوا ديارهم ·· لم يدمروا الحضارات التى ورثوها ·· بل جددوا الكثير منها ، واستفادوا منه ، فابن سعيد يصف الملعب الرومانى الذى بمدينة بلنسية فيقول : « ان فى بلنســية آثارا عظيمة ، وأعظمها الملعب الذى أمام قصرها ، وهو صنوبرى الشكل ، قد ارتقى بأحكم صنعة ، درجة درجة ، الى أن تكون الدرجة العليا لا يجلس فيها الا الملك وحده ، ثم ما انحدر منها ، ويأخذ المكان فى الاتساع بحسب الطبقات ·· » بل أبقوا على التماثيل والدمى التى يحرمها الاسلام ، وربما أضافوا اليها جديدا ·· وقد تفنن الشعراء فى وصف كل ذلك ·· كهذه الأبيات الرقيقة العذبة التى يصف بها أحد شعراء الأندلس صورة بديعة الشكل بحمام الشطارة باشبيلية :

ودمية مرمر تزهى بجيد تناهى فى التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ، ولكن تتيمنا بألحاظ .. مراض

وقد استمر ملوك الأندلس الى آخر عهدهم بها ينشئون القصور ، والمتنزهات ، ويزينونها بالنافورات والتماثيل .

يقول أبو زكرياء يحيى بن هذيل ، المتوفى سنة ٧٥٣ هـ بديهة فى غزالة من النحاس تنفث من فمها الماء فى بركة :

عنت لنا من وحش وجرة ظبية جاءت تورد الماء ملء عنانها
حيت بقرنى رأسها اذ لم تجد يوم اللقاء تحية ببنانها
لله در غزالة أبدت لنا در الحباب تصوغها بلسانها

كما انتشر الرق ، وكثر الرقيق وتنوع ، وذاع الغناء وانتشر . وشاع الشراب وكثرت دور اللهو والمجون .. وتبع ذلك شيوع الانحلال الخلقى ، وأصبح الشاعر أو الأديب بعامة ، لا يستنكف أن يجاهر بمجونه ، أو يصف بعض المواقف التى يستحيى من تناولها فى عصور الاستمساك بالأخلاق . فابن سعيد يصف لنا قوادة .. وصفا يكاد ينطبق على القوادات فى العصر الحديث :

قوادة تفخر بالعار أقود من ليل على سار
ظريفة مقبولة الملتقى خفيفة الوطء على الجار
جاهلة حيث ثوى مسجد عارفة حانة خمار
بسامة مكثرة برهها ذات فكاهات وأخبار
تكاد من لطف أحاديثها تجمع بين الماء والنار

« وتحاكم الى أبى أيوب سليمان بن محمد بن بطال البطليوسى المعروف بالمتلمس ـ غلامان جميلان ، لأحدهما وفرة شقراء ، وللآخر وفرة سوداء ٠٠ أيهما أحسن » ٠ والمتلمس هو صاحب كتاب الأحكام فيما لا يستغنى عنه الحكام أى أن المتلمس عالم دينى فقال فيهما :

وشادنين المابى على ثقة
تنازعا الحسن فى غايات مستبق

كأن لمة ذا من نرجس خلقت
على بهار ، وذا مسك على ورق

وحكما الصب فى التفضيل بينهما
ولم يخافا عليه رشوة الحدق

فقام يدلى اليه الريم حجته
مبينا بلسان منه منطلق

فقال وجهى بدر يستضاء به
ولون شعرى مصبوغ من الغسق

وكحل عينى سحر للنهى وكذا
والسحر احسن ما يعزى الى الحدق

فقال صاحبه : احسنت وصفك
لكن فاستمع لمقال فى متفق

انا على افقى شمس النهار ولم
تغرب ، وشقرة شعرى حمرة الشفق

وفضل ما عيب فى عينى من زرق
ان الأسنة قد تعزى الى الزرق

قضيت للمة الشقراء حيث حكت
نورا كلما حبها يقضى على رمقى
فقام ذو اللمة السوداء يرشقنى
سهام أجفانه من شدة الحنق
وقال : جرت فقلت الجور منك على
قلبى ولى شاهد من دمعى الغلق

فقلت : عفوك اذ اصبحت متهما
فقال دونك هذا الحبل فاختنق

وواضح أن التحرر قد جرف فى تياره حتى العلماء ٠٠ كما أن الذوق الجمالى مال الى التغير ، فالعربى الذى كان يذم ذوى العيون الزرق ٠٠ والشعر الأشقر ، أصبح الآن يؤثرهم بالاعجاب ٠ والأكثر من هذا أن كل هذا التغزل من العالم الدينى فى غلامين ذكرين ٠٠ لا فى فتاتين ٠٠ ومن جراء كل ذلك التحضر فان المرأة قد خرجت الى الشارع ، وكشف الكثير منهن عن وجوههن ، وقد أشتهرت ولادة بذلك ٠ وببيت أبو جعفر بن سعيد مع الشاعرة حفصة الركونية فى بستان « بحوز مؤمل » على ما يبيت به الروض والنسيم من طيب النفحة ، ونضارة النعيم ، فلما حان الانفصال ، قال أبو جعفر :

رعى الله ليلا لم يرع بمذمم
عشية وارانا بحوز مؤمل
وقد خفقت من نحو نجد اريجة
اذا نفحت هبت بريا القرنفل
وغرد قمرى على الدوح وانثنى
قضيب من الريحان من فوق جدول

يرى الروض مسرورا بما قد بدا له

عناق وضم وارتشاف مقبل

والعجيب أن هذا الليل لم يرع بمذمم فى عرف الشاعر فكتبت اليه حفصة تقول :

لعمرك ما سر الرياض بوصلنا — ولكنه أبدى لنا الغل والحسد

ولا صفق النهر ارتياحا لقربنا — ولا غرد القمرى الا لما وجد

فلا تحسن الظن الذى أنت أهله — فما هو فى كل المواطن بالرشد

فما خلت هذا الأفق ابدى نجومه — لأمر سوى كيما تكون لنا رصد

وحفصة الركونية هى التى كتبت الى صديقها أبى جعفر بن سعيد تدعوه اليها فتقول :

أزورك أم تزور فان قلبى — الى ما تشتهى ابدا يميل

فثغرى مورد عذب زلال — وفرع ذؤابتى ظل ظليل

وقد أملت أن تظما وتضحى — اذا وافى اليك بى المقيل

وقد ذكرنا الكثير عن مشاركة المرأة فى النواحى الأدبية والثقافية بعامة ٠٠ ونسوق هذه القصة لندل بها على مدى ما وصلت اليه من علم وثقافة فى الأندلس : حكى أن بعض قضاة لوشة كانت له زوجة فاقت العلماء فى معرفة الأحكام ، وكان قبل أن يتزوجها ذكر له وصفها فتزوجها ، وكان فى مجلس قضائه تنزل به النوازل فيقوم اليها فتشير عليه بما يحكم به ، فكتب اليه بعض أصحابه مداعبا :

بلوشة قاض لـه زوجة — وأحكامها فى الورى ماضية

فياليتـه لم يكن قاضيا — وياليتها كانت القاضية

أطلت فى ذلك لأدحض ما يقوله : غارسيا غومس من أنه « قد كان للوضع الخاص للمرأة فى المجتمع الاســلامى أثر فى قلة فهم الناس للجانب النفسى من حياتها وخصائصها ، فلم يعد المحبون منهم يستشعرون من جمالهـــا الا الحسى الملموس ، أى الصورة البدنية .. » ويقول « ربما كان ذلك من الخصائص المميزة للعقلية العربية ، ورثته فيما ورثته من مشاعر البدو ، وميولهم شأنه فى ذلك شأن الحب العذرى الذى انحدر من البدو الى الأجيال المتوالية عن طريق العرب والمسلمين ... » .

ومن المؤسف أن عددا من الدارســين العرب قد جاروا هذا الباحث وغيره من المستشرقين الذين حـاول بعضهم أن ينفى عن العرب العفة والتسامى فى الحب ، حتى أن دوزى وماسينون يزعمان أن ما يتردد فى شعر ابن حزم من عفة انما قد انتقل اليه من أصله المسيحى .. وقد تكفل آسين بلاثيوس بالرد عليهما فى كتابه « تاريخ الفكر الأندلسى » . ومن العرب الذين يرددون هذا الصوت النشاز الدكتور جودت الركابى ، الذى يقول : وكانت أوصافهم — أى الأندلسيين — مادية تقليدية ، فتحدثوا عن سهام الألحاظ ، وحمر الرضـــاب ، وليل الشعر ، ونرجس العيون .. والمحب ذليل والمعشوقة لا ترحم ، ومن هنا نشأ عندهم ما يسمى بالحب المعذب .. وقلما حدثنا الشــاعر عن أفراح الغرام ، فهو اذا فى ألم دائــم . وقد سبقه الى ترديد ذلك بطرس البستانى الذى يقول : « واعتمد الأندلسيون على الأوصاف المادية فى ذكر أحبتهم ، كما اعتمد عليها المشرقيون .. » ثم يقول : « وأنسوا بعادة التذلل للحبيب ، والتعبد له ومناداته بالسيد والمولى .. » . ولكنه لا ينفى عنهم الغوص فى لجج أرواحهم حيث وصفوا لوعة النفس العاشقة ، واشتياقها لقرب الحبيب ، والاستمتاع بجماله .

والشعر الأندلسى الذى هو امتداد طبيعى للشعر العربى قد سلك تلك الدروب من الغزل بعد أن لونها بألوانه الخاصة ·· فنجد فيه الغزل العفيف كقول أبى المطرف المعروف بابن الدباغ فى غلام رآه يسقى عصفورا ، ويطعمه :

يا حامل الطائر الفـريد بعشـقه
يهنى العصـافير ان فازت بقرباك
تمسى وتصبح مشـغوفا بصـحبته
فى غفلة عن دم تجريه عينـاك
اذا رأتك تغنـت كلهـا طربـا
حتى كان طـيور الجو تهـواك
يا ليتنى الطير فى كفيـك مطعمـه
وشربه حـين يظما من ثنايـاك

ولأبى الفرج الجيانى قصيدة يصف فيها التقاءه بمحبوبته فى ظلمة الليل ·· وقد أغراه حسنها وجمالها بأن يرضى منها نزواته ، ولكنه قد كبح جماح نفسه ·· منقادا لعقله ، وخالقه ·· فبات معها كما قال :

وبت بهـا مبيت السقب يظمـا	**فيمنعه الكعـام من الرضـاع**
كذاك الروض ما فيه لمثلـى	**سوى نظر ، وشم من متـاع**
ولست من السوائم مهمـلات	**فأتخذ الرياض من المراعـى**

لكن يغلب على غزلهم طابع التحرر من التقاليد ، واتباع دواعى اللهو والمجون ·· فى غير اسراف فى الصراحة والتهتك ·· وانما يكتفى الشاعر الأندلسى باللمحة والاشارة ، دون التصريح الذى يخدش الحياء ·· والذى نطـالعه كثيرا فى غـزل أبى نواس ومجونياته · وهم يمزجون الغزل بصور من الطبيعة الجميلة التى

تزخر بها الأندلس .. من ذلك قول الشاعر الأندلسي أبو محمد بن ذى الوزارتين أبي الحسن بن الحاج :

وما آنس ليلتنــا والعنــاق   قــد مزج الكــل منا بكـل
الى أن تقوس ظهر الظـــلام   واشمط عارضــه ، واكتهـل
ومس رقيـق رداء النسـيم   على عاتق الليل بعض البلـل

كما كثر في شعرهم التغزل بالغلمان . لكثرة الرقيق وانتشاره فى الأندلس ، وتنوع مصادر اجتلابه ، ولأن الاسراف فى التحضر ، وكثرة ما يملكه الواحد منهم من اماء وحرائر .. جعلهم يميلون الى فاكهة جديدة لم تصل اليها أيديهم .. أو هى ليست شائعة فى الحب شيوع النساء .. ان هذه الظاهرة نراها فى بغداد أيام العباسيين . كما رأيناها فى الأندلس بعد أن وصــل القمة فى التحضر .. ومن غزل أبى جعفر بن سعيد بن رومى الأندلس فى غلام حائك :

قالوا وقد أكثروا فى حبه عــذلى
لو لم تهم بمــذال القــدر مبتذل
فقلت : لو ان أمرى فى الصبابة لى
لاخترت ذاك ولـكن ليس ذلك لى
علقــته حببى الثغــر ، عاطـره
المى المقبــل ، أحـوى ساحر المقل
اذا تاملته اعطـــاك ملتفتـــــا
ما شئت من لحظات الشادن الغزل
غزيل لم تزل فى الغــزل جائلــة
بنانــه جولان الفكـر فى الغــزل
جــذلان يلعـــب بالمحراك انملــه
على السدى لعب الأيام بالأمـــل

ما ان بنى تعب الأطراف مشتغلا

افديه من تعب الأطراف مشتغل

جذبا بكفيه او فحصا باخمصه

تخبط الظبى فى أشراك محتبل

ان هذا المزج الرائع بين الغزل والطبيعة قد تفرد به فى الغالب شعراء الأندلس ٠٠ فالشاعر يحيطك بجو من الحب الهادى الرقيق ٠٠ الذى يعرضه فى مطارف أنيقة من صور الطبيعة ، فيحيى بن عبد الرحمن بن بقسى الأندلسى ، يبيت مع محبوبه على لجج من الظلام ، وتحت سرادق مزين بالنجوم ٠٠ ولا يتركه الا بعد أن يرى الشيب قد ألم بمفارق الليل ٠٠ يقول فى ذلك :

بأبى غزال غازلته مقلتى

بين العذيب ، وبين شطى بارق

وسألت منه زيارة تشفى الجوى

فاجابنى فيها بوعد صادق

بتنا ، ونحن من الدجى فى لجة

ومن النجوم الزهر تحت سرادق

عاطيته والليل يسحب ذيله

صهباء كالمسك الفتيق لناشق

وضممته ضم الكمى لسيفه

وذؤابتاه حمائل فى عاتقى

حتى اذا مالت به سنة الكرى

زحزحته عنى ، وكان معانقى

أبعدته عن أضــــلع تشــــتاقه
كي لا ينـــام على وســـاد خافـــق

لمـا رأيت الليـــل آخـر عمـــره
قد شاب في لمـم له ، ومفـــارق

ودعت من أهـوى ، وقلت : مشيعا
أعزز على بـان أراك مفـــــارقي

كما ينفرد هذا الغزل غالبـا باجادة اختيار الزاوية التي يلتقط منها الشاعر الصورة الذي يرسمها لتجربة الحب ٠٠ وكثير ما تكون المعالجة جديدة مبتكرة ٠٠ من ذلك هذان البيتان لسهل ابن مالك الغرناطي :

ولما بدا ضـــوء الصـــباح رايتهـا
تنفض رشح الطل عن ناعم صلت

فقلت أخاف الشمس تفضح ســـرنا
فقالت معاذ الله تفضحني اخـــتي

ولكن حازما يرى أن بعض الشعراء الموهوبين من ذوي الملكات القوية يمكنهم أن يتمثلوا الحب ، فيقوم الواحد منهم بدور المحب الولهان دون أن يمر بهذه التجربة ، أو يحياها حياة ذاتية ، أي دون أن يكون عاشقا حقيقيا ، ولا تكاد النفوس أن تفرق بين ما يأتي من شعر ، وما يأتي به غيره من العشاق المتيمين ٠٠ وانما يظهر ادعاء الحب وافتعاله مع من لا يتصف بقوة الملكة ، والقدرة على التمثل ، والتعبير الشعري عن هذا الذي يتمثله ٠ وهو يرى أن الشاعر صاحب الملكة القوية ينتفع في نظمه من الطرق المختلفة لشعراء الغزل المطبوعين « فيأخذ من كل واحد منهم ما اختص به

ويبنى على مجموع ذلك كلامه ، وما أجدر أبا الحسن مهيارا الديلمى بأن تكون هذه صفته » • والشاعر الموهوب صاحب الملكة القوية لا يحتاج الى باعث يدعوه الى قول الشعر ٠٠ وهذه القوة هبة ومنحة من الله ، فقد يمنعها الحريص ، ويمنحها غير الحريص ، فجرير على عفته يجيد فن النسيب ، والفرزدق على عهره لا يستطيع ذلك ٠٠ ولكن الدربة على فرض الشعر ، وحفظ الكثير منه ، مما حسن منحاه وأسلوبه ، ومنزعه ، ومعارضته الموهوبين ٠٠ قد توصل الشاعر الى التشبه بالموهوبين المطبوعين ، أو بمعنى أدق المحبين الذين تعرضوا لتجربة حقيقية ، ولكن الدربة دون الموهبة والقدرة لا تلبث أن تتكشف ويظهر ما فى الشعر الذي صدر عنها من تكلف ٠٠٠ هذا هو رأى حازم فى الاجابة عن السؤال الخالد

هل لا بد للشاعر من أن يجرب بنفسه أو لا يصدر فى شعره الا عن تجربة ذاتية عاناها أم يمكنه أن يكتفى بالتخيل ، والتمثل ، أو التشبه على حد تعبيرة ؟ ان هذا التساؤل لا يزال يثار الى اليوم وتختلف حوله وجهات النظر ٠٠ ولقد أثير منذ سنوات حول الكاتب القصصى محمود تيمور ، فهو يكتب عن الطبقات الكادحة رغم أنه من أبناء الذوات الذين لم يذوقوا مرارة الحرمان ، وكان رده على المتسائلين : أن قاصا كشكسبير مثلا يصور أنماطا من الشخصيات منها : الملك ، والمحتال ، والمتسول ٠٠ ما أظن أنه قد مارس التسول أو الاحتيال أو عاش حياة الملوك •

بعد هذا نتساءل نحن بدورنا من أى أنواع الغزل كان غزل حازم ؟ • لم يذكر لنا « حازم » اسم محبوبة بعينها ٠٠٠٠ ولم يقل لنا أحد ممن كتبوا عنه أنه قد عرف بحب فتاة بعينها ٠٠ ولكننا لا نستطيع أن ننفى عن شاعر عاش فى دولة متحضرة ٠٠ يلتقى فيها العشاق على ضفاف الأنهار ، وتحت ظلال الأشجار

يتهامسون بالنجوى ، ويتبادلون أرق كلمات الحب والغرام - التعرض للحب ، ان كثيرا من أبيات حازم تشى بذلك ، فهو يقول عن حياته اللاهية بالأندلس :

أين الزمان الناضر الطلق الذى ... كم قر فيه ناظرى بما رأى
أملأ سمعى ، ويدى من كل ما ... تهواه نفسى من غناء ، وغنى
فى بقعة كجنة الخلد التى ... يرى بها كل فؤاد ما اشتهى

وفى المغانى الجبليات من مرسية يجتمع الشعراء والمغنون ، وعشاق اللهو والجمال :

كم حشر الناس على صراطه ... فى موقف للأنس مشهود سوى
ونعمت أعين أبناء الهوى ... وعذبت افئدة منهم هوا
يختطف القلب بها ان لم يكن ... خلوا، وقلب الخلو فيها يختطى
اذا اجتنى زهر الجمال وامق ... فيها اجتنى خلوبها زهر الربا
وللربيع حولهم مجامر ... تعطر الجو بهن واكتبى

وهو فى جيميته التى يمدح بها أبا عبد الله بن أبى الحسن ابن سعيد ، ينصح المحب ألا يتهالك فى الحب :

فالحب مثل البحر، يأمن من مشى ... فى شطه ، ويخاف كل ملجج

ويعقب على تلك النصائح بقوله :

ولئن نهجت من النصيحة فى الهوى
لذوى البصيرة فيه مالم ينهج
فأنا الذى افنى التناهى فى الهوى
نفسى ، وما أبقى على قلبى الشجى

وفى نونيته ، وهى القصيدة الفريدة التى أوقفها على الغزل، يقول : ان حبه لا يقل عن هوى ذى الرمة · ويتحدث بلسان أهل الهوى فيقول :

انا بنى الحب لا نصغى الى عذل
ولا نميل الى العذال آذانا

نستطيع بعد ان أوردنا هذه الأبيات التى تشف عن حبه ·· أن نقول : ان حازما لم يسلم من الحب ·· ولكن حبه من النوع العاقل البصير ، لا الحب الوجدانى الخالص المندفع ·· فالعلم الواسع الذى ألم به ·· وفى مقدمته الالمام بالفلسفة ، والنشأة فى بيئة دينية ، فقد كان والده قاضيا لقرطاجنة بلده ، ثم ما تعرض له من هجرة ، وما تعرض له وطنه من غزو وضياع ، وطموح حازم الذى دفعه الى أن يكون أحد شعراء البلاط الرشيدى فى مراكش والحفصى فى تونس ·· كل ذلك قد جر ذيول النسيان على حبه ·· الذى لم تبق منه سوى تلك الذكريات العزيزة عليه ، والمرتبطة بوطنه ، ومراتع لهوه ، وهواه ، وملتقى أهل الفن ، والأدب ، والغناء ، فكلما ذكر الحب ·· ذكر الوطن ، ومباهج الحياة فيه ·· فيعجز الشاعر عن فصل حبه عن حب وطنه ، حتى أصبح حبه رمزا لحب بلاده ، وأصبحت محبوبته تلك البلاد الأندلسية التى عاش فيها ونشأ بين أحضانها ·

وقد تمثل غزله فى ثلاثة أنواع :

النوع الأول غزل تقليدى : يصدر به قصائد المديح ·· وفى هذا النوع يستمد صوره ومعانيه ، وأوصاف محبوبته من التراث العربى فى الغزل ·· فيتحدث عن الرحيل ·· وما تركه فى نفسه من أثر ، ويصف جمال محبوبته بما توصف به كل فتاة

عربية جميلة ، فهى ذات خصر ناحل ، وصدر ناهد ، وعجز ثقيل ٠٠ وهى عربية يحميها الفرسان من أهلها ، فلا يستطيع أن يدنو منها عاشق ٠٠ ولكن بيئته الأندلسية تفرض عليه نفسها ، وتلقى ظلالها الخضراء على شعره ٠٠ فمحبوبته أشبه بروضة أو حديقة جميلة ، وجنتها جدول رقراق ، وألحاظ العشاق قطعان عطشى تحوم حول هذا الماء الصافى ، والحسن يتفتح فى كل عضو منها تفتح الأزهار فى الروضة الغناء ، فالصحراء تتحول بها رياضا فواحة الأريج ، مسكية العبير :

يلود اللحاظ الهيم عن ماء وجنة
تفتح نـور الحسـن منها بارجاء

يروض من احداجهـا كل مهمـة
وتبرد من أنفاسـها كل رمضـاء

وخدها يحمر خجلا فكأنما هو حقل لا ينبت فيه سوى الورد :

وصفحة خد تنبت الورد ناضـرا
فيحرسـه باللحظ ، واللحظ ناهبه

والهوادج التى تحمل محبوبته وصواحبها ٠٠ أكمام الزهر ، وهالات الأقمار :

ليس الحدوج التى حفت بهـن سوى
أكمام زهـر ، وهالات لأقمـار

وهو يستعيد ذكريات حبه فى الأندلس ، فمحبوبته :

بجنـة الحسـن من شرقى اندلس
قد خيمت بين ازهـار ، وانهـار

وهى تلتقل دائما مع تعاقب الفصــــول من موطن جميل بالأندلس الى موطن جميل آخر ، ففى الصيف تخيم على شاطىء بحر أزرق تكتنفه الأزهار ، وتحدق به الأشجار ، وفى شهر تشرين تصحر ، حيث تقيم فى الصحراء على حافة البحر :

تسمو اذا ما سما نجـم المصيف الى
زرق صواف عليها خضر أشـــجار

حتى اذا كوكب الأسحار لاح لهـا
فى شهر تشرين أضحت ذات اصحار

واستبدلت فوق شط البحر منزلة
من منزل فوق نهر العسجد الجارى

حيث التقى الزاخر المخضر مشـبهه
حتى امترت فيهمـا الحاظ نظـــار

بسيط بر غـدا البحـر البسيط له
مدانيـــا كدنو الجـار ·· للجـار

اذا النـدى انقطعت اسلاكه سحرا
فيــه غـــدا زهره منحـــل ازرار

وفى هذه القصيدة بالذات من قصـــائده المدحية التى يقدم لها بمقدمات غزلية ، نحس بصدق عاطفته فى الحب ، وحنينـــه الدائب الى الأندلس ، فمحبوبته كما رأينا من شرقى الأندلس ، حيث ولد الشاعر ونشأ وشب ·· فى بحبوحة من النعيم ، ورغد العيش ·· وهى تصيف وتشتى فى أمـاكن معروفة بالأندلس ·· وابل محبوبته تصعد الى نهر العقيان « حيث تقفو مساقط أنواء وأمطار » :

حيث استفاض شعاع الحسن ، وابتسمت
أضــــواؤه بين انجــاد وأغــ

وينهى غزليته بأبيات فاجعة حزينة يندب فيه
التى أوحشت بعد أنس ، فتفرق الأهل ، وتشتتت الأ

كانــوا كطـــير باوكار فصــيرهم
زمانهــم فــوق طــير ذات أ

عرفت من بعــد انكـار معــاهدهم
فكنت أنسى اصطبارى بعد

ويختمها بهذا البيت الذى هو قمة فى الألم :

ومــذ تفــرقت الآمــال ما اجتمعت
لى فى دجى الليل أشــفار

ان حازما ينهج فى مقدمات قصائده هذه منهج ف
فى الجاهلية ، وصدر الاسلام ، والعصر الأموى ۰ وته
حبيبته يشبه انتقال « مى » صاحبة ذى الرمة التى
وصواحبها من قاع القرينة حيث تقضى الصيف ، الى
عن القرى لم يتعرض لريح الجنوب الحارة :

تحملن من قـــاع القرينــة بعدمــا
تصــيفن حتى ما عن العــد

الى منهـــل لم تنتجعــه بعـــكة
جنوب ، ولم يغرس به النخل

وتعبيرات ومعان مستمدة من بيئته الخاصة .. فمحبوبة ذي الرمة تنتقل مع قومها من مكان الى مكان بحثا عن المناهل ، وهم يؤثرون المناهل البعيدة عن القرى لاعتقادهم أن القرى مصدر الأوبئة والأمراض ، أما محبوبة حازم التي لا نعرف عنها الا ما وصفها به حازم - فهي تعيش في بيئة متحضرة ، وتنتقل من مكان تحيط به الجداول والأشجار ، الى مكان آخر مشابه له في الجمال والروعة ، ولا يضير بعض شعراء الأندلس كصاحبنا حازم أن يرثوا عن أسلافهم العرب فيما ورثوه هذه الأطر أو التقاليد المتبعة في نظم القصائد ، فلا يوجد جيل من أجيال الأدباء في أي بلد الا وقد اتكأ على الأجيال التي سبقته ، واستفاد منها ، ثم أضاف بعض اللبنات الى الصرح الأدبي الشامخ الذي يساهم فيه كل جيل بما يستطيع، فالأندلسيون قد ورثوا كما ورثنا نحن في القرن العشرين هـذا الأسلوب في النظم .. ولكنه لم يستعبدهم ، انما صبوا فيه تجاربهم الخاصة ، ونسجوا أردية هذه التجارب من خيوط أندلسية تمتزج بها بعض الخيوط العربية البدوية ، لأن التخلص من التراث أو من الماضي تخلصا كاملا غير ممكن ولا مستطاع ... وانما نحن نلوم الشاعر الذي يقلد القدامى في تجاربهم وفي طرائق صياغتها ، وفي الأسلوب الذي تصاغ به .. دون أن يبدو لنا خيال شخصيته .. أو ظل عصره ... وبيئته ..

ان عددا من الباحثين من المستشرقين ، ويتابعهم بعض الأدباء من العرب في ذلك ، يتهمون الشـعر الأندلسي بالعقم ، ويرمونه بالتقليد .. يقول غومس : « لقد نبع الشعر الأندلسي من بحر الشعر المشرقي . » وهـذا حق لا يمكن نكرانه ، ولكنه لا يلبث أن يقول : « ففي شعرهم تتجلى قلة الصدق أو بلفظ أصح - يغلب التقليد والجري على المألوف المطروق .. فشاعرهم يجد نفسه ..

قبل أن يبدأ فى صوغ أبياته .. متقيدا بمثل وموضوعات قررها له السابقون ، كما وضعوا الأوزان والبحور التى لا يمسها تعديل ، أو تغيير ولا يتعداها شاعر قط .. » ويقول الدكتور جودت الركابى ، بعد أن يستعرض الأغراض الشعرية عند شعراء الأندلس : « ولنقل أخيرا ان هذا الشعر فى أغراضه المتعددة لا يختلف كثيرا عن الشعر الشرقى ، بل لعله لم يكن فى مرتبته من حيث المعانى والصور الفكرية ... » . ولكنه يضيف الى قوله السابق ما نرى فيه بعض الانصاف للأندلسيين فيقول : « على أن للشعر الأندلسي ميزة ، هى هذه الرقة الممزوجة بالجزالة » . وما أظن أن الرقة المشوبة بالجزالة هى كل ميزات الشعر الأندلسى . ففى الشعر الأندلسى ميزات كثيرة نذكر منها : التجارب الجديدة المبتكرة ، كالقصيدة التى ينظمها أبو جعفر المصحفى فى « سفرجلة » والتى أوردها غومس فى مختاراته وهى « عبارة عن تاريخ حياة سفرجلة ، مذ كانت تختال على شجرتها بألوانها وريحها، وروحها الى أن ذبلت فى كف الشاعر » . وطريقتهم الخاصة فى المعالجة ، وحسن اختيـــارهم للزاوية التى يستجلون من خلالها المنظر ويرسمون الصـــورة ، وتلك الرقـــة والسهولة ، وما يخلفونه على تجاربهم من صور الطبيعة الأندلسية، وميلهم الى التصـــوير الوجداني ، والبعد عن العمق والتوغل فى دروب الفكر ، مما يجنح بالشعر عن مجاله الى مجال الفلسفة والحكمة والعلم ، وأوزانهم القصيرة الراقصة ، وظهور شخصية كل شاعر فى شعره ، مع بروز الشخصية العامة للبيئة الأندلسية فى جماع ديوانهم الشعرى . ان الشعراء الأندلسيين قد تتلمذوا على الأدب العربى الشرقى ، ولا يمكنهم مطلقا الانفكاك عنه .. ولكنه لم يكن قيدا عليهم يحول بينهم وبين التحرر فى التعبير والتصوير .. كما أن المرحلة التاريخية التى كان يمر بها الأندلس ، تشبه الى حد كبير تلك المرحلة التى كان يعيش فيها المشرق العربى ، فلهذا

التشابه الزمني أيضا جاء شعرهم متقاربا في أغراضه ، وأفكاره ، مختلفا في ألوانه ، وبعض صوره ، لاختلاف البيئة الطبيعية في كل منهما • ولقد دافع الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة دفاعا رائعا عن الشعراء الأندلسيين ضد هؤلاء الذين يتهمونهم بالتقليد والمحاكاة • ويمكن تلخيص دفاعه في الحيثيات الآتية :

١ – كان العربي المهاجر الى الأندلس يعتز بعروبته وبتراثه الفكري والأدبي •

٢ – المنافسة بين الأندلسيين والمشارقة ، ومحاولة الأندلسيين التفوق على المشارقة في مظاهر الملك وما يستلزمه من الحياة العلمية والأدبية •

٣ – الظروف التي كانت تحيط بالشعراء الأندلسيين تشبه الى حد كبير الظروف التي كانت تحيط بالشعراء المشارقة •

٤ – ان كل تقليد الأندلسيين في الغالب لا يتعدى الأوزان والقوافي وبعض المعاني التي لا غنى للشاعر عن تداولها •

٥ – للأندلسيين شخصية واضحة في شعرهم ، قد استمدوها من بيئتهم ، وتجاوبوا فيها مع طبيعة بلادهم •

وينهي دفاعه بما قاله استانلي بول ، من أن « أوربا لم تر في عهد من عهودها حفاوة بالأدب وأهله كما رأت في الأندلس ، حين كان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر ، ويظن أن هذا الشعر هو الذي أوحى للشعراء المغنين بأسبانيا بأناشيدهم القصصية ، وأغانيهم ، وهو الذي حاكاه شعراء بروفانس وايطاليا •• » • كما يرى الدكتور عبد الحسيب : « أن للأندلسيين شخصية متميزة تظهر في ميلهم الى التحرر ، وبزهم المشارقة في بعض الأغراض ، واختراعهم لأنماط من الأوزان لم يكن يعرفها المشارقة ، فهم غير مقلدين للمشارقة » •

أما النوع الثانى من غزل حازم : فيتمثل فى قصيدة فريدة أوقفها على الغزل وحده دون أن يشرك معه أى غرض آخر ٠٠ هذه القصيدة تقطع بأن حازما قد نهل من نهر الحب ، وسعد بمباهجه، واكتوى بعذاباته ، وان لم يكن حبه ـ كما ذكرنا ذلك ـ حبا بعيدا عن رقابة الفكر الواعى ، والعزيمة الحازمة ٠٠ وقد نصح العشاق بما لا شك أنه قد التزمه ، اذ دعاهم الى التوسط في الحب ، دون التوغل فى بحاره الهائجة ، والسير بأقدام حافية على أشواكه الحادة ، وجمراته الملتهبة ٠٠ يقول حازم فى ذلك :

واذا هويت فلا تكن متهالكا	**في الحب، بل متماسكا كي تنتجي**
فالحب مثل البحر يأمن من مشى	**فى شطه ويخـاف كل ملجج**
فاسلك سبيل توسط فيه تصب	**والى التبسط فيه لا تستدرج**

ولكنه بعد بضعة أبيات يقول : ان دعواه هذه أثر لتجربته المريرة فى الحب ، اذ أنه قد لج فيه الى أن بلغ قمته :

فانا الذى افنى التنـاهى فى الهوى
نفسى ، وما ابقى على قلبى الشجى

يبدأ حازم قصـيدته الغزليـة الراقصة مخاطبـا محبوبته ب «ياظبية الربرب» ثم يأخذ فى تجلية محاسنها في أسلوب جديد ٠ يتجلى فى خلع بعض الصفات المألوفة على محبوبته ، ولكنه يتصرف فى تلك الصفات بما يجعلها جديدة ، وذلك بالاستثناءات وأنواع الاحتراس التى يدخلها على تلك الصفات : فمحبوبته « ظبى » وهذا تشبيه مألوف مستهلك ، ولكنها ظبى محلى بالدر والعقيان ، وذلك ما يخرج بالتشبيه عن المألوف ٠٠ ثم يتبع ذلك باستفهام فيه معنى التعجب ، والاستغراب ، فيزيد الصورة جمالا ، فيقول « من قلد الحلى آراما وغزلانا ٠٠ » ومثل ذلك قوله :

ويا شقيقة بدر التم لو امنت
كما امنت ـ بدور التم نقصانا

وهو يسمو بجمالها عن أن يوصف بالأوصاف الموروثة فيقول :

حاشا للحظك ان يعزى الى رشـا
اذا تلفت نحـو السرب وسنانا

ولابتسـامك ان يعـزى الى زهـر
اذا غـدا بسقيط الطـل ريانا

ما خلت قبـلك أن أرنو الى قمـر
مقلدا انجمـا زهـرا وشهبـانا

ان هذه التشبيهات ‥ كما قلنا ‥ متداولة ، ولكن باضافة بعض الكلمات اليها أو الصفات قد أصبحت جديدة « كحاشا » فى البيت الأول ، وما خلت « فى البيت الثالث » وهو يتحدث بلسان أهل الهوى فيقول :

انا بنى الحب ‥ لا نصغى الى عذل
ولا نميـل الى العذال آذانـا

ويقول للعاذل : ان حبه ليس أقل من حب « غيلان » لمحبوبته « مى » ‥ وهو يصف محاسن محبوبته :

فالثغر تجوهر سلسال الرضاب به
حتى بدا لؤلؤا رطبـا ، ومرجانا

والعينان ساحرتان ، معبرتان تقتلان العاشق بالصد ، وتحييانه بالرضى . ويبدو أن حازما يعجبه فى المرأة جمال عينيها .

فهو يذكر تأثيرهما عليه فى أكثر من بيت من هذه القصـيدة ، من ذلك قوله :

يا مسهرا لى بطرف منك ذى وسن
ومسـكرا لى بلحظ منه سـكرانا

ان كان لحظك لا ينفـك منتشـيا
فانتى منـه لا انفـك نشـوانا

ويذكرنا بقصص عمر بن أبى ربيعة مع صويحباته ، اذ أنه يتفق مع محبوبته على الالتقاء ، وتحقق له المحبوبة رغبته فيقضيان ليلة جميلة ، قضياها فى تناج وعناق ، يجنيان « من روضة الحسن تفاحا ورمانا ›› يتعانقان « لف النواسم بالأغصان أغصانا » . وحازم يصف دقائق ما يكون بين العشاق ، من ذلك التناجى « بكسر الألحاظ » والعين تعرب عن أسرار « نجوانا » . وازدحـام اللحظة القصـيرة بالتصرفات الكثيرة كالتلاقى والقرب ، والتنـاجى ، والشكوى ، وغير ذلك مما يحدث بين العشاق فى لحظات سريعة متوهجة . وبالرغم من مباهج الحب التى اقتطف ثمارها العاشقان ، فاننا نشعر بما يكنه الشاعر لمحبوبته من تقدير وتقديس ، فهى قد انصرفت عنه والأشواق لم تنطفىء فى صدره ، والحنين ما زال مستبدا ، حتى أنه ليقول لها :

كن كيف شئت وصالا ، أو مقاطعة
فلست عنك اطيق الدهر سلوانا

والشاعر فى هذه القصيدة الرائعة يتأثر ببيئته ، فهو يجعل للحسن « سلطانا » كما له هو سلطان يطيل مديحه ، وقلوب أهل الهوى هى الرعية التى تدين بطاعة هذا السلطان المستبد ولا تعصى له أمرا . وبيئته الأندلسية تجعله يتخيل « الظبى » الذى يحبه ،

يرتعى حب القلوب ، ولا يرعى العرار الذى ترتعيه ظباء الصحراء ، والطبيعة الأندلسية الأنيقة تلقى ظلها على شعره فهو يجتلى البدر ، ويجتنى « من روضة الحسن تفاحا ورمانا » ، كما يحن الى محبوبته، ويتذكر أيامهما بالأندلس فى حزن ، وشوق :

لا يبعـــد الله أياما مواصـــلة
بوصـــلها ـ قد قطعناها ـ ولزمانا

كم لى بهـــا من عهود ما حننت لها
الا استهلت عيـــون العين تهتـــانا

ولا كســـالف عهد كلمـــا سنحت
ذكراه زادت الى الأشـــجان اشجانا

ان صاحب مثل هذا القصيد الغزلى الخالص ·· لا يخلو من تجارب الهوى ·· كما أننى لا أشك أنه قد نظم أكثر من قصيدة فى تلك التجارب ·· ولكن تلك القصائد قد ضاعت فيما ضاع من شعره الكثير ·

أما النوع الثالث من غزله : فهو ذلك الوصف للساقى فى مجالس الشراب ·· فلحازم قصيدة واحدة فى وصف الخمر ، وبالرغم من أنه نفى عن نفسه المشـــاركة فى الشراب فى المقصورة التى مدح بها أبا عبد الله بن زكريا المستنصر ، الا أن هذه القصيدة تدل على أن حازما قد شارك فى مجالس الأنس أحيانا ، ولكن دون اسراف ، فمن غير المعقول أن شاعرا مثل حازم يعيش فى بيئة مترفة ثم لا يشارك فى كل مباهجها · وفى هذه القصيدة يصف لنا الساقى ، الذى يتوفر له جمال المنظر ، فالسكارى يجنون الثمار من لفظه العذب ، ولحظة الفاتر الغنى بالتعبير ، كمـــا يتنسمون منه روائح المسك الطيب :

رشـــأ تزيد تغيظـــا اجفـــانه
اذ لا يقـــابل ظلمهـــا بتغيظ

تجلى لآلىء لفظـــه فى مســـقط
من مســـمع او ملقط من ملفظ

فجميع مـــن نال السرور بلفظـــه
وبلحظـــه بالبشـــر والبشرى حظى

فيفوت نفحـــة كل مســـك نشـــره
ويفوت مدحة مـــادح ومقـــرظ

حفظت عهـــود هـــواه أبنـــاء الهـــوى
فاعجب لحفظ عهـــود من لم يحفظ

الوصف

لقد أبدع الشعراء الأندلسيون فى فن الوصف ٠٠ حتى تفوقوا على المشارقة ٠٠ وما ذلك الا لروعة بلادهم ، وثرائها ٠ فلقد منحتها الطبيعة جمالا وحسنا ٠٠ وخصوبة ورغدا فى العيش ٠٠ وتقدما فى الصناعة وتحضرا ٠٠ فأمها من جاورها من الأمم للاستفادة من علمها وحضارتها ٠ وبفضل الأندلسيين المهاجرين تقدمت الصناعة ، وانتشرت الحضارة فى بلاد المغرب العربى ٠٠ فصارت « فاس » عاصمة الاسلام فى الغرب ، وتبوأت مكان اشبيلية وغرناطة وقرطبة ٠٠ وان كانت لم تصل الى ما وصلت اليه عواصم الأندلس ٠

كما تأثرت بتلك الحضارة مدينة تونس ، وبخاصة فى عهد الحفصيين الذين فتحوا أبواب مملكتهم على مصراعيها للعلماء والأدباء والشعراء المهاجرين من الأندلس ٠ وقد تفوقت كل مدينة أندلسية أو حاولت التفوق على جاراتها فى حرفة ، أو فن ، أو صناعة ٠ وقد عقد بعض الأدباء فى ذلك العصر فصولا يسجلون فيها محاسن تلك المدن ، ويقيمون بينها مساجلات ومباريات فى فخر كل مدينة

بما احتوته من جمال ، من ذلك ما كتب به أبو بحر صفوان بن ادريس الى الأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن ، فالمدن أخذت تتنافس فى الانضواء تحت سلطانه ، وتدل كل منها بما منحته من جمال وبهاء ، كل منها يقول أنا أحق بذلك وأولى « تنمرت حمص غيظا ، وكادت تفيظ فيظا ، وقالت : أنا مصر الأندلس ، والنيل نهرى ، وسمائى التأنس ، والنجوم زهرى ، فنظرتها قرطبة شزرا ، وقالت : لقد كثرت نزرا وبذرت فى الصخر الأصم بزرا ، كلام العدا ضرب من الهذيان ٠٠ » وبعد أن تفاخر كل من غرناطة ومالقة ومرسية بمحاسنها تقول بلنسية : « فيم الجدال والقراع ٠٠ أنا أحوزه من دونكم فلى المحاسن الشامخة الأعلام ، والجنات التى تلقى اليها الآفاق يد الاستسلام ، وبرصافتى وجسرى أعارض مدينة السلام ٠٠ » فعند ذلك ارتمت جمرة تسعر بالشرار ، وقالت : « عش رجبا تر عجبا ٠٠ هذا سماء الفخر فمن ضمنك أن تعرجى ، ليس بعشك فادرجى ٠٠ » الى أن تقول لها معرضة بجمالها الذى لا تراه نافعا : « ما الذى يجديك الروض ، والزهر ، أم ما يفيدك الجدول ، والنهر ، وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ، هل أنت الا محط رحل النفاق ٠٠ الخ » ٠

ولقد بلغ الأندلسيون حدا فى التحضر جعلهم ينصرفون عن القتال الى التمتع بما فى بلادهم من حسن وجمال ٠٠ فقال أبو اسحاق ابن يعلى الطرسونى فيهم معاتبا ، وقد تزينوا وخرجوا فى يوم عيد ولم يأبهوا بمداهمة العـــدو لديارهم فى تلك الموقعة التى هزم فيها النصارى جيوش المسلمين :

لبسوا الحــديد الى الوغـى ، ولبستم
حلل الحـــرير عليــكم الــوانا

ما كان أبهجهـــم ، وأحســنكم بهــا
لو لم يكن ببطـــرنة ما كانـــا

لقد وصف الشاعر الأندلسى كل ما رآه ، ووقع تحت حسه من مناظر خلابة ، طبيعية كانت أو صناعية ، وانعكس جمال تلك المناظر على مرايا وجداناتهم ، التى عكست ذلك بدورها على صورهم وأخيلتهم فوجدنا الأندلسيين يستعينون بالطبيعة ، وصورها الخلابة فى رسم لوحات المديح ، والغزل ، والرثاء ٠٠ وغير ذلك ٠٠ كما استبدلوا فى أحايين كثيرة بالمقدمات الغزلية مقدمات من مناظر الطبيعة ٠ وقد أفردوا قصائد كثيرة للوصف ، وليس الأمر كما زعمه الركابى من أن « شعر الطبيعة عندهم لا يظهر كغرض مستقل الا نادرا فى بعض المقطوعات والقصائد » ٠

والذى أوقع الباحث فى الخطأ هو اكتفاؤه بتـأمل قصـائد الشعراء المشهورين فقط ٠٠ ولو أنه أطلق نظره وجال فى كل ما خلفته لنا يد العوادى من شعر أندلسى ، لوجدهم يصفون فى قصائد مستقلة الأزهار والحدائق ، ومجالس الشراب ، والدواليب ، والأنهار والمدن ، من ذلك وصف مروان بن عبد الله بن عبد العزيز ملك بلنسية ، لمدينته التى كان يحكمها ثم نفى عنها الى مراكش بقوله :

كأن بالنســـبة كاعـــب ... وملبسـها سندس أخضـر
اذا جئتهــا سترت نفســها ... بأكمامهــا فهى لا تظهـر

ويصف أبو الحسن نور الدين المايرقى ، أحد أقارب بعض ملوك المغرب ، ما يراه فى الطبيعة من جمال فيقول :

الغصـــب راقصـــة ، والطير صـــادحة
والنشـــر مرتفع ، والمـــاء منحـــدر

ولقد تجلت من اللذات أوجهها
لكنها بظلال اللوح تستتر

فكل واد به موسى يفجره
وكل روض على حافاته الخضر

وكثيرا ما كان يصحب الحكام معهم بعض شعرائهم حين يقومون برحلات صيد أو تمتع بجمال الطبيعة .. ولقد انتقلت عدوى ذلك من حكام الأندلس الى السلاطين من المغاربة ، فلقد صحب الخليفة الحفصى أبو يحيى معه شعراءه : أبا عبد الله محمد بن الحسين ابن سعيد ، وأبا عمرو بن مالك اللخمى ، وأبا على يونسا ، ودعاهم الى وصف الموضع الذى خيم به وكان على شاطىء نهر .. تحدق به الأزهار ، فقال أبو عبد الله بن الحسين :

ونهر يرف الزهر فى جنباته ويثنى النسيم قضبه ويؤطر
يسيل كما عن الصباح بافقه والا كما شيم الحسام المجوهر
عليه ليحيى قبة ، هل سمعتم بفرصة شمس حل فيها الغضنفر
فان قلت : هذى قبة لعفاتها فقل : ذلك الوادى الذى سال كوثر

واذا كان ابن سعيد قد مزج الوصف بالمديح ، وقد جاء مزجه موفقا رائعا .. فان أبا عمرو اكتفى بالوصف فقط فقال :

وأرض من الحصباء بيضاء قد جرت
جداول ماء دونها تتفجر

كما سبحت تبغى الحياة أراقم
على روضة فيها الأقاح المنور

والا كما شقت سبائك فضة
بساطا على حافاته الدر ينثر

ومثل ذلك قد جاء وصف أبى على يونس . بل كان الشعراء

في عصر حازم كما نرى من وصفهم للدولاب يتبارون في وصف الشيء الواحد ، فلقد وصف ابن الأبار الدولاب بأبيات هي :

لله دولاب يدور ، كأنه ... فلك ولكن ما ارتقاه كوكب
هامت به الأحداق لما نظمت ... منه الحديقة ساقيا لا يشرب
نصبته فوق النهر أيد قدرت ... ترويحه الأرواح ساعة ينصب
فكأنه ، وهو الطليق مقيد ... وكأنه وهو الحبيس مسيب
للماء فيه تصعد ، وتحدر ... كالمزن يستسقي البحار ويسكب

فحلف أبو عبد الله بن أبي الحسين بن عم ابن سعيد أن يصفه أيضا فقال :

ومحنية الأضلاع تحنو على الثرى ... وتسقي نبات الترب در الترائب
تعد من الأفلاك أن مياهها ... نجوم لرجم المحل ذات ذوائب
وأعجبها رقص الغصون ذوابلا ... فدارت بأمثال السيوف القواضب
وتحسبها والروض ساق وقينة ... فما برحا ما بين شاد ، وشارب
وما خلتها تشكو بتحنانها الصدى ... ومن فوق متنيها أطراد المذانب
فخذ من مجاريها ودهمة لونها ... بياض العطايا في سواد المطالب

ودعا ابن عمه نور الدين علي بن موسى بن سعيد الى ذلك ، فنظم هذه الأبيات :

وذات حنين لا تزال مطيفة ... تئن ، وتبكي بالدموع السواكب
كأن الهفا بان عنها فأصبحت ... بمربعه كالصب بعد الحبائب
اذا ابتسمت فيها الرياض شماتة ... ترعها بأمثال السيوف القواضب
فكم رقصت أعضاؤها فرمت لها ... نثارا كما بددت حلى الكواعب

وقد اشتهر بعض الشعراء بتفوقهم فى وصف الطبيعة كابن خفاجة الأندلسى ، وابن أخته ابن الزقاق وسواهما .. كما عارض بعض الشعراء الأندلسيين أوصاف المشرقيين ، وحاولوا التفوق عليهم ، فحين فضل ابن الرومى النرجس على الورد .. وجدنا سعيد بن محمد بن فرج يرد عليه ويفضل الورد على النرجس ملتزما القافية والوزن .. فيقول :

عنى اليك فما القياس للفاسد ... الا للذى رد العيان الشاهد
لزعمت أن الورد من تفضيله ... خجل وناحله الفضيلة عاند
ان كان يستحيى لفضل جماله ... فحياؤه فيه جمال زائد
والنرجس المصفر اعظم ريبة ... من أن يحول عليه لون واحد
ليس البياض بصفرة فى وجهه ... صفه كما وصف الحزين الفاقد

وأبيات ابن الرومى التى يفضل فيها النرجس على الورد هى :

لم يخجل الورد المورد لونه ... الا وناحله الفضيلة عاند
للنرجس الفضل المبين اذا بدا ... بين الرياض طريفه والتالد
فصل القضية أن هذا قائد ... زهر الربيع ، وأن هذا طارد
شتان بين اثنين هذا موعد ... بتصرم الدنيا ، وهذا واعد
فاذا احتفظت فأمتع صاحب ... بحياته لو أن حيا خالد
ينهى النديم عن القبيح بلحظه ... وعلى المدامة والسماع مساعد
اطلب بعقلك فى الملاح شبيهه ... ابدا فانك لا محالة واجد
والورد ان فتشت فرد فى اسمه ... ما فى الملاح له سمى واحد
هذى النجوم هى التى ربينها ... بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر الى الولدين من ادناهما ... شبها بوالده فذاك الماجد
اين الخدود من العيون نفاسة ... ورياسة لولا القياس الفاسد

وقد ناقضه جماعة من البغداديين وغيرهم فى هذا المذهب ، وذهبوا الى تفضيل الورد فما دانوه ، وما استطاعوه ، قال أحمد ابن يونس رادا عليه :

يا من يشبه نرجسا بنواظــــر — دعجـــا تنبــه ان فهمك راقــد
ان القياس لمن يصح قياســـــه — بين العيــون وبينــه متباعــــد
والورد أصدق للخدود حكاية — فعلام تجحد فضله يا جاحـــد
ملك قصــــير عمره مستاهل — تخليده ، لو ان حيـــا خالد
ان قلت ان الورد فرد فى اسمه — ما فى الملاح له سمى واحـــد
فالشمس تفرد باسمها والمشترى — والبدر يشرك في اسمه وعطارد

ولاسماعيل بن محمد بن عامر المتوفى سنة ٤٤٠ هـ كتاب فى فصل الربيع ، ومن شعره فى الربيع قوله :

ابشر فقد سفر الثرى عن بشره — وأتاك ينشر ما طوى من نشره
متحصــــنا من حسنه فى معقل — عقل العيون على رعاية زهــره

وكما وصف الأندلسيون المناظر الطبيعية الرائعة ٠٠ وصفوا الكثير من مستحدثات الحضارة ، ولابن حمديس الكثير من ذلك ٠٠ وها هو الخليفة المعتصم الصمادحى يصف بركة ماء بناهــا فى الصمادحية وهى القصور التى بناها المعتصم ابن صمادح ٠٠ فيقول:

كأن انسياب الماء فى صفحاتها — حسام صقيل المتن سل من الغمد
ثغور به فــــوارة مســــتديرة — لها مقلة زرقاء موصولة السهد
أدرنا بها كاســـا كأن حبابهـــا — حباب سقيط الطل في ورق الورد

كما أبدع الشعراء فى وصــف الخمر ، ومجالس اللهـو والشراب ٠٠ وقد اشتهر بذلك ابن الحكم الغزال الذى زار المشرق فوجد الأدباء يلهجون بذكر أبى نواس ، فأسمعهم قصيدة على أنها

من شعر أبى نواس فأعجبوا بها ، ولما فاجأهم بأنها له وجموا ، اذ أنهم لم يكونوا يعترفون بأن للأندلسيين شعرا يضاهى أشعار شعرائهم المشهورين ٠٠ كما اشتهر بذلك ابن شهيد ٠ ومن شعر أبى الحسن على بن عطية بن الزقاق المتوفى سنة ٥٣٠ هـ فى ذلك قوله :

وساق يحث الكأس، وهي كأنما ... تلألأ منها مثل ضوء جبينه
سقاني بها صرف الحميا عشية ... وثنى بأخرى من رحيق جفونه
هضيم الحشا ذو وجنة عندمية ... تريك قطاف الورد فى غير حينه
فأشرب من يمناه ما فوق خده ... والثم من خديه ما بيمينه

ومن أبدع ما جاء فى وصف الطبيعة قوله فى وصف الشفق ، الذى أشبهت حمرته حمرة الخدود أو حمرة كئوس الرحيق ، حتى انه ليتمنى أن يشرب هذا الشفق :

وعشية لبست رداء شقيق ... تزهى بلون للخدود انيق
أبقت بها الشمس المنيرة مثلما ... أبقى الحياء بوجنة المعشوق
لو أستطيع شربتها كلفا بها ... وعدلت فيها عن كئوس رحيق

ولحازم مشاركة فى كل ذلك ٠٠ فلنتأن قليلا لنستعرض ألوان الوصف عند حازم كما نتبينها من شعره ٠ لقد وصف حازم كل مظاهر الطبيعة الجميلة ، فوصف السحاب ، وآثاره :

من كل غراء مبيض جوانبها ... بالودق ، مشرقة منها الأسارير
اذا استدار سناها خلته ذهبا ... دارت على معصم منه الأساوير

ومجالس اللهو والشراب ٠٠ التى كانت تعقد بين مناظر الطبيعة الحالية ٠٠ حيث الرياض تكسو الأرض أجمل زينتها ، والنهر يمد معطفه لتستريح عليه النسمات المتعبة ، وعسجدى الأصيل وقد وشى صفحة النهر ، بين هذه المناظر الجميلة تدار على الشاربين

كئوس الراح ، وتشنف آذانهم نغمات الأوتار ، يقول حازم فى تصوير تلك المباهج اللاهية :

أدر المدامة ، فالنســيم مؤرج — والروض مرقوم البرود مدبج
والأرض لابسة برود محاسن — فكأنما هى كاعب ٠٠ تتبرج
والنهر لما ارتاح معطفــه الى — لقيا النسيم ، عبابه متمــوج
يمسى الأصيل بعسجدى شعاعه — أبدا يوشى صفحه ، ويدبــج

ويتحدث عن الساقى الذى يسكر الشاربين بخمر ألحاظه ٠٠ فيقول :

واسكر بنشوة لحظ من أحببته — أو كأس خمر من لمــاه تمــزج
واسمع الى نغمات عود تطــبى — قلب الخلى الى الهوى ، وتهيج

وفى شعر حازم كثيرا ما تتردد بعض الأنات والزفرات ٠٠ التى ترد خلال قصائده دون أن يطيل عندها الوقوف ، وفى خمريته هذه يعبر عن تلك الهموم التى لا يفصح عنها ، والتى يرى أن معاقرة الخمر ، والمشاركة فى مجالس الأنس تخفف من وطأتها على النفس ٠٠ فيقول :

من لم يهيج قلبه هذا ٠٠ فما — للقلب منــه محرك ومهــيج
فأجب فقد نادى بألسن حاله — الأنس دهر للهمــوم مفــرج
طربت جمادات وافصح أعجــم — فرحا ، وأصبح من سرور يهزج
أيفضــل الحى الجمــاد مسرة — والحــى للسراء منــه احــوج

وينهيها بهذا الدعاء الذى يبدو فى ظاهره تضرعا من الشاعر الى الله أن يعيد له الالتقاء بأحبــابه الذين رحلوا ٠٠ وفى الحقيقة أنه دعاء منه الى الله كى يفرج عن نفسه همومها التى ترزح تحت أثقالها ٠٠ يقول فى ذلك :

وأقول يا نفسي اصبري ، فعسى النوى
بصـــباح قــرب ليلهــا يتبلج

فترقب السراء من دهــر شـــجا
فالدهـــــر من ضد لضد يخــرج

وتــرج فرجــة كل هــم طــارق
فلكل هــم في الزمـــان تفـــرج

وللشاعر أبيات قليلة في وصف بعض مظـــاهر الطبيعـة الجميلة ٠٠ من ذلك وصفه لوردة ٠٠ في أبيات ثلاثة ٠٠ يظهـر فيها تأثره بسيف الدولة الحمداني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ وبخاصة في البيت الأخير ٠ وهو في هذه الأوصاف يغلب عليـــه طـابع التصوير الخارجي ، أو هو من قبيل الرســـوم التشكيلية ، اذا تسامحنا وعبرنا عن ذلك بلغة العصر ، فهدفه هو نقل صـــور جميلة ، ومصدر اعجاب المتلقي بها يتوقف على مدى نجاح الشاعر في نقل مواطن جمال المنظر الذي راقه ٠٠ يقول حازم في وصفه للوردة :

ومبيضة الأثواب تدعى بوردة — تقل لها الأشباه عند التماسها
أنافت على ساق لتشرب عندما — أشارت لها كف البروق بكاسها
كجارية قامت ببعض غلائل — مرفعة أذيالها ٠٠ فوق راسـها

وكدأب حازم فيما يحتذيه من صور الآخرين فلا ينقله كما هو ، وانما يحدث فيه من التغيير ما يعطيه حق ملكيته أو ما يترك طابعه عليه ، فانه احتذى قول ســـيف الدولة الحمداني في وصـــف قوس قزح :

كأذيــال خــود اقبلت في غلائـــل
مصـــبغة ، والبعض اقصر من بعض

وأضاف اليه قوله ٠٠ « مرفعة أذيالها فوق رأسها » ٠٠ وهى اضافة طريفة ٠٠ جعلت بيت حازم أكثر جمالا من بيت سيف الدولة السابق ٠٠ ويبدو أن حازما يروق له رسم صور الأزهار فى حال استقبالها لقطرات المطر أو الندى ، كما فى أبياته أيضا التى يصف بها « نور اللوز » والتى يقول فيها :

لا نور يعدل نور اللوز فى انق	**وبهجة عند ذى عدل وانصاف**
نظام زهر يظل الدهر منتشرا	**عليه من كل هامي القطر ، وكاف**
بينا ترى، وهى أصداف لدرحيا	**بيض غلت دررا في خضر اصداف**

ومن الواضح حب حازم للطل ، والمطر الخفيف ، أو الوكاف كما يقول ٠٠ ولتلك الأحجار الكريمة ٠٠ التى يتحلى بها الحسان، كالدر ، والمرجان ، ويميل للألوان ، فيذكر هنا لونين هما الأبيض؛ والأخضر ٠ ولكن لا يخفى أن حازما العالم قد يلقى بظله على حازم الشاعر فترد فى شعره بعض الكلمات التى لا تروق للمتمرس بغرض الشعر ــ والذين يتعاملون مع الكلمات بأصابع ورعة على حد تعبير الدكتور محمد مندور ــ من تلك الألفاظ التى لا يستجيب لها الشعراء غالبا ٠٠ قوله فى الأبيات التى يصف فيها الوردة ٠٠ « تدعى بوردة » ٠٠ فالتعبير بتدعى تعبير بعيد عن الشاعرية ، ومثله قوله « عند ذى عدل وانصاف » ٠٠ الذى هو من تعبيرات الفقهاء غالبا ٠٠ وعلى كل فالانصاف يقتضينا أن نقول : ان حازما فى أوصافه للوردة ، ونور اللوز رغم حسن انتقائه للكلمات ٠٠ وابداعه فى رسم الصور ٠٠ أقل مستوى من كثير من معاصريه الذين تعرضوا لمثل هذه الأشياء فوصفوها باحساس وانفعال ٠ ومن أحسن ما ورد فى ذلك من الشعر الأندلسى ، وصف الحاجب جعفر بن محمد المصحفى لسفرجلة ٠٠ والتى أوردناها فيما سبق ٠٠ولكن حازما يصل الى قمة ابداعه حين يجعل من الطبيعة اطارا

لبعض تجاربه ·· أو ألوانا وخطوطا ينقل بها احساسه · كتصويره للسراب ·· وقد ارتسمت عليه صـور الرواحل بالأردية الزرق التي وشيت بصور بقر الوحشى ، أو حين يشـبه ظهور بشائر الصباح بفروع بيضاء تنبت فى شجر الليل الأدهم ·

وقد شدا فى فروع الصبح حين بدا
فى دهمة الليـل كالعصفور ، عصفور

ومن الأشياء التى أعجب بها حازم ، وفاق غيره فى وصفها ـ كما نبين ذلك فيما بعد ـ الكواكب والنجوم ، فهو يصف مواقعها·· ومسارها ·· وأوقات ظهـورها ، وغروبها ، مما يدل على علمه الواسع بذلك ·

ولقد كان علم الفلك فى الماضى فرعا من فروع الدراسـات العقلية · وحازم ينجح كثيرا فى تجسيمها · من ذلك الأبيـات التى وصف فيها مداهمة خيول الصبح للنجوم التى ذعرت وولت هاربة ·· كما يدير معارك جانبية بين بعض النجـوم وبعضـها الآخر ، كالحمل الذى داهم برج « الحوت » لأنه ، حال بينه وبين احتواء « الدلو » · وفى قصيدته الطائية ، التى يبدو أنه يعارض بها ابن هانىء ، وبخاصة فى حديثه عن النجوم ؛ مما سنبينه فى الفصل المعقود عن الموازنات ·· نجده يشخص النجوم حتى يخال أن لها هوى مثله :

وبت أظن الشهب مثـلى لهـا هوى
وأغبطهـا فى طول ألفتهـا غبطـا

ويتخيل الثريا كاعبا عزمت على الرحيل ، فاتخذت من نجوم « الهقعة » الزهر لها هودجـا ، « والسها » الذى يحبها قد رق ، ودق من فرط شـوقه ، كما أن سهيلا لما يئس من لقائها ·· أخذ يضرب فى الآفاق متخذا طريقا غير الطريق الذى سلكته · وما أجمل

تشبيهه بياض الصبح بمعصم غادة أخذت تلتقط بيدها أزهـار النجـــوم :

كأن بياض الصبح معصـــم غادة
جنت يدها أزهار زهر الدجى لقطا

وقد برز حازم كثيرا فى وصفه للمنشئآت والمبانى ، وبخاصة تلك التى شادها ممدوحوه الحفصيون ·· وقد لاحظ ذلك عدد من الدارسين القدامي والمحدثين ، فقال أبو عبد الله محمد الشـــهير بالوزير : ولله در خاتمة الحكماء ، وبليغ العلماء ، وأديب الرؤساء ورئيس الأدباء ، وتاج البلغاء ، وامام الفصحاء أبو الحسن حازم الأنصارى الأندلسى فى مقصـورته التى مدح بهـــا أبا عبـد الله المستنصر أمير تونس ، ويصف جـــرى الماء الذى آتـى به ، الى أن قال :

مكان به قد ساح وسط تونس	**وصاح بالناس ردوا ماء الندى**
وزار أرضـــا طالما زرت على	**لباتهـا أطواقه فيما ·· خلا**
وروض الأرض التي روضها	**وجاد بالسـقيا عليهـا وجدا**
وخر فيها ســاجدا مسبحا	**لله فوق ســبح من الحصــا**

وحين يزعم الغرناطى شارح المقصورة أن المستنصر هو الذى استحدث هذه العيون والقنوات ، نجد أبا عبد الله المذكور يصحح ما قاله الغرناطى ، معتمدا على ما ورد فى المقصورة ، مما يفيـد أن هذه العيون قد أنشئت فى عهد الرومان ·· ثم جاء المستنصر فأعاد تجديدها ·· فالناظم رحمه الله يبين ذلك بقوله :

وكفــرت طاعته لمؤمـــن	**طاعتـــه الكافـــر فيما مضى**

وفى الحق أن تجديد هـذه القنـوات كان فى وقته من أعظم

الأعمال التي قام بها الخليفة المستنصر الحفصي ، فقد مدها الى حدائقه الواسعة ، وبساتينه الفسيحة ، التي كان كثيرا ما يتردد عليها مع عدد من شعرائه ، والمقربين اليه ، للفسحة ، والاصطياد ؛ كما مد فرعا من تلك القنوات الى المسجد الذي أنشأه . ويبدو أن المستنصر قد أنشأ من هذه المياه الدافقة بحيرة فسيحة الأرجاء في حدائقه ، وعلى جوانبها أقام القباب البيض ، التي تتهدل عليها أغصان الدوح ، وتميل بفروعها على صفحات الماء فتلامسه ، وتلقى بظلالها الخضراء على صفحته ، كما أقام المهندسون على تلك القنوات قسيا من رخام ومرمر مزخرف ، مما اجتذب الى رؤيته سواد الشعب ، فكان الناس يخرجون لمشاهدة هذا المنظر الرائع الجميل ، وقد وصف حازم ذلك أجمل وصف حين قال :

وقد أدرك الراجي بحضرتك المنى
وقد احضرت آماله ، والمآرب

جلبت له الأمواه حتى تفجرت
مشارع منها جنة ومشارب

ويبدو أن المستنصر قد أباح تلك المياه للشعب ، فلم يجعلها وقفا على زروعه ، وبساتينه ، فحازم يقول في ذلك :

لكل امرىء فيها من الماء قسمة
وشرب كما كانت لقحطان مارب

موارد أضحى القيظ حيث تبجست
ربيعا ، وآضت كالشمال الجنائب

ويرسم لنا صورة لما أنشىء فيها من قباب ، تحيط بها الأشجار الملتفة السامقة فيقول :

سمت وسطها بيض القباب ، وأحدقت
قباب بهـا من سندس ، ومضـــارب

قبـــاب من الـــدوح المنيف تهدلت
لهن أعـــال بالحيـــا ، وجـــوانب

علت وضفت اطنـا بهـــا فتهـــدلت
على صـــفحات المـاء منهـــا هيـــادب

أقيمت عليـــه من رخـــام ، ومرمـــر
قسى اقامتهـــا الأكـــف اللوارب

وزينت بالوان تروق كمـــا اكتســـت
باوشية الزهـــر الريـــاض العـــوازب

ويصف اقبال الناس عليها ، وتعجبهم من صنعها وجمالهـــا فيقـــول :

تداعى اليهـــا النـــاس من متعجـــب
وداع ، ومثـــن بالـــذى أنت واهـــب

توارد أيديهم عليهـــا ـ كأنهـــا
ورودا ـ قطا البيد الظمـــاء الشوارب

وتصدر عنهـــا مترعات سجالهـــا
كما صدرت عن راحتيـــك الرغـــائب

ميـــاه كسلســـال الرضـــاب يحفـــه
رخـــام لمبيض الثغـــور منـــاسب

وحازم فى أوصافه ، كما هو واضح ، يقف على أرض الواقع ، ثم ينطلق منها بجناحيه الى آفاق واسعة من الخيال المرتكز على هذا الواقع ، فكثيرا ما يجد الشاعر فى الحقائق من الغنى ما هو أسمى ، وأجمل من كل خيال . والشاعر الذكى هو الذى يختار من الواقع الثرى ما يطرف ، ويعجب ، بعد أن يؤلف بين أجزائه ، عارضا ذلك فى معارض زاهية من التصوير والتعبير .

ولحازم الكثير من الأوصاف لمراتع لهوه فى الأندلس ، سنذكرها حين نتحدث عن الأغراض التى ألم بها فى المقصورة ، ولكننا لن نهمل هنا قصيدتين قصيرتين وردتا فى الديوان ، احداهما عن موطنه الأصلى قرطاجنة ، والأخرى عن البلد الذى تعلم فيه ، وتردد على مجانيه ، وملاهيه ؛ بعد أن شب ، وأعنى به مدينة « مرسية » .. وفى المقطوعتين نلمس الحب الذى يكنه لهاتين المدينتين . وهو فى حديثه عن قرطاجنة يرسم لوحة جغرافية لمسقط رأسه ، كأنه يريد أن يحفر صورتها فى ذاكرة التاريخ حتى لا تنسى ، ويتحدث عن برها الذى يعبره الناس دون خوف ، والذى هو مصدر الخير للناس لما ينبت فيه من زروع ، كما يتحدث عن بحرها الذى تعبره السفن فى اطمئنان وأمان ، وفى خاتمتها يفضل برها على كل بر ، كما يفضل بحرها على كل بحر ، ومن أجمل أبياتها تشبيهه لبرها وما يموج فيه من زهر ، ببحرها وما يضطرب فيه من أمواج فيقول:

تخال بطون ذلك متن هذا
اذا بالنبت لاحت وهى خضر

فنبت بطاحها وشى وخز
وترب جبالها ورق ، وتبر

فليس كبرها فى الأرض بر
وليس كبحرها فى الأرض بحر

أما مدينة مرسية فهو يكن لها الحب الطاغى ، والحنين اللاهف ·· ونحس بفرحته النفسية حين يذكرها والتى تظهر فى تصويره لها « بجنة الأرض » وحديثه عما كان يستمتع به فيها من راح وريحان ، وفى تعبيره بقوله :

تلك محل السرور مرسية
موطن أنسى ، ودار أفراحى

وفى ندائه الترخيمى الجميل ، فكأنها احدى حبيباته الصغيرات يدللها فيقول لها :

مرسى ··· كم ناعم ، وكم جذل
بين الرياحين فيك والراح

وهو يذكر لنا الأماكن التى يجول فيها مع رفاقه ، بل ويحدد مساحتها ب :

سبعون ميلا كنا نجول بها
بين جسور ، وبين أدواح

ولا أدرى السر فى قصر نفسى حازم فى وصفه للزهور وحديثه عن هاتين المدينتين ·· رغم حنينه واشتياقه لبلاده ، هذا الحنين الذى استبد به ، فجعله لا يخلى قصيدة من قصائد مدحه لأبى زكرياء يحيى بن عبد الواحد ، أو ابنه المستنصر ، من تحريض لاستردادها من أيدى الغاصبين ·· ربما لأنه يميل بطبعه الى القصائد التى تحتوى على أكثر من غرض أو ربما سقطت بعض الأبيات منها .

ومن الأمور التى أولع بوصفها ، والتى تلائم ذوقه الحماسى ، المعارك التى خاضها ممدوحوه ضد أعدائهم·· وهو فى ذلك يستطرد

فيصف الخيول والفرسان وأسلحة القتال ، وهزيمة الأعداء وفرارهم ، يصوغ ذلك بأسلوب ينساب فى حرية ، وفى انفعال ، وتكاد لا تخلو قصائد مدحه من ذلك ·· لانشغال ممدوحيه بتأديب العصاة ، والذود عن دولتهم الناشئة فى وقت عاصف ، كثر فيه الثائرون والمتمردون · وفى الحديث عن الحرب ، ووصف القتال . وشجاعة الفرسان ·· تبرز لنا عبقرية حازم التى تتجلى فى تخيلاته المبتكرة ، وصوره الطريفة المعبرة ، ففى همزيته التى يمدح بها أبا زكرياء يحيى ، يتخيل ارتعاشات النجوم ذعرا من جيوش الممدوح ، واختفاءها فى الصباح خوفا من غاراته ، فيقول :

ورعت عبور الشعريين فلم تقر
خفوقا ، وبز الذعر نور الغميصاء

وخيلك قد انسى النعائم خوفها
شبا ذابح من خالهن وزوراء

فهل خفيت فى الصبح من خوف غارة
على ساحة الخضراء منهن شعواء

كما يصف الجياد ، وما عليها من دروع ، وما تثيره من نقع وصفا طريفا ، فيقول :

جياد اذا تكسى الدروع حسبتها
رعانا تغشتها يلامع بيداء

كانك راء زئبقا مترجرجا
على ملس اصلاب لهن واصلاء

فكم قذيت شمس النهار بنفعها
وكم صدئت مرآتها بعد امهاء

وكـم نائم قد نبهت ، وبصـــــيرة
بهـــا جليت مرآتها بعد اصـــداء

ويصف الجحفل المجر ، وما يحمله من رماح وسيوف متعطشة الى امتياح صدور الأعداء فيقول :

تقـود الى استئصالهم كل جحفـل
مواصل تاويب اليهـــم باســـــراء

تظل عوالى سـمره كل ضـــيغم
كان قـــد اقلتـــه قـوادم فتخـاء

متى شاء لم يقنع من القرن نصـله
بغـير سـواد الطرف أو بالسـويداء

يرى كل خافى مقتـل من سـنانه
بعين كزرقـــاء اليمـــامة زرقـــاء

يعل القنـــا حتى يخلن سوامقـــا
تهصــــر مــن راياتهـــن بأقنـــاء

ان أخيلة حازم هنا تمتاز بالجدة والابتكار ، وهى وان كانت تعتمد على صور قد سبق اليها ، الا أن ما يدخله عليها من اضافات طريفة ، يجعلها تنتمى اليه ، وتنتسب الى دوحة خياله الباسقة ، من ذلك تصوره أن الفارس كالأسد الذى يمتطى عقابا فتخـــاء سريعة الطيران ، واختياره للعقاب دون أى طائر آخر غير جارح ، يدل على أن صور حازم منتزعة من نفسه وملائمة للجو النفسى الذى يعيش فيه بتجربته ، ويطوع المحسنات لاحساسه وفنه ، فاختياره لسواد الطرف وسويداء القلب ، قد جاء مراعاة للتجانس بينهما ، ولكن حازما قد وفق فى ذلك ، اذ لم ينتقص المعنى ، فالســواد

والسويداء كلاهما مقتل ، ومثله التشبيه بزرقاء اليمامة ، فسنان الرمح أزرق ، وهو يصنع مع زرقاء اليمامة جناسا ، ولكن التشبيه جاء طريفا غير مسبوق اذ جعل الرمح يهتدى الى مقاتل الأعداء اهتداء زرقاء اليمامة الى ما تطلب رؤيته ، فالمعنى تام .. وليس فيه ما يشى بالصنعة ، رغم أن حازما قد قصد المجانسة ، فى البيت .

وفى هذه القصيدة ، كما فى المقصورة وغيرها ، نجد حازما يمنى نفسه وقومه الأندلسيين بالعودة الى ديارهم ، بعد أن تدحر الأعداء جيوش الخليفة ، لذلك فهم لا يقلون فرحة بانتصارات الخليفة من أهل تونس ، والقاطنين بالعدوة الغربية ، يقول حازم فى ذلك :

غدا غرب احدى العدوتين بمثله
من العدوة الأخرى مقدم ابناء

هوى غرب تلكم ، من هوى غرب هذه
تشابهت الدنيا توافق اهواء

من الجانب الشرقى نودى كل من
على الأرض من دان سعيد ، ومن ناء

كما أسعد الله ابن عمران اذ سرى
الى الجانب الغربى من طور سيناء

لقد وصف حازم أيضا خوف الأعداء ، واستسلامهم فى أكثر من موضع ، من ذلك وصفه لاستسلام الثائرين عليه من قبيلة رياح ، وسباع ، وحداد وغيرها فى قوله :

بلغت في الأعداء كل مراد
وغدا لك التاييد ذا اسعاد

وغدا الأعادي من رياح كلما
هبت بنصركم الرياح كعاد

اضحت سباع للسباع فريسة
وسطا بشبل غالب الآساد

الى أن يقول :

امطيتهم غر الجياد ، فما ابتغوا
الا امتطاء اداهم الأقياد

طوقتهم بظباك أن لم يشكروا
ما طوقوا من انعم وايـاد

كما وصف الخيول التى يقاتل عليها ، وصفا يظهر فيه تأثره بالسابقين له من الشعراء ، كقوله :

وطئت سنابك خيله هام العدا
من قبل وطء منازل ، ومعاهد

من كل مجفرة الضلوع كانما
تطوى على الأعداء زفرة حاقد

أو كالمحلقة الصيود ، مطهم
يهوى بمقتنص الفوارس صائد

يمضي فيسبق لحظ ناظره ، وير
جع قبل ان يرتد طرف الراصد

ولــو انـــه متجفـــل بعقـــاله
لـم تلفـــه الا عقـــال الشـــارد

حتى لقد نسي الجــواد اسـما له
من طـــول ما سموه قيد أوابـــد

فالمعني الذى ذكره فى البيت الثانى قد سبق له أن صاغه في بيت من أبيات مقصورته ، اذ قال :

« ومسرج عـــلى الزفـــير مشرج »

وقد أخذه من الجعــدى الذى قال :

خيط على زفـــرة فتـــم ولـــم
يرجـــع الى دقـــة ولا هضـــم

والمعنى كما يقول الغرناطى كناية عن عظم جوفه ، فكأنه زفر فشدت عرى جوفه وهو زافر .. وهو من المعانى الغراب البديعة . وهو متأثر فى البيت الرابع بالقرآن الكريم حيث يقول جل وعلا « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبـل أن يرتد اليك طرفك » وفى البيتين الخامس والسادس ، متأثر بوصـــف امرىء القيس لفرسه فى معلقته المشهورة . ولا ضير على حازم فيمـــا فعل ، اذ أن هذا يدل على اتســـاع ثقافته ، وغزارة روايته ، وعلمـــه ، بالتراث الأدبى .... وكل أديب يســـتمد الكثير عن انشائه مما وعته ذاكرته أو ما استقر فى وجدانه .

هذه بعض الموضــوعات التى تطرق لهـا حازم بالوصف أما استمداده الصور ؛ من الطبيعة الحية أو الصامتــة ، فهو كثير فى شعره ، وشعر غيره من الأندلسيين .

رثاء الممالك والمدن الزائلة
والحنين الى الديار

من المرجح أن هذا الغرض الشعرى قد وجد منـذ أن أصبح للناس وطن ومستقر يتعلقون به ويؤثرونه على سواء ، ولله در ابن الرومى القائل :

وحبب اوطان الرجال اليهـم　　　مآرب قضاها الشباب هنالـك
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهـم　　　عهود الصبا فيها فحنوا لذلك

وقد أثر عن العرب فى مطولاتهم وقصائدهم .. أنهم كانـوا يطيلون الوقوف على الأطلال . ويذكر امرؤ القيس ، اسم أول شاعر اشتهر بوقوفه على الديار ، فيقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا　　　نبكى الديار كما بكى ابن خزام

وقد قدم بعض النقاد أمرأ القيس على شعراء عصره ، لأنه « أول من لطف المعانى ، واستوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبيض ، الخ » والشاعر ، وهو أكثر الناس رهافة

حس ، ودقة شعور ، يؤلمه أن يجد دياره دارسة ، ومواطن هواه ، ومراتع صباه أطلالا ، فيبكيها ، ويحن اليها اذا ما ارتحل عنها ٠ وما أكثر الشعراء الذين اضطرتهم الظروف الى الرحيل عن الديار كرحيل شاعرنا حازم مضطرا ، فحنوا وأنوا ، وفاض أنينهم شعرا يستدر دموع الخلي ٠ وقد ذكر حازم في مقصورته عددا من هؤلاء الشعراء الذين فارقوا الديار فبكوا بعيون الشعر السخية ، من هؤلاء ابن مضاض الجرهمي الذي قال :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

كما كابد بلال مؤذن الرسول الشوق الى مجنة وشامة فأنشد :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي اذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة ، وطفيل

وأبو قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة بن معيط الذي نفاه ابن الزبير عن المدينة عند استيلائه عليها ، فنظم ألحانا باكية يحن فيها الى المدينة ، مما دعا ابن الزبير الى الصفح عنه والسماح له بالعودة ، من ذلك قوله :

اذا برقت نحو الحجاز سحابة ... دعا الشوق مني برقها المتيامن
فلم أتركها رغبة عن بلادها ... ولكنه ما قدر الله ـ كائن
أحن الى تلك الوجوه صبابة ... كأني أسير في السلاسل راهن

وغير هؤلاء كجميل بن معمر الذي حن الى وادي القرى ، وأبي دهبل الجمحي الذي حن الى وطنه دمشق بعد أن أغوته امرأة من جيرون ، فتزوجها وأقام عندها حولا ، ثم رحل عنها الى دمشق مقر أهله وموطن زوجته وأولاده ، ويحيى بن طالب الحنفي الذي رحل عن اليمامة الى بغداد هاربا من ديونه التي ورطه فيها كرمه ،

وفى بغداد أخذ يصعد أنفاسه الحارة ، ويرسل بقصائده التى تعبر عما يكنه فى نفسه من شوق وحنين ، من ذلك قوله :

أقول لموسى ، والدموع كأنها   جداول ماء فى حدائقها تجرى
ألا هل لشيخ وابن ستين حجة   بكى طربا نحو اليمامة من عذر
كأن فؤادى .. كما مر راكب   جناح غراب رام نهضا الى وكر

فاذا ما أصاب الديار ضر ، وحل بها الدمار ، والخراب الذى حل بالمدن الأندلسية ، وجدنا الحنين والأنين ، يمتزج بالرثاء ، والبكاء ، مثلما حدث فى الأندلس . وقد سبق المشارقة الأندلسيين الى ذلك ، لأن الظروف أو بعض الظروف دعتهم الى ذلك .. من هذا الدمار الذى أصاب البصرة على أيدى الثائرين من الزنج سنة ٢٥٧ هـ فدفع ابن الرومى الى رثائها بقصيدة طويلة وصف فيها حال المدينة وأهلها قبل مداهمتهم لها ، ثم أبدع فى وصف ما اعتراهم من ذعر وخوف ، وما أصاب المدينة من دمار وخراب ، مازجا بين الوصف المباشر ، واحساسه الخاص ، فهو كلما تذكرها زاد تألمه وتوجعه ، ومن أبياتها قوله :

بينما أهلها بأحسن حال   اذ رماهم عبيده باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليل   اذا راح مدلهم الظلام
أى هول رأوا بهم أى هول ؟   حق منه يشيب راس الغلام
اذ رموهم بنارهم من يمين   وشمال وخلفهم ، وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب   كم اغصوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجى   فتلقوا جبينه بالحمام

وابن الرومى الشاعر القدير يستعين فى رسم لوحته الدامية لما حل بالبصرة ، بالصور الجزئية المثيرة ، فالأب يرى أعز بنيه

يقتل أمامه ، والأخ يرى أخاه متشحطا فى دمه ، ولا يستطيع عنه الدفاع ، والفتاة البكر تفتضح ، وما أروع قوله فى تصوير ذلك :

كم فتاة بخاتم الله بكــــر فضحوها جهرا بغير اكتتام

والسيدات المصونات ممن كن يتخذن الاماء ، والعبيد ، صرن عبيدا ، واماء ، يسقن « داميات الوجوه والأقدام ٠٠ » ومن هول ما أصاب المدينة أحس الناس كأن اليوم الذى حلت فيه كل تلك المآسى ـ ألف عام :

صبحوهم فكابد القوم منهـــم طول يــوم كأنه ألف عــــام

والشاعر يبثنا شعوره واحساسه ، فيقول فى صدر القصيدة :

ذاد عن مقلتى لذيذ المنــــام شغلها عنه بالدموع السجــام
أى نوممن بعد ما حل بالبصرة ما حل من هنــــات عظــــام
أى نوم من بعد ما انتهك الزنج جهارا محــــارم الاســـلام
ان هذا من الأمــــور لأمــــر كاد الا يقوم فى الأوهــــام

كما يكرر ابن الرومى شعوره بالأسى فى موضع آخــــر من القصيدة فيقول :

ما تذكرت ما أتى الــــزنج الا أضرم القلب أيمــــا اضرام
ما تذكـــرت ما أتى الزنج الا أوجعتنى مرارة الارغــــام

وحزن ابن الرومى الصادق دفعه الى تكرار عبارات بعينها ، كقوله السابق : ما تذكرت ما أتى الزنج الا ٠٠ وقوله : أى هول رأوا بهم أى هول ؟ وتكراره الاستفهام « بكم » قرابة تسع مرات فى أبيات متصلة ، وكذلك تكراره الاستفهام بمن ؟ من رآهن فى المساق سبايا ؟ من رآهن فى المقاسم وسط الزنج ؟

ولم ينفرد ابن الرومى بذلك ، فلقد أشار الى ما فعله الزنج بمدينة البصرة وغيرها شاعر آخر جهير هو ابن المعتز فى مقصورته التى مدح بها الخليفة المعتضد ، بل يسلك مسلك ابن الرومى أو يسلك ابن الرومى مسلكه ، فلقد كانا متعاصرين شـاهدين على ما حل بالبصرة من دمار فيصف العلوى ٠٠ البائــع الأحرار فى الأسواق ٠٠ وقاتل الشيوخ والأطفال ٠٠ والذى « يلعن أصحاب النبى المهتدى الا قليلا عصبة لم تزدد ، والذى وعد السودان بفتح بغداد ، وادعى علم الغيب ، وقد تبعه رهط من الجهلة ، فخرب بهم الأهواز والأبلة وواسطا ، وأحرق البصرة ، وقتل ومثل بالأسرى فأحرق البعض ، وألقى البعض من حالق ، وهـــزم القائد موسى ومفلحا ، وقتل منصور بن جعفر ، وهكذا :

حتى اذا ما أسخـط الالـــه	وبلغت فتنته مداهــــــــا
وشكت الأرض الى السماء	ما فوقهــا من كثرة الدمـــا
أغــرى به الله هزيرا ضيغما	اذا رأى أقرانه تقدمــــــا

فقتله هذا الأسد واحتز رأس هذا العلوى الثائر ٠

ولم يــكن ذلك أول ما رثيت به المدن والممالك ، فقــد بكى أبو العباس الأعمى ، الدولة الأموية التى سقطت سنة ١٣٢ هـ ٠ كما بكى أشجع ، وسلم الخاسر ، والرقاشى ؛ البرامكة بعد أن نكبهم هارون الرشيد ٠ وقد بكيت بغداد مرتين : مرة يوم أن أحرقها ابن طاهر قائد المأمون فى أثناء حصاره لأخيه ، ومرة أخرى حين أحرقها هولاكو ٠ كما أن البحترى قد رثى ايوان كسرى الذى يرمز الى زوال دولة الأكاسرة بعد ما كان لها من عز وسلطان ٠ وحين سقط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين عام ٤٩٢ هـ بكاه عدد من

الشعراء . ورثى عمارة اليمنى الدولة الفاطمية وهو فى سجن صلاح الدين .

ولما أفل ملك الطولونيين والمماليك وجدنا من رثاهم كابن اياس فالأمر اذن ليس كما قال الدكتور أبو الخشب : من أن رثاء الممالك والمدن فى المشرق .. لم يكن من الكثرة الى حد أن يكون غرضا من الأغراض التى يهتم بها الشعراء ليجعلوها بابا من الأبواب .. بخلاف ما كان فى الأندلس .. وسنعرض أكثر من قصيدة فى رثاء بغداد ، وان كنا نوافق الدكتور أبو الخشب على أن رثاء المدن والدول الزائلة فى المشرق أقل ، لأن العداء والانقسام فى المشرق كان بين عرب وعرب ، أو مسلمين ومسلمين ، فليس له تأثير ما يكون بين مسلم ، وغير مسلم ، اذ فى الثانى قضاء على حضارة عربية ودين اسلامى مع ما يصحب ذلك من قتل ، وأسر ، وطرد ، كما أن مدن الأندلس كثيرة ، وقد قضت ردحا طويلا من الزمن تصارع هذا الطغيان الوافد ، فاذا ما استسلمت مدينة قاومت أخرى باصرار ، وكان لسقوط المدينة منها وقع أليم على نفوس الشعراء والأدباء ، وعامة المسلمين ، مما جعل الشعراء يرثون مدنهم بمراث باكية تفوق مارثى به شعراء المشرق البصرة أو بغداد .

وفى سنة ٦٥٦ هـ قتل هولاكو الخليفة العباسى المستعصم ببغداد ، ذلك أن الوزير العلقمى ، وقد كان رافضيا ، كاتب التتار سرا ومهد لهم الاستيلاء على بغداد ، ظنا منه أنه سيتولى شئونها عند ذلك .. فدخل هولاكو بغداد بعد أن بلغ عدد القتلى ألف ألف وثمانمائة ألف .

ومن مراثى الشعراء فيها قصيدة تقى الدين بن أبى اليسر وهى :

لسائل الدمع عن بغداد أخبار فما وقوفك،والأحباب قد ساروا
يازائرين الى الزوراء لا تغدوا فما بذاك الحمى ، والدار ديار
تاج الخلافة والربع الذى شرفت به المعـالم قد عفـاه اقفار
أضحى لعطف البلى فى ربعه أثر وللدموع على الآثار آثـار
يانار قلبى من نار لحرب وغى شبت عليه،ووافى الربع اعصار
علا الصليب على أعلى منابرهـا وقام بالأمر من يحويه زنـار
وكم حريم سبته الترك غاصبة وكان من دون ذاك الستر استار
وكم بدور على البدرية انخسفت ولم يعد لبدور منه ابدار
وكم ذخائر أضحت،وهى شائعة من النهاب وقد حازته كفـار
وكم حدود أقيمت من سيوفهم على الرقاب وحطت فيه أوزار
ناديت،والسبى مهتوك ،تجرهم الى السفاح من الأعداء ذعـار

وبالرغم من أن القصيدة لم ترد كاملة كما يدل على ذلك البيت الأخير منها ، وبالرغم من أنها ليست من النمط العالى من الشعر ، فلا ترقى الى رثاء ابن الرومى للبصرة ، أو رثاء الشاعر المجهول لبغداد ، الا أنها تكشف عما أصاب بغداد من هؤلاء التتار الذين انتهكوا الحرمات ، وروعوا الأطفال ، والنساء ، وسفكوا الدماء ، وهى تتفق فى ذلك مع قصيدة ابن الرومى ، فالزنج قد عرضوا البصرة ـ مدفوعين بدافع الحقد الطبقى ، والظلم الاجتماعى ، الذى تعرضوا له على أيدى السادة الأثرياء ـ للسلب والنهب ، وسفك الدماء ، وهتك الأعراض ، وكذلك فعل التتار الذين يخالفون أهل تلك البلاد المغزوة فى العقيدة ، والجنس • ولكن يبدو أن الحرب بين الأمين والمأمون خلت من هتك الأعراض ، وان كثر فيها القتل ، والأسر والنهب ، كما قد بيع بعض الأسرى رقيقا فى سوق النخاسة ، يؤكد ذلك قول الشاعر فى ختام قصيدته :

ومهما أنس من شيء تولى فانى ذاكر دار الرقيـــق

هذا ما كان من أمر سقوط المدن ، وزوال الدول فى المشرق العربى ٠٠ أما فى الأندلس فالأمر أشد وأنكى ٠٠ فبجانب الصراع بين تلك الدويلات المنقسمة المتقاتلة ، هناك العدو الشرس ، الحاقد، المتربص ، بهذا الكيان الذى يراه غريبا فى جسده الأوربى المسيحى. يعدو عليه كلما سنحت له فرصة ، فيقتطع منه الجزء بعد الجزء ، الى أن التهم الكيان العربى كله فى الأندلس ، ولقد كان الشعراء على بصيرة بما سيئول اليه أمر بلادهم الأندلسية ، والشـــعراء لا يملكون من السلطة سوى الكلمات يزجـــونها ، والنصـــائح والتحذيرات يوجهونها ، وتلك التأوهات التى يصعدونها على كل بلد يسقط ، أو دويلة تقع فى براثن الأعداء ٠٠ ، فعندما اسـترد الافرنج مدينة طليطلة من يد ابن ذى النـــون سنة ٤٧٥ هـ قال الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبى محذرا :

يا أهل اندلس حثوا مطيكـــم فما المقام بها الا من الغلـــط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسلا من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنـــــا كيف الحياة مع الحيات فى سفط

ولكن المسلمين ظلوا فى ترفهم ، ولهوهم ، منغمسين فى ملاهى الحياة ومتعها ، والحكام يتصارعون فيما بينهم ، ويتقاتلون ، بل وكثيرا ما يستعينون بالعدو الذى يضمر لهم كل شر ـ كما سبق أن أشرنا الى ذلك ٠ والشعراء قد رثوا تلك المدن ، والدويلات التى أخذت تتساقط ، سواء انتقلت من يد مسلم الى يد مسلم آخر ، عربيا كان أم غير عربى ٠٠ وســـنرى أن شعرهم الذى يصـــور ما يصيب المدن الاسلامية على يد النصارى أكثر لوعة وأسى ، لأن هذا العدو الحاقد لم يكن يعفو ، أو يرحم ، بل كثيرا ما كانت

تتردد فى المعركة أصوات الرهبان ، تدعو الجيش النصرانى الى القتل ، والابادة ، وتحذرهم من الابقاء على حياة أسرى المسلمين ٠

فمن النوع الأول رثاء مدينة الزهراء التى أنشأها الخليفة عبد الرحمن الناصر ، واتخذها مقر ملكه وأنشأ فيها المبانى ، والقصور ، والبساتين ، واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الغناء ، ومسارح للطيور ، مظللة بالشباك ، واتخذ فيها دارا لصناعة السلاح والحلى للزينة وغير ذلك من المهن ٠٠ فلقد وقف عليها السميسر الشاعر بعد أن تهدمت وزال ما فيها من رواء وجمال فقال :

وقفت بالزهراء مستعبرا معتبرا أندب أشتاتا
فقلت يا زهرا الا فارجعى قالت وهل يرجع من ماتا
فلم أزل ابكى ، وأبكى بها هيهات يغنى الدهر هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى نوادب يندبن أمواتا

فالسميسر هنا حزين شجى النفس يخاطب الزهراء فى ألم ، وحسرة ، مستمدا مما يرى العظة والعبرة ، فالحياة الى فناء ، ومن مضى فلا أمل فى رجوعه ، ولكنه لا يحرض ولا يستثير ٠ ومثل أبيات السميسر تلك الأبيات التى رثى بها ابن حزم قرطبة ٠٠ تلك المدينة التى كانت موطن والده وزير المنصور بن أبى عامر قبل أن يرتحل منها الى مدينة الزاهرة ٠٠ والتى تلقى فيها أبو محمد على ابن أحمد بن سعيد بن حزم العلم والأدب ، وقد تعرض للسجن من جراء تعصبه للدولة الأموية المنقرضة ، كما أحرق المعتمد بن عباد كتبه ، وقد كانت قرطبة قبل ذلك عاصمة الدولة الأموية ، لقد رثاها ابن حزم حين فر عنها البرابر الذين يدافعون عنها فتعرضت للخراب والدمار ـ نثرا كما رثاها شعرا ، فمن نثره الشعرى قوله :

وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباض

القريبة ، ومنازل البرابر ، المستباحة عند معاودة قرطبة ، فرأيتها قد محيت رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى فصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافى موحشة بعد الأنس ، وآكاما مشوهة بعد الحسن ، وخرائب مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذباب ، وملاعب للجان ، ومغانى للغيلان، ومكامن للوحوش، ومخابىء للصوص ، بعد طول غنيانها برجال كالسيوف ، وفرسان كالليوث ، تفيض لديهم النعم الفاشية ، وتغص منهم بكثرة القطن الحاشية ، حال الدهر عليهم بعد طول النضرة فبدد شملهم حتى ساروا فى البلاد أيادى سبا ... الخ .. وبعد أن يصف ما حـل بها من دمار ، يورد قصيدته التى نظمها فى رثائها والتى أولها :

سلام على دار رحلنا ،وغودرت خلاء من الأهلين موحشة قفــرا
تراها كأن لم تغن بالأمس بلقعا ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا
فيادار لم يقفرك منا اختيارنا ولو أننا نسطيع كنت لنا قبرا

وفى القصيدة حسرة ، واستسلام لما قضت به المقادير ؛ ودعاء للديار بالسقيا ؛ وذكر لماضيها الجميل :

ويا مجتلى تلك البساتين حفها رياض قوارير غدت بعدنا غبرا

ويدعو نفسه الى الصبر فقد يعقب اليسر العسر : « لعل جميل الصبر يعقبنا يسرا » وقد بلغ به الأسى مبلغا عظيما حتى أنه لا يرى فى عودة مجدها الدائر ، ما يزيل هموم نفسه ، وكيف تشفى تلك الآلام ، وهو يعلم أن أترابه الذين كانوا بها ؛ وضمتهم القبور لن يعودوا مرة ثانية :

وانى ، ولو عادت وعدنا لعهدها فكيف بمن من اهلها سكن القبرا

وينهيها بقوله :

سأندب ذاك العهد ما قامت الخضرا
على الناس سقفا واستقلت بنا الغبرا

ولا أدرى كيف غفل « غارسيا غومس » عما فى هذه القصيدة وأضرابها من قصائد رثاء المدن الزائلة ٠٠ من شعور دافق ، ونبض عميق ، وتأثير آسر ينساب فى ليونة ورقة الى النفس ناقلا اليها تجربته الأليمة ٠٠ لقد قال غومس عن تلك القصائد ما فحواه : انه بالرغم من شهرتها الواسعة فالكثير منها بعيد عن الاحساس الانسانى « كرائية ابن عبدون التى هى سلسلة طويلة من الأبيات تدور حول معنى « أين الأولى » ومثلها قصيدة أبى البقاء الرندى التى هى أقل منها قيمة بلاغية شاعرية ، ولكن نصيبها من صدق الاحساس أعظم ٠٠ » ويعجب غومس شعر المعتمد الذى نظمه عن نفسه ، وما أصاب حاله فى منفاه « أغمات » ٠ ولابن شهيد مرثية أيضا لقرطبة تلك العاصمة المتحضرة التى استباحها « المستعين الأموى وجنده القشتاليون وبعض البربر ، بعد أن تغلب على خصمه محمد بن هشام الأموى الملقب بالمهدى ٠٠ فخربت المدينة وفر الكثيرون من أهلها وحلها الدمار وذلك فى السنوات من سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م الى سنة ٤٠٧ هـ سنة ١٠١٦ م ، اذ تنازعها محمد بن هشام وسليمان المستعين خلال تلك الفترة ٠٠ » لقد رثاها ابن شهيد بقصيدة طويلة رائعة فصور تفرق أهلها وتشتتهم فى مختلف الحواضر العربية :

جار الزمان عليهم فتفرقوا ... فى كل ناحية ، وباد الأكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم ... وعليهم فتغيرت وتغيروا
دار أقال الله عثرة أهلها ... فتبربروا ، وتغربوا وتمصروا

لقد كانوا يعيشـون فى مأمن من صروف الليـالى .. يتساقون كئوس السعادة والنعيم :

والقوم قد أمنـوا تغير حسنها فتعمموا بجمالهـا ، وتأزروا
يا طيبهمبقصورها ، وخدورها وبدورها بقصـورها تتخدر

لقد شوه الخارجون معالم ما فى المدينة من حضارة ، فخربوا قصر بنى أمية ، والعامرية ، والزاهرية اللتين أنشأهما المنصور بن أبى عامر ، وخلت أسواقها ، ومساجدها ، وحال فيها كل شىء الى غير حاله :

والقصر قصر بنى امية وافـر من كل أمر ، والخلافة أوفـر
والزاهرية بالمراكب تزهـر والعامرية بالكواكب تعمـر
والجامع الأعلى يغص بكل من يتلو ، ويسمع من يشاء وينظر
ومسالك الأسواق تشهد أنهـا لا يستقل بسـالكيها المحشر
يا جنة عصفت بها ، وبأهلها ريح النوى فتدمرت وتدمروا
آسى عليك من الممات وحق لى اذ لم نزل بك فى حياتك نفخر
كانت عراصك للميمم مكـة يأوى اليها الخـائفون فينصروا

ان قصيدة ابن شهيد لتضاف فى روعتها الى قصيدة ابن حزم السابقة ، لتكونا معا سيمفونية حزينة رائعة .. تشهـد على أن الشعر الأندلسى لم يقصر فى رثاء تلك المدن والممالك ، فلقد نقل إلينا ابن شهيد لوحة حية لجمال قرطبة وتحضرها .. كما رسم لوحة أخرى موازية للأولى ، لما طرأ عليها وحل بها فى عهود الفتنـة والصراع بين المتطلعين الى السلطة .

ومن هذا القبيل قصيدة ابن عبدون التى حازت شهرة واسعة فشرحها ابن بدرون ، وقال عنها عبد الواحد المراكشى وهو بنى

المظفر الذين قيلت فيهم : « كانت أيام بنى المظفر بمغرب الأندلس أعيادا ومواسم ، وكانوا ملجأ لأهل الآداب ، وفيهم يقول الوزير ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون قصيدته الغراء ، لابل عقيلته العذراء التى أزرت على الشعر ، وزادت على السحر .. » .
وهى القصيدة التى يصمها غارسيا بالبعد عن الاحساس الانسانى ، ولنورد عبارته فانها أدل على رأيه ، يقول غومس : « أما القصيدة الأولى (رائية ابن عبدون) فلا نعرف شعرا هو أبعد عن الاحساس الانسانى منها ، اذ أنها سلسلة طويلة من الأبيات تدور حول معنى « اين الأولى » يعدد ابن عبدون فيها مصائب التاريخ البشرى فى أسلوب خال من حرارة الاحساس الصحيح ، وهو لا يرمى من وراء هذا السرد الا الى اظهار مدى علمه » . هذا ما قاله غومس عنها ، فهل حقا ما قاله ؟ .. وهل هى تخلو من حرارة الاحساس ونبض الوجدان ؟ .. ربما نوافقه فى أن ابن عبدون قد أسرف فى ذكر أحداث التاريخ وكان يمكنه الاكتفاء بذكر بعض هذه الأحداث دون اطالة ، فلقد أسرف فى ذلك ، فذكر دارا وكسرى ، كما ذكر يونان وساسان ، وكسرى أبرويز ويزدجرد . ورستما ، ومن القبائل العربية ذكر ما حل بطسم وعاد ، ومملكة سبأ ، وكليب ومهلهل وامرىء القيس ، وحجر ، وذبيان ، وعبس ؛ وعدى والنعمان وغيرهم ، ومن أحداث صدر الاسلام ذكر بدرا ، والحمزة ، وجعفر الطيار . ومن أحداث الأندلس ذكر ما حل بالمأمون ؛ والمؤتمن والمنصور ، وآل عباد . وينتقل بعد ذلك الى رثاء بنى الأفطس .. والذى يجعلنا نغتفر له ذلك هو أن ذكر الأحداث للعبرة والاتعاظ أسلوب عربى سبقه اليه عدى ابن زيد العبادى ، اذ يقول من قصيدة له :

أيهـا الشـامت المعير بالدهـر
أأنـت المـبرأ الموفـور

من رأيت المنـون خلـدن أم من
ذا عليـه من أن يضـام خفير

أين كسرى ، كسرى الملوك أنوشروان
أم أيـن قبـله سـابور

والنكبات الكبيرة تحتاج الى ذكر مثل هذه الأحداث والملمات ، للتأسى بأن ما حدث له شبيه ونظير ، وتلك سنة الحياة ، ولا شك أن العربى الحزين الأسى ، كان يجد فى ذكـر هذه العبر سلوى ، وتعزية لا يشعر بها انسان يعيش فى عصر غير ذلك العصر الذى حلت فيه هذه الكارثة ، وبين قوم غير قومه ، وجنس غير جنسه . كما أننا لا نلوم الشاعر فى استعراض قدراته الثقافية . فالشعراء دائما .. يعرضون على الناس مدى ما لديهم من ثقـافة ، كمـا يعرضون عليهم ما يملكونه من مطارف الألفاظ ، والصور المعبرة ، كان يفعل ذلك أبو العلاء ... كما فعله ابن زيدون فى رسالتيه الجدية والهزلية ، وكما يفعله اليوت اليوم فى قصائده التى يضمنها أبياتا بلغات مختلفة ، ورموزا أشبه بالطلاسم التى لا يدرك فحواها سوى خاصة الخاصة من المثقفين .

ونحن لا نؤيد جارسـيا غومس فى أن القصـيدة تخلو من الاحساس ، فمقدمة القصيدة افتتاحيـة حزينة باكية .. يحذرنا فيها الشاعر من الاستنامة لمناعم الحياة ، والغفلة عن تدابير الدهر الذى يعد لنا حبائله :

الدهـر يفجـع بعد العـين بالأثر
فما البكاء على الأشباح والصـور

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة
عن نومة بين ناب الليث ، والظفر

اننا ننام بين أنياب الليث وأظفاره ، فما أقساها من نومة لا تطبق لنا فيها أجفان :

فالدهر حرب ، وان أبدى مسالمة
والبيض والسمر مثل البيض والسمر

ويكرر التحذير من الدنيا فيقول :

فلا تغرنك من دنياك نومتها
فما صناعة عينيها سوى السهر

وهو يرى أن ما أصاب بنى الأفطس من كوارث – قد أصابه هو فى الصميم أيضا ، فيقول :

ما لليالى أقال الله عثرتنا
من الليالى وخانتها يد الغير

فى كل حين لها فى كل جارحة
منا جراح وان زاغت عن النظر

وما أروع تصويره للحياة ومباهجها ، وما تخفيه طياتها من آلام ، بالزهر الذى تكمن فيه الحيات :

تسر بالشىء لكن كى تغر به
كالأيم ثار الى الجانى من الزهر

ويظهر شعوره واحساسه أيضا بعد أن يسرد الأحداث والعبر ، ويأخذ فى رثاء دولة بنى الأفطس ، بل انه يندبهم ويثنى على أمجادهم ، ويدعو على اليوم الذى نكبوا فيه بألا يعود ولا يتكرر :

سحقا ليومكم يومـــا ، ولا حملت
بمثله ليلة فى غابـــر العمـــر

مـن للأسرة أو من اللأعنـــــة أو
من للأســـنة يهديهـــا الى الثغـر

ان هذا الترصيع الداخلى لم يرد للزينة الشكلية ، وانما هو موسيقى نادبة تصاحب الألحان ، التى يندبهم بهـا ، وهو يكرر « من لى » ؟ فى صدر أكثر من بيت ، مما يوحى بمدى تأثره ٠٠ وحزنه ، وتكرار « من لى » قريب الشبه بالعبارات التى يرددها الثكالى فى عصرنا ساعة الندب والعويل :

من لى ، ولا من لهم ان أظلمت نوب
ولم يكن ليلها يفضى الى سحـــر

من لى ، ولا من لهم ان اطبقت محن
ولم يكن وردها يدعو الى صـــدر

من لى ، ولا من لهم ان عطلت سنن
واخفيت الســـن الآثـار والســير

بل يهيب بالموالين لدولة بنى الأفطس أن يهبوا ، ويثأروا ، فيقول :

ويـل أمه مـن طلوب الثـأر مدركه
منهم باسد سراة فى الوغى صـبر

ان هؤلاء المستشرقين رغم ما قدموه لنا من مناهج علمية قيمة نستهدى بها فى طرائق البحث ، كثيرا ما نراهم يعجزون عن الغوص الى أسرار ما فى بعض القصائد العربية من جمال ٠٠ ونرى أنه

من واجب الباحث العربى أن يعيد النظر فى الكثير من هذه النظرات التذوقية التى أصدروا فيها أحكامهم ·· فالمراثى كثيرة فى هذا اللون كرثاء ابن اللبانة لدولة بنى عباد ، وقصائد ابن المعتمد بعد نفيه ، وغير ذلك · فاذا تركنا هذا اللون من رثاء المدن ·· الى اللون الثانى منه ، وهو رثاء المدن أو الممالك التى تتساقط فى أيدى الأعداء الأسبانيين ممن يختلفون عن أهل البلاد الأندلسية من العرب والمسلمين فى الجنس والعقيدة ·· وجدنا صوت الشعر أعلى وأقوى ، والقصائد التى قيلت فيه أغزر ، كما نجده مغايرا بعض المغايرة للون الأول ، فهو ثائر صاخب ، يكثر فيه النشيج والعويل ، وترتفع من حناياه أصوات الندب والاستغاثة ، والتحريض على الثأر والانتقام ، والدعوة الى توحد المسلمين ، ونبذ الخلاف وأسباب الفرقة ··· كما يلجأ الشعراء الى الاثارة بذكر المحارم والأعراض وما تتعرض له من انتهاك ، وذكر الملة الاسلامية وما أصابها ، والمحاريب ، والمساجد ، وما نالها من مسخ وتغيير ، يقول المقرى :
« ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى ـ على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثأر بالنظم والنثر فلم ينفعهم ذلك حتى اتسع الخرق ، وأعضل الداء أهل الغرب والشرق »·
ونجد عددا من قصائد هذا النوع مجهولة القائل ، وهو دليل على كثرة الشعر الذى قيل فيه ، بل ان من هذه القصائد قصائد رائعة حقا كهذه الهمزية التى نسبها المقرى الى بعضهم ، فقال :
« ومن القصائد الموجهة فى ذلك قول بعضهم لما أخذت بلنسية يخاطب أبا زكرياء بن عبد الواحد بن أبى حفص » ثم يورد القصيدة التى تقع فى تسعين بيتا ، والقصيدة تصور هلع أهل بلنسية التى سقطت فى أيدى الأعداء سنة ٦٣٦ هـ ، ولم يدع الشاعر مصدرا للاثارة الا استغله ، فهو يذكر الخليفة الحفصى بأن بلنسية قد

بايعته ، وهى فى حاجة الى بعض عطفه ليبقى على حياتها ويتذلل له فيقول :

وبهـا عبيدك لا بقاء لهـم ســوى
سبل الضراعـة يسلكون ســواءها

خلعت قلوبهــم هنـاك عـــزاءها
لما رات أبصـــارهم ما ســـاءها

ويصفه بالمولى الرحيم ، طالبا منه أن يريش جناح الأندلس العـارى :

رش ايهـا المولى الرحيم جناحهـــا
واعقد بأرشية النجاة رشـــــاءها

ويدعوه الى نصرة الدين المهدد بالعفاء فى تلك البقاع ، بطائفة الهدى من الموحدين ، وهو لا ينسى أن يذكر ما كان فيها من مدارس قد أصبحت أطلالا ، ومصانع صارت خرابا .. وكيف استطاع أهل النار أن يستولوا على جنة بلنسية الوارفة :

كيف السبيل الى احتــلال معـــاهد
شب الأعاجم دونهـــا هيجــــاءها

والى ربا وأباطـــح لم تعـــر مـــن
حلل الربيع مصيفهـــا وشـــــتاءها

بابى مدارس كالطلـــول دوارس
نســـخت نواقيس الصليب نداءها

ومصـــانع كف الضـــلال صباحها
فيخـــاله الرائى اليــــه مســاءها

عجبا لأهل النـــار حلواجنـــــة
منها تمد عليهـــم أفيـــــاءها

ثم يهتف به قائلا :

جرد ظباك لمحو آثار العـــدى تقتل ضراغمها وتسب ظباءهـا
هبوا لها يا معشر التوحيد قد آن الهبوب ، وأحرزوا علياءها
خوضوا اليها بحرها يصبح لكم رهوا وجوبوا نحوها بيداءها

فهو المؤيد للحق ، أو المخلص المنتظر :

لا يعدم الزمن انتصار مؤيـــد تتســـوغ الدنيـــا به سراءها

ولم تحظ مدينة بما حظيت به بلنسية من رثاء ، ذلك أنهـا قد حظيت بعدد كبير من الشعراء والأدبـــاء ٠٠ ومن الأدباء الذين أحبوها حبا استبد بكيانهم : أبو المطرف بن عميرة ، المولود بجزيرة شقر سنة ٥٨٠ هـ والمتوفى بتونس سنة ٦٥٨ هـ ـ الذى رثى مدينته العزيزة شعرا ونثرا ، وما أروع حنينه وتفجعه على أيـــامه الذواهب فى القصيدة التى بعث بها الى صديقه ابن الأبار ، والتى يقول فيها :

ألا ليت شعرى ٠ والأماني ضلة وقولى الا ياليت شعرى ـ تحير
هل النهر عقد للجزيرة٠٠مثلما عهدنا،وهل حصباؤهوهى جوهر
وهل للصبا ذيل عليه تجـره فيزور عنه موجـه المتكسر
وتلك المغانى هل عليها طلاوة بما راقمنها، أو بما رق تسحر
ملاعب أفراس الصبابة والصبا نروح اليها تـــارة ونبكـر
وقبلى ذاك النهر كانت معاهد بها العيش مطلول الخميلة أخضر
بحيث بياض الصبح أزرارجيبه تطيب ، وأردان النسيم تعطر
ليال بماء الورد ينضح ثوبهـا وطيب هواء فيه مسك وعنبر

وبعد أن يسرد ذكرياته فى أسلوب رقيق ، وتصوير أنيق مستمد من جمال الطبيعة الأندلسية ، ينهى القصيدة بذكر ما حل بها ، ففرق القطين ، وشتت الأهل والأحباب :

كذاك الى أن صاح بالقوم صائح   وأنـذر بالبين المشتت منـذر

وفرقهم أيدى سبا ، وأصابهم   على غرة منهم قضاء مقـدر

ومن الذين رثوها نثرا وشعرا ، ابن الأبار ، فمن رسالة له ، يجيب بها على رسالة ابن عميرة السابقة ، يرثى فيها بلنسية وتدمير ، وقرطبة ، وسواها من المدن الأندلسية التى صارت فى أيدى الأعداء ٠٠ يقول ابن الأبار : « أين بلنسية ومغانيها ، وأغاريد ورقها ، وأغانيها ، أين حلى رصافتها وجسرها ، وأين أفياؤها تندى غضارة ، وركاؤها تبدو من خضارة ، ثم لم يلبث دار عقرها أن دب الى جزيرة شقرها ، فأمر عذبها النمير ، وذوى غصنها النضير ٠

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر بن الآبار القضاعى السالف الذكر هو الذى انتدبه زيان بن مردنيش حاكم بلنسية حين داهمه النصارى سنة ست وثلاثين وستمائة للاستغاثة بالمولى أبى زكرياء يحيى بن محمد بن عبد الواحد الحفصى سلطان تونس على رأس وفد ، حيث أنشده سينيته الرائعة التى مطلعها :

أدرك بخيلك، خيل الله أندلسا   ان السبيل الى منجاتها درسا

فكان لها أثرها فى نفس أبى زكرياء مما جعله يرسل لابن مردنيش بمعونات عاجلة ، يظهر أنها لم تستطع الوصول اليه ٠٠ أو وصلت بعد سقوط المدينة ، كما كان لهذه القصيدة أثرها فى الأوساط الأدبية التونسية ، فاحتدم حولها النقاش ، وتعصب عليها ناس وتعصب لها ناس من الشعراء والأدباء ، فكان ممن دافعوا عنها

الأديب التونسي ابراهيم التجاني الذي ألف في الدفاع عنها كتابا مستقلا أسماه « مؤازرة الوافد ، ومبارزة الناقد في الانتصار لابن الأبار .. » . كما دعا السلطان عددا من شعرائه الى مجاوبة هذه القصيدة فجاوبها غير واحد ؛ والشاعر يبدأ القصيدة بطلب العون مستصرخا السلطان يحيى بن عبد الواحد ؛ ثم يأخذ في شرح حال الأندلس عامة ، وما أصاب بلنسية وقرطبة وغيرهما خاصة :

تقاسم الروم لا نالت مقـــاسمهم
الا عقائلها المحجـــوبة الأنســـا

وفي بلنسية منهـــا ، وقـــرطبة
ما ينسف النفس أو ما ينزف النفســا

وهو يذكر حالها قبل أن يجتاحها الأعداء : فمساجدها كانت عامرة ، وكنائسها مسارح للظباء ، ودور العلم فيها تغص بطـلاب المعرفة : « مدارسا للمثاني أصبحت درسا »

وأربعا نمنمت أيدي الربيع لها — ما شئت من خلع موشية وكسا
كانت حدائق للأحداق مونعـة — فصوح النضر من أدواحها وعسا

ثم يعاود الاهابة بالسلطان لانقاذ المدينة ، مازجا ذلك بمدحه بما يحب ، فهو من أحيا دعوة المهدي ، ومن دان له الملوك ، وأمته الوفود ، والشاعر يبالغ في مدحه كثيرا ، فالسلطان يحيى « لورمى نجما لأثبته ، ولودعا الأفق للامطار لأمطر » وتراب أرضه قـدس طاهر ، وينتمي الى الملائكة والى الملوك معا :

وينهيها بقوله :

فاملأ هنيئا لك التأييد ساحتها جردا سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعدا للفتح تضربه لعل يوم الأعادى قد اتى وعسى

ومن الشعراء الذين لم يذكر أسماءهم التاريخ صاحب هذه القصيدة الطويلة التى تربو على ثلاثة وستين بيتا ، وهى تلك الرائية التى رثيت بها طليطلة ، المدينة العظيمة ، التى سقطت فى أيدى النصارى سنة ٤٩٦ هـ ، والقصيدة رغم أنها تخلو من رصانة الشعر العالى ، وحسن تصويره ، معتمدة على تسجيل الواقع بأسلوب بسيط شبه عادى ، الا أنها سجل لحال الأندلس أثناء تلك الكوارث المبيرة ، يبدؤها الشاعر بما فحواه : أن الثغور أصبحت عاجزة عن الابتسام حتى ثغور من لم يصابوا ، حزنا على اخوانهم فى العقيدة ، والدين الذين ذلوا ، وهانوا ، والمدينة « تفضل فى جمالها ، وبهائها ، ايوان كسرى ، والخورنق ، والسدير ، وهى معقل الدين ، ودار الايمان والعلم ، شرد العدو أهلها ، وحول مساجدها كنائس :

فيا أسفاه ٠٠ يا أسفاه حزنا يكرر ما تكررت الدهور

والشاعر ينعى على الأندلسيين المسلمين عدم التناصر ، ويتهمهم بالتواكل ، والتفكك ، يسمع أهل المدن المجاورة بسقوط احدى المدن فلا يهبون لمناصرتها ، كما حدث عند سقوط طليطلة :

وقيل تجمعوا لفراق شمل طليطلة تملكها الكفور
لقد صم السميع فلم يعول على نبأ ، كما عمى البصير

وهو يحذر من زعموا أن ما حل بطليطلة عقاب من الله لفجور أهلها من حلول ذلك بهم ، فيقول :

فان قلنا العقوبة أدركتهم وجاءهم من الله النكير
فانا مثلهم ، وأشد منهم نجور وكيف يسلم من يجور
أنامن أن يحل بنا انتقام وفينا الفسق أجمع والفجور
وأكل للحرام ، ولا اضطرار اليه فيسهل الأمر العسير

والشاعر يصور تفرق المسلمين ازاء النكبات ، فالعدو الذكى الخبيث يعمل على تفرقتهم باصطناع البعض ، وايقاع نار الفتنة بينهم كلما حاولوا اطفاءها زادها اشتعالا :

تجاذبنا الأعادى باصطناع فينجذب المخول ، والفقير

والبعض صرفه حب المال ، وما يملكه من متاع ، عن الانخراط فى سلك المجاهدين ، أما من بقوا تحت نير هذا المستعمر الغادر فقد أصبحوا طوائف ، منهم الذى ارتد وترك دينه ، ومنهم من أسر دينه فى نفسه ، يعانى الذل والهوان :

فباق فى الديانة تحت خزى تثبطه الشويهة والبعير
وآخر مارق هانت عليه مصائب دينه ، فله السعير

وقد وقع الناس فى حيرة ، وأخذوا يتساءلون :

أنترك دورنا ، ونفر عنها وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسنا نباكرها فيعجبنا البكور
وظل وارف ، وخرير ماء فلا قر هناك ولا حرور
ويؤكل من فواكهها طرى ويشرب من جداولها نمير

والشاعر هنا يسخر من هؤلاء القاعدين المشدودين الى الذل ، والعبودية بأمراس من حب النعمة ، وترف الحياة :

فلا دين ولا دنيا ولكن غرور بالمعيشة ما غرور

وهو يمزج ذلك بالدعوة الى القتال ، لا يستنجد بأحد من خارج البلاد كما فعل ابن الأبار فى سينيته المشهورة ، وانما يدعو الى الاعتماد على النفس ، والقتال والصمود :

خذوا ثأر الديانة وانصروهـا فقد حامت على القتلى النسور
وموتوا كلكـم ، فالموت أولى بكم من أن تجاروا أو تجوروا

ويكرر ذلك المعنى فيقول :

وكان بنا ، وبالقينـات أولى لو انضمت على الكل القبـور

وهو يدعو الى الصبر فى الجلاد ، فالنصر صبر ساعة كما يقولون ، وينشد بين هذه الجموع فارسا مغوارا يتولى جمع الشمل ، وقيادة هذه الجموع ، فالقائد الشجاع ينفخ من شجاعته وروح بسالته نار الاستشهاد ، فى هذا الرماد الخابى ، والقلوب المرتعشة :

الا رجل له رأى أصـيل به مما نحـاذر نستجير
يكر اذا السيوف تناولته وأين بنا اذا ولت كرور
ويطعن بالقنا الخطـار حتى يقول الرمح ما هذا الخطـير

ومن مراثى الممالك الزائلة هذه القصيدة التى يرثى بها حاكم بلنسية أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن عبد العزيز مملكته بلنسية ؛ بعد أن ثار عليه أهلها وطردوه ؛ وولوا مكانه أبا محمد ابن عياض ؛ والشاعر هنا قد ذاق حلاوة الملك ؛ ومرارة العدم بعد زواله ؛ فصور حاله أتم تصوير ·· فى نبرة حزينة آسية ·· يقول عن أيام عزه الذاهب :

خرجنا من الدنيا، وكانت بأسرها تصيخ لنا نومى به ، ونشير
فلا ينس تسليم السلاطين مسمعى بحيث القنا ، والمرهفات سطور

وحيث بنو الآمال تكرع كالقطا — وقد ذخرت للمكرمات بحور
وقد قامت المداح تنثر نظمها — ودارت علينا للثناء خمور

ويذكر غاراته على الأعداء وحوله من فرسانه الكماة صقور :

اثار به ركض الفوارس قسطلا — يرصعه للباترات قتير
واصدرت الرايات حمرا كأنها — صدور حسان مسهن عبير

ثم يشكو حاله ، وما اعتراه من تغير : « فتعسا لدهر جاء وهو عثور » ،

تصابحنا فيه الرزايا فتارة — تصم صماخا أو تجيش صدور

وهو شاعر رقيق الاحساس ، فلا عجب أن نجده يبكي أحيانا على ملكه الذاهب ، ويتألم حتى انه ليقول :

فلو أبصرت عيناك همي حائكا — وشهب الدياجي في السماء تنير
ومن أدمعي زهر تناثر غصنه — بنكباء يزجيها جوى وزفير
لأنشدت من طول التفجع والأسى — وقد بعدت عني مني ، وقصور
« غريب بأرض المغربين أسير — سيبكي عليه منبر وسرير »

والبيت الأخر من قصيدة للمعتمد بن عباد يشكو فيها حاله بعد أن سلب ملكه ، وأخذ أسيرا الى مدينة « أغمات » المغربية ·
ومن المراثي مرثية ابن خفاجة المتوفى سنة ٥٣٣ هـ لبلنسية في سقوطها الأول ، وفيها يقول :

عاشت بساحتك الظبا يادار — ومحا محاسنك البلى والنار
ارض تقاذفت الخطوب بأهلها — وتمخضت بخرابها الأقدار
لعبت يد الحدثان في عرصاتها — لا أنت أنت ولا الديار ديار

ولابن خفاجة قصيدة أخرى فى بلنسية يصور فيها فرحته باسترجاعها من أيدى الأعداء ٠٠ وهى تدل على أن الشعر قد كان يحتفى بالانتصارات ، ويتغنى لها ، كما تشجيه الهزائم فيبكيها ٠٠ يقول ابن خفاجة فيها :

الآن سح غمـام النصر فانهملا ... وقام صفو عمود الدين فاعتدلا

وبات يطلع نقع الجيش معتكر ... بحيث يطلع وجه الفتح مقتبلا

من عسكر رجفت أرض العدو به ... حتى كأن بها من وطئه وهـلا

ثم يأخذ فى وصف الخيل والفرسان :

وأقشع الكفر قسرا عن بلنسية ... فانجاب عنها حجاب كان منسدلا

وطهر السيف منها بلدة جنبـا ... لم يجزها غير ماء السيف مغتسلا

في موقف يذهل الخل الصفى به ... عن الخليل، وينسى العاشق الغزلا

ترى بنى الأصفر البيض الوجوه به ... قد راعها السيف فاصفرت به وجلا

هذه أهم القصائد التى قيلت فى مدن أو ممالك بعينها ، سواء أكانت قد سقطت فى أيد عربية أو فى أيد غير عربية ٠٠ بقى أن نشير الى عدد من القصائد التى رثيت بها الأندلس بعامة ٠٠ من ذلك : قصيدة أبى جعفر أحمد بن الفقيه أبى اسحـــاق ابراهيم ابن فرقد ، التى يرثى بها الأندلس ، وهى كما يقول تلميذه الرعينى المتوفى سنة ٦٦٦ هـ : « قصيدة طويلة تنيف على المائة بيت يتحزن فيها للجزيرة ويتفجع ويرثى لها بما تكاد له الأكباد تنقطع ــ فرحمه الله ــ كيف لو رأى الآن حالها ، ومآلها وأبصر تقويض الملـــة المحمدية عنها ، وارتحالها ، وكيف جاست الصليبية خـــلالها ، وداست جلالها ٠

والقصيدة تعدد ، كسرواها من القصائد السالفة ، ما حل بالأندلس من تأييم النساء ، وتيتيم الأطفال ، وهتك الأعراض ، وترويع الآمنين ، ويبدؤها بالبكاء والتحسر طالبا من كل ذى فطنة أن يعينه على ذلك :

الا مسعد ، منجد ذو فطن   يبكى بدمع ، معين ، هتن
جزيرة أندلس حسرة   لما غالها من خطوب الزمن

ثم يأخذ فى ذكر مآسى الجزيرة فيقول :

لقد جللتها صروف الردى   شآبيب كرب كمثل الدجن
فعزبها كل ذى ريبة   وهان العزيز الذى لم يهن

ويبدو من هذه الأجزاء التى نقلها لنا الرعينى فى برنامج شيوخه ـ أن القصيدة من قبيل شعر العلماء الذين أولعوا بفن البديع ، فتعبيراته غير جذابة ، تخلو من رونق الشعر ومائيته ، كقوله : « ذو فطن ، ويحكى الحمام ذوات الشجن ، شآبيب كرب ، لا كروب » . والتراكيب ضعيفة كقوله : «وهن سباء بها لم يكن» ، والترجيع الثقيل فى « كأن لم تكن » ، والاسراف فى البديع .

ننتقل بعد ذلك الى أبرز قصيدة من النوع الأخير ، وأعنى بها قصيدة أبى البقاء صالح بن شريف الرندى ، وهى تقع فى نحو اثنين وأربعين بيتا ، كما فى نفح الطيب .. وقد أولع بها الناس ، وفتنوا بها فى زمانهم ، فأخذوا كلما سقطت مدينة أندلسية يزيدون فى أبياتها . يقول المقرى بعد أن يوردها : « انتهت القصيدة ، ويوجد بأيدى بعض الناس زيادات فيها ذكر غرناطة ، وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف ، وغالب ظنى أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة ، وجميع بلاد الأندلس اذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق ، والمغرب ـ فكأن بعضهم لما

اعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات ٠٠ لقد سلك معها الأدباء مسلك الشعب مع أدبه التلقائى ٠٠ حيث تزاد فى النص زيادات لم يضفها القائل الأول المجهول فى الغالب ٠٠ بل ان كثيرا من الشعر الملحمى ، كالالياذة وغيرها لا ينتمى الى شاعر واحد ، وانما قد شارك أكثر من واحد فى خلقه وتكوينه ، ولو قد وصلت الينا قصيدة الرندى كاملة بما فيها من زيادات ربما كنا قد وجدنا فيها عملا ملحميا ، أو بداية عمل ملحمى عربى ٠٠ واذا كان « غومس » لا يراها من الشعر العالى فى البلاغة ، فان جل من كتبوا عنها قد أشادوا بها ٠٠ ومن هؤلاء بطرس البستانى ، الذى أعتمد عليه فى الكثير مما قاله جودت الركابى ، وغيره ، يقول البستانى فى صدر حديثه عن فن الرثاء : « فكان يشجيهم أن يروا ديارهم تسقط بلدا اثر بلد . فى أيدى الغرباء من غزاة ، فيبكون عليها ، ويتفجعون ، كما بكى ابن اللبانة على دولة العباديين ، وابن عبدون على دولة بنى الأفطس ، وأبو البقاء الرندى على مدن الأندلس بعد أن استردها النصارى » ٠ ثم يعلق على تلك القصائد بقوله : « وفى هذه القصائد الثلاث لوعة صادقة ، وتفجع أليم ، ولا سيما نونية الرندى فان العاطفة الدينية زادتها روعة والتياعا ٠٠ » ٠ ولنحاول فى ايجاز رسم صورة لأهم ملامح هذه القصيدة الصادقة المؤثرة على حد قول غرسيه غومس ، وقد يتردد الانسان كثيرا حين يكتفى بذكر بعض الأبيات دون البعض ، فالقصيدة نابضة بالشعور الصادق والصور المؤثرة ــ مما يوقع الانسان فى حيرة حين يرغب فى الانتقاء والاختيار ٠ لقد بدأها أبو البقاء الرندى ببعض الحكم المنبثقة من التجربة ، والمعبرة بصدق عن حال الأندلس آنذاك ، والقصيدة بما فيها من حكم بسيطة ، ووجدان صادق ، تترك تأثيرها العميق فى نفس القارىء ، وليست قصيدة «ساذجة» ٠٠ كما يصمها بذلك البستانى ٠ فأبيات الحكمة

التى افتتح بها القصيدة انما هى مقدمات للحديث العميق الحار عن عبر الدهر وأحداثه ، قد تفوق ـ فى رأينا ـ على ابن عبدون ، رغم تأثره به ، اذ تجنب سرد الأحداث التاريخية سردا متلاصقا يتسم بالتكرار والدوران حول معنى بذاته ، مازجا الأحداث بالحـــكم والنتائج المستخلصة منها ·· كقوله :

دار الزمان على دارا ، وقاتلــه — وأم كسرى فما آواه ايـــــوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب — يوما ، ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر أنواع منوعــــــة — وما لما حل بالاســـلام سلوان

ويعقب على حديثه عن تلك الأمم الخالية ، والـدول الزائلة ، والملوك الذاهبين ، بما يفيد أن كل شىء الى زوال ، الكل هباء ، وقبض الريح ، فيقول :

أتى على الكل أمر لا مرد لـــه — حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

ومن ميزات قصيدة « الرندى » أنه يعقب على ذكر كل مدينة من المدن التى سقطت بذكر بعض صفاتها ومزاياها ، فقرطبـــة دار العلم ، والعلماء ، وحمص تكثر فيها المنازه والأنهار :

وأين قرطبة دار العلوم ، فكم — من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص، وماتحويه من نزه — ونهرها العذب فياض ، وملآن
قواعد كن أركان البلاد فمـــا — عسى البقاء اذا لم تبق أركان

ويأخذ فى اثارة المسلمين لاستعادتها ·· بعرض بعض اللوحات الحزينة لمأساة الأندلس ، فالاسلام يبكى ، والمحـاريب ، وعيدان المنابر ، تشارك الاسلام البكاء لما حدث :

تبكى الحنيفية البيضاء من أسف — كما بكى لفراق الالف هيمـان
حتى المحاريب تبكى، وهى جامدة — حتى المنابر ترثى وهى عيـدان

وتكرار بعض الكلمات مثل : « حتى » ، « وهى » يدل على مدى احساسه بالماساة ، ويذكر الرندى من صور الماساة صورة أم تباع الى مشتر ، وطفلها الرضيع يباع الى آخر ، فيحال بينهما الى الأبد :

يا رب ام ، وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح ، وأبدان

كما يعرض صورة طفلة يقودها العلج الى المكروه ، ان كلمة المكروه توحى بكل شيء كريه ذميم :

وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت
كأنما هى ياقوت ، ومرجان
يقودها العلج للمكروه ـ مكرهة
والعين باكية ، والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان فى القلب اسلام وايمان

ومن أروع أجزاء القصيدة هذا الجزء الذى يحرض فيه المتقاعسين ، المنصرفين الى التباهى بسباق الخيل ، أو حمل السيوف ذات البريق اللامع ، فيسألهم موبخا : « هل عندكم نبأ عن أهل اندلس .. » ويواصل توبيخهم قائلا :

كم يستغيث بنا المستضعفون ، وهم
قتلى ، وأسرى فما يهتز انسان

ماذا التقاطع فى الاسلام بينكم ؟
وانتم يا عباد الله .. اخوان

ويلاحقهم بالجمل والعبارات التعريضية ؛ فيقول :

الا نفوس أبيــات لهـــا همم !

أما على الخير انصـــار ، وأعــوان !

ان هذه القصيدة رغم ما تتسم به من بساطة التعبير ، والاقلال من الصور الخيالية ، واتكائها على أرض الواقع تستمد من تربته ، وتنتقى منه ما يصور هذا الحدث الأليم ـ من النمط العـــالى فى الشعر ، لما تزخر به من احساس طاغ متدفق ، وأسلوب سهـــل بسيط مؤثر ، ولتلك الصور أو اللوحات الدامية التى التقطها من أرض المأساة ، وألف بينها ، ولونها باحساسه ، ووجدانه وعرضها عرضا جذابا مؤثرا ، مع ما قدم لها به من حكم حزينة مستسلمة لما يأتى به القضاء ، وما ذكره من أحداث وعبر ، للاتعاظ والاعتبار . ولقد حق لأستاذنا الدكتور عبد الحسيب طه أن يقـــول عنها : « ولقد تقرأ تلك القصـــيدة فترى الروعة ، والتأثير ، وامتـــلاك القلوب ، واستدرار الدموع ، مما يجعلك تحكم ببلوغها القمة فى موضوعها .. » .

آن لنا بعد هذه السياحة الطويلة بين قصائد الرثاء للمدن ، والممالك أن ننصت لأوتار حازم القرطاجنى ، وهى تعزف ألحـــان الأسى ، والشجا ، والأنين ..

وحازم ـ وقد رأيناه يعتمد أسلوب كبار الشعراء فى نظـم القصيدة ملتزما الاطار التقليدى الذى يضم أكثر من غرض ـ لا نجد له مراثى ، مستقلة لبلاده بالرغم من سيطرة الشعور بالحزن والأسى عليه ، ذلك الأسى الذى يبدو فى مدائحه لخليفتى الدولة الحفصية البارزين : أبى زكرياء يحيى ، وابنه أبى عبد الله محمد المستنصر ،

ولكننا نجد له مقطوعتين قصــيرتين يصــف فى أولاهما محاسن مرسية ، وفى الأخرى مفاتن قرطاجنة ٠

وشعر حازم فى هذا الغرض ـ فيما خلا هاتين المقطوعتين يتخلل مدائحه ، وفيما عدا المقصورة ـ نجد لمحات سريعة أو أبيات ينثرها خلال أبيات مديحه ، يضعها فى موضعها المناسب بعد أن يمهد لها ، أو يوجد المناسبة الداعية اليها ، من ذلك قوله فى مدح الخليفة المستنصر :

سيلحظ أهل الغرب منك لنير	وشمس بدت مطالع الشرق بيضاء
طليعة فتح أقدمتها سعودكــم	فهنيتم من بعدها كــل سراء
غدا غرب احدى العدوتين بمثله	من العدوة الأخرى مقدم أنباء
هوى غرب تلكم من هوى غرب هذه	تشابهت الدنيا توافق أهــواء
يقــل لما يأتى من الفتح ما أتى	فكم جاد وبل بعد طل وأنــداء

ويهنىء الخليفة أبا زكرياء بمبايعة أهل حمص (اشبيلية) له ٠٠ ويحثه على فتح الأندلس ٠٠ ويمدح أبا زكرياء مهنئا بمبايعة أهل سبتة له ٠٠ ولا ينسى فى هذه المناسبة ، أن يحمل اليه أمانى أهل الأندلس فى تطهير بلادهم من الغاصبين فيقول :

فمتى أنــــدلس قــــد	نثلت عنهــا الــكنائن
حــركت آمــالهم اذ	أصبحت وهى سواكــن
فادركهــا بالجيــاد اللاحقيــات ٠٠ الصــوافن	
فمغانى غربهــا قــد	أوحشت منها المساكن
ومغــانى الشرق داج	أفقها بالنقع داجــن

حتى فى مقدمة قصيدته النحوية ، التى أهداها للمستنصر . لا ينسى ذكر الأندلس ، وهجرة أهلها الى تونس حيث السكن ، والملاذ :

فتونس تؤنس الأبصار رؤيتها وتمنح الأمم الآلاء والأممـــا
كأنما الصبح، فيها ثغر مبتسم وحوة الليل فيها حـــوة ولمى

وحازم ، وان كان يغلب عليه الحزن على سائر بلاد الأندلس ، فنجده يذكر ما حل بها من دمار وتخريب ، وتقويض لدور العلم والعبادة ، ويحرض الخلفاء والقادة على استرجاعها ، الا أنه لا ينسى موطنه الأصلي بقرطاجنة ، ومنشاه بمرسية ، وتدمير ، وما حول تلك المواطن ·· فنجده يصف جمال مرسية في مقطوعـــة قصيرة نلمس فيها عمق الحب لتلك المدينة التي نشأ فيها ، ورتع مـــع لداته في مسارح لهوها ، وسعي معهم لتلقي دروس الأدب والعلم على كبار الأساتذة بها ، وليس أدل على ذلك من وصفه لها بأنهـا « جنه الأرض » وفؤاده لا يصحو عن حبها :

تلك محل السرور مرسية موطن أنسي ، ودار أفراحـــي

ويرخمها ترخيم الحب ، والتلذذ فيقول :

مرسى ·· كم ناعم ، وكم جذل بين الرياحـــين فيك ، والراح

ويتساءل هذا التساؤل الحائر ، حول أي أماكنهـــا أبهج ، وأجمل :

هابطة النهر منك أذكـــر أم من شط أعلاه جسر وضـــاح

وحين يعجزه التفضيل يقول :

سبعون ميلا لنا نجول بهـــا بين جســـور ، وبين أدواح

فما أجمل مدينة يستمتع فيها الانسان على مدى سبعين ميــلا بالأدواح ، وبما تحفل به من مسرات وبتلك الجسور ، وما يعبـر

فوقها من فتن وملاذ ، وما يحيط بها من مناظر ومباهج · كما يتحدث عن قرطاجنة مسقط رأسه ، فى مقطوعة أخرى ، فيصفها وصفا موضوعيا ، فهى مدينة ساحلية تعبر بها السفن فى أمان ، وتحيط بها أرض واسعة تفيض بالخير ، وتموج بالخضرة التى تشبه أمواج البحر ، وفى جبالها الكثير من المعادن الثمينة :

فنبت بطاحها وشى وخـــز ... وترب جبالها ورق وتبـــر
فليس كبرها فى الأرض بـــر ... وليس كبحرها فى الأرض بحر

ومن حديث الشاعر عن جمال قرطاجنة ، نشعر بمدى ارتباطه النفسى بها ، وحبه العميق لها ، دون أن ننتظر منه أن يصرح لنا بأنه يحبها ؛ أو يتيمه عشقها ·· وقد يذكـــر بلاده فى مقدماته الغزلية ، فمحبوبته من شرقى الأندلس تقيم بين أزهار وأنهار :

بجنة الحسن من شرقى أندلس ... قد خيمت بين أزهار ، وأنهـار

فى الصيف :

تسمو اذا ماسمانجم المصيف الى ... زرق صواف عليها خضر أشجار

وفى شهر تشرين تضحى « ذات اصحار » :

واستبدلت فوق شط البحر منزلة
من منزل فوق نهر العسجد الجارى

حيث التقى الزاخـــر المخضر مشبهه
حتى امترت فيهما ألحـــاظ نظـــار

بسيط برغـدا البحر البسيط له
مدانيا كدنو الجـــار ·· للجـــار

وقد تصعد الى نهر العقيان بقافلتها التى « تقرو ملاقط أزهار ، وأثمار » ، أو تنحدر الى جبال الفضة ٠٠ وحازم ـ كما نرى ـ يشير بحب ، وشوق الى غنى بلاده بالمعادن ، والأحجار الكريمة ، كالعقيان ، والفضة ، وغيرها ٠٠ ويعقب على ذلك كله ، بتلك الأبيات الشاكية الباكية :

معاهد قد لبسن الأنس متصلا ... فى غر أندية منها ، وأسمار
فاوحشت بعد ايناس،وصاربها ... صرف الحوادث طلابا بأوتار

انها نوائب قد نزلت بتلك الجنة الجميلة ، والشاعر كلما تذكرها هاجت أفكاره ، وأثارت وجدانه ، وجعلته هو وأمثاله يعضون على أظفارهم ، ندما وحسرة :

كانوا كطير بأوكار ، فصيرهم ... زمانهم فوق طير ذات أكوار

وأصبحت المنازل صفرا من أهلها ، فكلما تذكرها الشاعر هجره صبره :

عرفت من بعد انكار معاهدهم ... فكدت أنسى اصطباري بعد تذكاري
شيبت موارد أنسى بعد ماخلصت ... جمامها الزرق من شوق،وأكدار

فكم سعد بأوقات حافلة بالسعادة ، ولكنه لم يهنأ بها طويلا ، اذ لم يلبث الدهر أن أنحى عليها مبدلا « حالا بحال ، وأطوارا بأطوار » :

ففرقت شمل أحباب،وشمل منى ... وألفت شمل أعداء ، وأشرار
ومذ تفرقت الآمال ما اجتمعت ... لى في دجى الليل اشفار بأشفار

ويتخيل أحيانا ، أو يحلم أنه قد التقى بمحبوبته الأندلسية فى تونس ، فيعجب من ذلك :

دار التي لم تزل تدنو بها سنة ذنب الليالي بها في البعد مغفور
فاعجب لحلم به قد بات يؤنس من مثواه تونس ، من مثواه تدمير
فجمعتنا ـ كما كانت ـ تجمعنا تلك المنازل، والأوطان، والدور

ويتمنى لو طال ليله ، ولم تظهر تباشير الفجر :

ياليت أن بياض الصبح ما سطعت
في أخريات الدجى منه تباشير

ويهصره الأسى لأن : ربع الأنس بعدهم
بربرب الوحش بعد الأنس معمور

ربع تجدد لعيني كل معصرة
من رسمه ما تعفيه الأعاصير

وهو في المقصورة التي هي « مرثية مشبوبة العاطفة للأندلس .. » على حد قول غومس ـ يصف كل معالم الأماكن التي عاش فيها أو تردد عليها ، ويحددها تحديدا جغرافيا دقيقا يسرف فيه اسرافا كبيرا ، حتى انه ليكاد يذكر كل مكان مهما ضؤل شأنه . فكأن حازما يحرص بفعله هذا على تخليد تلك الأماكن وحفر معالمها في ذاكرة الزمن . كما يصور لنا رحلاته ونزهاته ، مع أصدقائه من الأدباء والشعراء ، وكيف كانوا يقومون برحلات الصيد ، في البر حيث يصطادون بالصقور ، أو الكلاب المعلمة ، أو على الخيول المطهمة ، وفي الزوارق في البحر ، بعد أن يدفعوا بأسراب الطيور الى التحليق فوقه . كما ينقل لنا صورا لحفلاتهم وشرابهم وموائدهم ، وبعض أنواع أطعمتهم التي يختص بها أهل الأندلس ، مما ذكرناه بالتفصيل في حديثنا عن أغراض المقصورة ، كما يذكر مصايفهم ومشاتيهم هناك ، وقصورهم التي تفضل مغاني الشعب ، وتل بوني .. ويدعو لكل تلك الأماكن بالسقيا .. كما يشده

الحنين الى حبيته بمرسية ، ويندب تلك الأماكن ، ويسفح عليها أحر الدموع ، ولكنه يوزع أحزانه خـــلال القصيدة الطويلة . ولا يركزها فى مكان واحد عملا برأيه ، وهو دفع الاملال عن القارىء أو السامع ، وفيها يشكو اغترابه الذى يراه يشبه الهلاك ٠ وفى المقصورة يذكر الممدوح بما قام به أجداده من الموحدين من تسجيل انتصارات ساحقة على الروم أو النصارى الأسبانيين ٠٠ كما حدث فى موقعه الأرك ، ويدعوه الى الاقتداء بهم ؛ والعمل على استرداد الأندلس من أيدى المغتصبين الذين خربوا ديارها ، وشردوا أهلها ، وحولوا مساجدها كنائس :

لهفى لذكـرى معهد عهدتـــه | يراح للأنس به ، ويغتـــدى
غض امتلاء بالرويم بعدمـا | كانت بـه أم الخشيف تلتقى

لقد صاح عليها غراب البين :

فدمرت تدمـير سـحب فتنـــة
وبـــارق مـــن مطـــلع البغى بغـــى

ومحقت قرطبة ، وحلت الوحشة باشـــبيلية ٠٠٠ مما جعل أنهارها تبكى حزنا وألما :

فقـــد بكت أنهـــارها بمدمـــع
هام من الوجـــد لهام ارتـــوى

فبكى النهر الأبيض ، كما بكى النهر الكبير :

وكاد شقر أن يفيض عندمـــا
غيظ بعيث الشـقر فى كل عـرى

والخلاصة أن فاجعة الأندلس لم تبرح وجدان حازم ، بل

ملكت عليه أقطار نفسه حتى تكاد لا تخلو قصيدة من قصائد مديحه من ذكر للأندلس ، وحث على استردادها ، ولكن بطريقته الخاصة، تلك الطريقة التى يكتفى فيها بالأبيات القليلة ينثرها نثرا خلال قصائده ، حتى ليتوهم القارىء أنها قد جاءت عرضا دون قصد ، ذلك لأن حازما - كما ردد ذلك فى منهاجه - يحب للشاعر أن يتنقل بين الأغراض ، ليجدد نشاط السامع ، ويجنبه الاحساس بالملل ، وبخاصة فى المواطن الشاجية ، فالنفوس قد تضيق بها ، ولا تشعر بها شعور من اكتوى بنيران الكارثة ، لكن أبياته القليلة التى ينثرها خلال قصائده ، اذا ما جمعت أو ضم بعضها الى بعض ، كونت سفرا خالدا من الرثاء للأندلس ، فقد ذكرها فى مسراتها ومباهجها ، وأفراحهــا ، كما ذكرها وهى تئن تحت وطأة التخريب والتدمير والاحتلال ، فعرضها علينا عرضا وافيا ، ملتقطا لها الصــور من مختلف الزوايا ، ولم يكتف بما فعله أبو البقاء الرندى أو غيره ممن اكتفوا بندبها وبكائها ، فقط • فحــازم قد عرض علينا الأندلس وبلاده خاصة من خلال تجاربه الذاتية ، من خلال حبه ، ولهوه ، وسمره ، ثم اغترابه وشقائه بذلك الاغتراب ، ومن خلال تطلعه الى عودة تلك البلاد الى الحظيرة الاسلامية ، وأعتقد أن حازما قد مــات ، ولكن أمله فى استعادتهــا لم يمت ، وبخاصة اذا مــا توحــد المسلمون آنذاك ، وهجروا الصراع والتشاحن ، فكثيرا ما أشار حازم الى أن سبب ضياع الأندلس ، هو ذلك التنافس والتصارع بين الدويلات الاسلامية المفككة • يقول فى ذلك حاثا الخليفة أبا زكرياء يحيى الحفصى على استرجاعها :

يا ربوعــا أقفــرت مــــن	ناطق فيهــا ، وقاطــن
كم حــديث عن قــديم	منــك شــاج لى شــاجن
على سـيحيى منــك يحيـى	مـا أماتتــه الضـغائن
بخميـس ضــاقت الا	فــاق عنــه والأماكــن

الشعر الدينى عند حازم

لقد آثرت هذا العنوان ليشمل كل ما نظمه من شعر يحمل الصبغة الدينية ، سواء أكان ذلك مدحا للرسول أو لبعض من أهل عترته ، كالقصيدة التى نظمها فى الحسين رضوان الله عليه . أو ذلك الشعر الذى يدعو الى التمسك بأهداب الدين والفضيلة ، وينهى عن التمادى فى طلب متع الحياة .

وحين نطالع ما كتبه الباحثون عن شعر الزهد فى الأندلس ، نجد اختلافا كبيرا بين الباحثين ، فالدكتور محمد عبد المنعم خفاجى يجعل شعر الزهد والحكمة ، من الأغراض التى قصر فيها الأندلسيون عن المشارقة ولم يجاروهم فيها ، كما يجعل ــ فى موضع آخر من كتابه ــ الاستغاثة والاستنجاد بالنبى وكبار الصالحين ، من الأغراض الجديدة فى الشعر الأندلسى . ويرجع الدكتور ابراهيم أبو الخشب ، قلة شعر الزهد عند الأندلسيين الى عوامل منها : أن العرب كانوا هنالك متعصبين للسلوك الجاد ، والطباع القويمة ، لأن الاسبانيين قد كانوا مع المسلمين على خلاف ما كان عليه الفرس أو الأتراك مع المسلمين فى دولة بنى العباس ، اذ أن الفرس والأتراك

كانوا يعتبرون أنفسهم أحرارا طلقاء فى مكنتهم أن يعبثوا ، وفى استطاعتهم أن يفسدوا ، كما احتاجت الوظائف المفرس والترك ، فألقيت على عواتقهم مهام الأمور ، مما جعل السبيل الى الغواية ميسورا · ويضيف الى الأسباب السابقة سببين آخرين هما : أنه كان للوازع الدينى فى الأندلس قداسته واحترامه ، كما لم تنتصر بين الأندلسيين الفلسفة التى كانت علة العلل فى المشرق · وبعد أن يورد الدكتور أبو الخشب عددا من قصائد الزهد ، يعقب عليها بقوله : « ومع هذا فاننا لا نستطيع أن نقول ان الشعر الأندلسى كان ميدانا لمثل هذه الألوان التى لم تكن استجابة لوجدان صادق ولا لعاطفة مشبوبة ·· » · ويؤيد الدكتور عبد الحسيب طه قلة شعر الزهد فيقول : « ان ما أثر عن الأندلسيين فى الزهد لا يساوى نصف ما أثر عن أبى العتاهية ·· » · وعلى النقيض من ذلك ما يقوله غارسيا غومس ، فهو يقول : « وأما الشعر الزهدى الصوفى فلأهل الأندلس منه ثروة واسعة ·· » · وان كان بالنثيا يتهمه بالنقص فى حرارة العاطفة « فهم ينتقلون فيه من الوعظ المتبذل الى وجد الصوفية أو الثيوصوفية دون تدرج أو تمهيد » · ويؤكد الأستاذ جودت الركابى ما قيل من كثرة شعر الزهد والتصوف ، ويرجع ذلك الى أسباب نلخصها فيما يأتى :

أولا : تأثير الفقهاء فى دفع الناس الى التعصب الدينى ، والتظاهر بالعبادة ، والعزوف عن الدنيا ومباهجها ·

ثانيا : كثرة الفتن والحروب ، وتقلب الأحوال ·

والواقع أن شعر الزهد والتصوف فى الأندلس ليس بالقليل ، كما أنه لا يقل حرارة عن شعر الزهد فى المشرق الذى لم يشتهر فيه من الشعراء سوى أبى العتاهية ، وبعض الشعراء الصوفيين الذين

ينتمى أغلبهم الى الأندلس ، كمحيى الدين بن عربى ، والمرسى ، والششترى ، وابن سبعين ، وسواهم . وأسباب وجود هذا اللون من الشعر فى الأندلس متوفرة : كالانحلال الخلقى . والانصراف الى اللهو والعبث ، والمجون .. الذى كان أحد عوامل تقويض الخلافة الأندلسية ، وهل أدل على هذا الانحلال من قول أبى القاسم عامر بن هشام ـ الذى سكر ليلة فنام فى وسط الطريق ، والمطر يسح عليه ـ فى وصف الصاحب :

لا خير فى الصـــاحب ان لم يكن
يقـــود أو ينـــكح أو ينـــكح

فـان خلـت مـــن صـــاحب هـــذه
فانـــه للـــود .. لا يصـــلح

ويقول الطبنى الشاعر :

اجتمعنـــا بعـــد التفـــرق دهـــرا
فظللنـــا نقطـــع العمـــر ســـكرا

لا يـــرانى الالـــه الا طريحـــا
حيث تلقى الغصـــون حولى زهرا

قائـــلا كلمـــا فتحت عيـــونى
من نعـــاس الخمار ، زدنى خمـــرا

ويستهدى ابن شهيد المنصور بن أبى عامر جارية ، فيهديها له ومعها هذه الأبيات :

قد بعثنـــا بهـــا كشـــمس النهـــار
فى ثـــلاث مـــن المهـــا الأبـــكار

فاتئد ، واجتهد ، فانك شيخ
سلخ الليل عن بياض النهار

صانك الله عن كلالك فيها
فمن العار كلة المسمار

فكتب اليه ابن شهيد :

قد فضضنا ختام ذاك السوار
واصطبغنا من النجيع الجارى

ونعمنا فى ظل أنعم ليل
ولهونا بالبدر ثم الدرارى

وقضى الشيخ ما قضى بحسام
ذى مضاء عضب الظبا بتار

فاصطنعه ، فليس يجزيك كفرا
واتخذه سيفا على الكفار

وابن حزم العالم الظاهرى الجليل ٠٠ صاحب أول ترجمة ذاتية فى اللغة العربية ٠٠ فى كتابه « طوق الحمامة » يسأله بعض الأدباء ٠٠ بقوله :

سألت الوزير الفقيه الأجل
سؤال مدل على من سأل

فقلت ايا خير مسترشد
ويا خير من عن امام نقل

أيحرم ان نالنى قبلة
غزال ترشف فيه الغزل

وعانقنـــى والدجـــى خاضـــب
فبتنـــا ضجيعين حتـــى نصـــل

فيجيب ابن حزم قائلا :

اذا كان ما قلتــــه صـــــادقا
وكنت تحريت جهـــد المقـــــل
وكان ضجيعـــا طـــاوى الحشـــا
اعار المهـــاة أحـــورار المقـــل
قريـــب الرضـــا ، ولـــه غنـــة
تميت الهمـــوم ، وتحيى الجـــدل
ففى أخـــذ اشـــهب عـــن مالك
عن ابن شـــهاب عن الغـــير : قل
بتـــرك الخـــلاف على جمعهـــم
علـــى أن ذلك حـــل ، وبـــل

لقد أسرفت فى ايراد هذه الأدلة على مدى ما بلغه التحرر فى الأندلس ‥ لأدحض ما زعمه الدكتور أبو الخشب من أن العرب فى الأندلس كانوا متعصبين للسلوك الجاد ‥ وأن للوازع الدينى عندهم قداسته ‥ ونحن لا ننكر على الأندلسيين ذلك لو أن حياتهم كانت تسير سيرا طبيعيا ، يسودها الأمن ، والطمأنينة ، ففى مثل هذه الأجواء الحرة ‥ يرتقى الشعر ، وتنمو الثقافة ‥ ولكن ننكر ذلك عليهم لأن هذه المغالاة فى التحرر والانحلال شغلتهم عن مواجهة العدو ، وصرفتهم عن مجابهته والتصدى له ، للقضاء على

محاولاته المتكررة للسيطرة على بلادهم الى أن نجح فى ذلك ٠٠ وعلى كل فهذا الانحلال ، والاسراف فى الاقبال على متع الحياة ٠٠ قد كان أحد الأسباب لبروز ظاهرة الزهد ، والتصوف ، فى الأندلس ٠٠ فكثيرا ما اتهم بعض الشعراء والأدباء الثائرين أهل الأندلس بالانغماس فى الشهوات ، مما جر عليهم غضب الله ، وسلط عليهم أشرس الأعداء ٠٠ ولن يخلصهم مما يستهدفون له الا الرجوع الى الدين ، والخلق القويم ، لذلك نجدهم أكثروا من الحض على ترك الدنيا ، والاقبال على الآخرة ، والتجرد لها ، مكثرين من التوسل بالرسول وآله ، وأصحابه ، ليزيل عن ديارهم تلك الغمة ، ويدفع عنها المكاره ٠ كما أن فى الدعوة الى الزهد ، واللجوء الى التوسل بالرسول وآله ، احتماء بالقيم الدينية والتراث الاسلامى الذى كان سبب نهضتهم وتقدمهم ، فهم يستمدون من هذا الرصيد الدينى ، مرة ثانية ، أسباب قوتهم وصمودهم فى مكافحة الأعداء ، وبخاصة أن عدوهم كثيرا ما لجأ الى الدين يستمد منه قوته وحماسه ٠ وقد رأينا فيما سبق رجال الدين من الرهبان والقساوسة يتقدمون صفوف الجنود مرتلين العظات ، حاملين الصلبان ٠٠ ونحن نعلم أيضا أن للزهد أصولا قديمة ، ورثها الأندلسيون فيما ورثوه من تراث « فلقد عرف القرن الثانى الهجرى عـددا من حاملى راية الزهد ، كالحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ هـ ، وابراهيم بن أدهم المتوفى سنة ١٦١ هـ وسواهم ٠٠ ومن الصوفية الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ هـ ٠٠ » ٠ فليس من الصواب أن نجرد الأندلسيين من شعر الزهد ، وأسبابه متوفرة لهم ٠٠ كما أن آثارهم الشعرية فى هذا الفن ليست بالقليلة ، من ذلك ، قصـــائد ابن عبد ربه التى عرفت « بالممحصات » وذلك أنه عمد فى أخريات حياته الى نقض قصائده الغزلية ، ومعارضتها بقصـــائد زهدية ، ومن أمثلة تلك الممحصات قوله :

يا عاجـــزا ليس يعفو حين يقتـــدر
ولا يقضى له مـن عيشـــه وطـــر

عـاين بقلبـــك ان العـــين غافلـة
عن الحقيقة ، واعلم أنهـــا ســـقر

ســـوداء تزفر من غيظ اذا ســـعرت
للظـــالمين فلا تبقى ، ولا تـــذر

ان الذين اشتروا دنيـــا بآخـرة
وشـقوة بنعيم سـاء ما اتجـــروا

يا من تلهى ، وشيب الرأس يندبه
ماذا الذى بعد شيب الرأس تنتظر

لو لم يكن لك غير المـــوت موعظة
لكان فيـــه عن اللذات مزدجـــر

انت المقـول له ما قلت مبتدئـــا
« هلا ادكرت لبين أنت مبتـــكر »

وهو يشير بهذا البيت الأخير الى ما قاله فى قصيدة غزلية بمناسبة عزم محبوبه على الرحيل وسـقوط المطر قـــد حـال بين المحبوب والسفر ، وفى تلك القطعة يقول ابن عبد ربه :

هل ابتـــكرت لبين انت مبتـــكر
هيهـــات يأبى عليك الله والقـــدر

مازلت ابـكى حـذار البين ملتهفـــا
حتى رثى لى فيـــك الريـح والمطـــر

يا بـــرده من حيامزن على كبـــد
نيرانهـــا بغليـــل الشـــوق تستعر

آليت لا أرى شـــمسا ، ولا قمـــرا
حتى أراك فـــأنت الشمس والقمـــر

والصدق واضح فى كلتا القصيدتين رغم بعد مسافة ما بين الغرضين . وتأثره بصور التعبير القرآنى فى زهديته واضح ، كما فى وصفه للنار التى تزفر من غيظ . ولا تبقى ولا تذر ، وشراء الدنيا بالآخرة . ومن الشـعر الزهدى الصـــوفى هذه الأبيات المشـــهورة ، التى نظمها الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى المتوفى بالاسكندرية سنة ٥٢٠ هـ :

ان   للـــــه   عبـــادا فطنـــــا
طلقوا الدنيـــا وخافـــوا الفتنـــا

فـــكروا فيهـــا فلمـــا علمـــوا
أنها ليســـت لحى .. وطنـــا

جعلـــوها لجـــــة   واتخـــذوا
صالح الأعمـــال فيهـــا ســـفنا

وللفيلسوف أبى بكر محمد بن طفيل قصائد فى الزهد ، منها قولـــه :

باكيـــا   فرقة   الأحبـاب عن شحط
هلا بكيت فـــراق الروح للبـــدن

نـــور تـــردد فى طـــين الى أجـــل
فانحاز علوا وخـــلى الطين للكفن

يا شــد ما افترقا من بعــد ما اعتلقــا
أظنهـــا هـــدنة كانت على دخـــن

ان لم يكن فى رضــا الله اجتماعهما
فيالهـــا صــفقة تمت على غبـــن

ومن شعراء الزهد والتصوف ، أبو يعقوب يوسف على بن عبد الملك المتوفى بالمهدية سنة ٦٩٠ هـ ، وشعره كله مدح في الرسول ، من ذلك قوله :

أحاشيك يا كل المنــى أن تذودنى
عن الحوض يوم العرض أو أمنع الشربا

ورب كــريم غض عن رد واغـــل
حيـــاء اذا وافاه اذ يبتغى القربـــا

لئن قصرت خطــوى اليك خطيئتى
وذبتنى الأوزار عن بابــكم ذبـــا

فمن شـــيمة العبد الفـــرار لربه
ومن شيم السادات أن يغفروا الذنبا

ويقول عتاد الدولة أبو محمد عبد الله بن ســـهل الأديب البطل ، داعيا الى الرضا والقناعة :

خـــذ ما آتاك من الزمان المدبـــر
فالطل يقنــع كل من لم يمطـــر

كم ذا التأوه طول دهـرك حســـرة
لما تعـداك الـــذى لـم يقـــدر

لا تطمعن لما خلقت لدونه

للبدر قدر لم ينله المشترى

وكثيرا ما كان الشعراء يرسلون بقصائد التوسل الى قبر الرسول اذا عجزوا عن حملها بأنفسهم ، من ذلك ، قصيدة أبى على عمر بن عيسى بن أبى حفص حاكم بجاية والمهدية من قبل الأمير أبى زكريا الحفصى ، والتى يقول فيها :

اليك ألقى بعذر محتشم

مرتحل القلب ساكن القدم

أصبح من قصده على أمل

ومن لظى شوقه على ألم

ومنها :

عبدك لو يستطيع جاب اليك

القفر فى غيب الظلم

يمسح ما بين حمص منه الى

يثرب برا بوجهه وفم

وقد كثرت قرب نهاية الدولة الأندلسية قصائد التوسل والمديح ، وشارك فيها حتى بعض من يشك فى اسلامهم كأبىاسحاق ابراهيم بن سهل الاسرائيلى ، الاشبيلى ، الذى اشتهر بمخمسته فى مدح الرسول ، والتى يبدؤها بقوله :

جعل المهيمن حب احمد شيمة

وأتى به فى المرسلين كريمة

فغدا هواه على القلوب تميمة
وغدا هداه لهديهم تتميما

صلوا عليه وسلموا تسليما

أبدى جبين أبيه شاهد نوره
سجعت به الكهان قبل ظهوره

كالطير غرد معربا بصفيره
عن وجه اصباح يطل نسيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

ولقد تركت هذه المخمسة أثرها الكبير فى الشعر التوسلى ، اذ عارضها عدد وفير من شعراء الأندلس والمغرب ٠٠ لرقتها وتميزها بجمال التصوير الشعرى ، فهى بعيدة عن أن تكون مجرد منظومة دينية ، وانما تمتاز بحاثيتها وروعة شاعريتها ، كما فى الصورة التى ساقها فى قوله « كالطير غرد معربا بصفيره » وغدا هواء على القلوب تميمة » وغير ذلك ٠ وممن عارضوها مالك بن المرحل ، وعدد من المغاربة ، وبعض الوعاظ ٠٠ وابن حيان الذى يقول فى تخميسه :

سجد البعير له سجود تذلل
وشكا اليه بحرقة وتململ

والشاة قال ذراعها لا تاكل
منى فانى قد ملئت سموما

صلوا عليه وسلموا تسليما

« وقد عارضها أكثر من واحد ، فما شقوا لهـا غبارا ٠٠ »
فلقد عارضها القلقشندى والقاضى عياض ٠ ولابن جابر الضرير
مطولة فى فضائل الصحابة ، وأهل البيت ، ولابن العريف كتاب
فى المدائح النبوية ، اسمه « مطالع الأنوار ، ومنابع الأسرار » ٠٠
وغير هذا كثير ، مما يؤكد أن شعر الزهد والتوسل ، أو الشعر
الدينى بعامة ــ يشغل حيزا كبيرا فى ديوان الشعر العربى ٠

فاذا انتقلنا الى حازم ، وشعره الدينى ــ وجدنا له ألوانا ثلاثة
من هذا الشعر ، أولها : مديحه للرسول ، أو لآل بيته ، والثانى
تلك المقطوعات التى تدعو الى التمسك بتعاليم الدين ، ومراعاة قيمه
الأخلاقية ، والنوع الثالث : هو التسبيحات الدينية ، وظروف
حازم العامة والخاصة تدعوه الى أن يلج باب الشعر الدينى ، ولكن
تأثره بالفلسفة والعلم ٠٠ فيما يبدو ، قد حد من نشاطه فى هذا
اللون من الشعر ، فقصائده فى المديح يقل فيها التأثر بالقصص
الدينى ، وقصـــائده الزهدية لا تلح فى طلب هجران الدنيا ،
والصدوف عن مغرياتها ، وانما تكتفى فقط بالدعوة الى احترام
النفس ، والبعد بها عن التهافت المقيت على مطالب الحياة ، والايمان
بقضاء الله وقدره ، وسوى ذلك مما يدعو اليه الدين ٠

ولنتحدث عن تلك الألوان من الشعر الدينى بشىء من التفصيل
فنقول : ان من أروع مدائح حازم للرسول ، تلك القصيدة التى
ضمنها اعجاز معلقة امرىء القيس ، والتى يبدؤها بقوله :

لعينيك ، قل ان زرت أفضل مرســل
« قفا نبك من ذكرى حبيب ، ومنزل »

فقد أشاد بها أكثر من واحد ، يقول المقرى : « ومن بديع نظمه
رحمه الله ، تضمينه قصيدة امرىء القيس ، وصرف معناها الى

مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهى من غر قصائده ٠٠ »
ومصدر اعجاب الباحثين والشعراء بها ، هو أن حازما قد وفق الى
حد كبير فى صرف معانى هذه القصيدة اللاهية الماجنة ٠٠ عن
غرضها الأول ، ليجعل من أعجازها لبنات حية فى بناء قصيد
جديد فى معناه ومبناه ، يعبر فيه الشاعر عن غرض جاد نبيل ،
هو مدح الرسول عليه السلام ، يقول صاحب معاهد التنصيص
فى ذلك بعد أن يتحدث عن التضـــمين وأنواعه ، وكيف يكون
التضمين ببيت أو مصراع ، فما دونه ، كقول ابن المعتز :

عــوذ لما بت ضيفـــا لـــه
اقراصــــه منـــى بياســـين

وعــوذ المـاء بســـمر القنــا
وبالأفاعـــى ، والثعـــــابين

فبت والأرض فــراشى وقـــــد
غنـــت قفانبـــك مصـــاريني

« والأحسن فى هذا النوع صرفه عن معناه الأول ، فمن ذلك
قول أبى الحسن حازم فى تضمين قصيدة امرىء القيس ، وقد صرف
معانيها الى مدح النبى صلى الله عليه وسلم :

لعينيــك ، قل ان زرت افضل مرسل
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنــزل

ومن أبدع ما قاله فيها :

نبى هــدى قــد قال للـــكفر نــوره
الا أيهــا الليـــل الطويل الا انجل

تلا سورا ما قولها بمعارض

اذا هى نصته ، ولا بمعطل

وبعد أن يورد ثلاثة أبيات أخرى بعد هذين البيتين يقول : وقد تلاعب الشعراء بتضمين هذه القصيدة ، فمن ذلك قول أبى منصور العبدونى :

أكتاب ديوان الرسائل ما لكم

تحملتم بل متم بالتحمل

وارزاقكم لا تستبين رسومها

لما نسجتها من جنوب وشمال

اذا ما شكا الافلاس ، والضر بعضكم

تقولون لا تهلك اسى وتجمل

خلقتم على باب الأمير كانكم

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ومما كتب به الصلاح الصفدى الى ابن نباته :

افى كل يوم منك عتب يسوءنى

كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويورد الأبيات التى رد بها ابن نباته ·· ثم يورد بعض القصائد الدعابية التى ضمنها أصحابها أعجاز هذه المعلقة ، كقصيدة فخر الدين بن مكانس ، كما يذكر قصيدة لأبى الحسين الجزار يشكو فيها حاله ، وقد ضمنها أعجاز قصيدة أخرى لامرىء القيس نذكر منها قوله :

قفا نبك من ذكرى قميص ، وسروال
ودراعة لى قد عفا رسمها البالى

وما أنا من يبكى لأسماء أن نأت
ولكننى أبكى على فقد امالى

لو ان امرأ القيس بن حجر رأى الذى
أكابده من فرط هم وبلبال

لما مال نحو الخدر ، خدر عنيزة
ولا بات الا وهو عن حبها سالى

وهو يذكر تضمينا لعدد من الشعراء « منهم : ابراهيم الصولى ، والصاحب بن عباد ، وابن نباته ، والحيص بيص وأبو بكر الخوارزمى ، وأبو فراس الحمرانى ، وكشاجم والعفيف التلمسانى ، وابن عبد ربه ، وابن حجلة ، وابن الوردى .. وسواهم . ويذكر المقرى التلمسانى قصيدة أخرى قد ضمنت أعجاز قصيدة لامرىء القيس ويعزوها خطأ الى حازم القرطاجنى .. ثم لا يلبث أن يكتشف خطأه ، فينسبها الى صاحبها ، والقصيدة .. أولها :

أقول لعزمى أو لصالح أعمالى
الا عم صباحا ايها الطلل البالى

اما واعظى شيب سما فوق لمتى
سمو حباب الماء حالا على حال

القصيدة طويلة وجيدة .. يذكرها المقرى ثم يعقب على نسبته لها لحازم بقوله : « هكذا وجدت بخط أعلام مراكش نسبة هذه القصيدة لأبى الحسن حازم المذكور ، واعتمدت على هذه

النسبة ثم بان لى خطؤها ، وانما هذه القصيدة من نظم الفقيه العلامة أبى بكر بن جزى الكلبى الغرناطى ، حسبما نص على ذلك غير واحد » . وقد توفى ابن جزى سنة خمس وثمانين وسبعمائة بعد أن قضى حياة حافلة بالعلم والعمل فتولى قضاء الجماعة بغرناطة كما كان أستاذا وخطيبا بجامع غرناطة .

نخرج من ذلك الى أن حازما ليس أول من ابتدع فن التضمين وانما سبقه عدد من الشعراء المشارقة ، والمغاربة ، ولـكن الذى نرجحه أن حازما هو أول من احتدى الى تضمين معلقة امرىء القيس ، وقد اتبعه الشعراء بعد ذلك ، كما أنه أول من صرف معانيها عن المجون والغزل الى مدح الرسول ، واتبعه ابن جزى فى عمله الذى عزى الى حازم .. وحق لبعض الباحثين أن يعزوه اليه ، لأن حازما اشتهر بقصيدته السالفة شهرة جعلت بعض الأدباء يشك فى أن أحدا سوى حازم يمكن أن يصدر عنه مثل هذا العمل . وقصيدة حازم السالفة الذكر تقع فى تسعة وسبعين بيتا يبدؤها بمخاطبة نفسه حاثا لها على زيارة طيبة ، وروضة الرسول ، معاتبا نفسه على تقصيرها ، ثم يأخذ فى مدح النبى ، يتحدث عن خـلاله العظيمة فهو :

نبى هـــدى قد قال للــكفر نوره
ألا ايها الليـل الطـويل ألا انجل

تلاسـوراما قولهـــا بمعـــارض
اذا هى نصـــته ، ولا بمعطـــل

لقد نزلت فى الأرض ملة هديــــه
نزول اليمـانى ذى العيـاب المحمل

أتت مغـربا من مشـرق ، وتعرضت
تعرض أثناء الوشـــاح المفصـــل
ففـازت بـلاد الشـرق من زينة بها
بشــق ، وشــق عندنا لم يحول
فصلى عليـــه الله ما لاح بـــارق
كلمع اليـــدين فى حبى مكلل

ثم يأخذ فى سرد المواقع التى خاضها الرسول وصحبه مدافعين عن الدين ، ذائدين عن حماه .. كموقعة بدر ، وحنين ، كما يصف جياد المسلمين المطهمة :

جياد أعادت رســم رســتم دارسا
وهل عند رسم دارس من معــول
وربعت بهـا خيـل القياصر فاختفت
جواحرهـــا فى صرة لم تزيل

هذه الخيول التى سبا فرسانها العديد من سبايا العرب **والفرس ، والروم ، ويعثروا الهامات فكأنها « بأرجائها القصـوى** أنابيش غصل » .

ويأخذ فى وصف الجيوش الاسلامية :

وجيش بأقصى الأرض ألقى جــرانه
وأردف أعجـــازا ، ونـــاء بكلكل
يدك الصـــفا دكا ، ولو مر بعضـــه
وأيسره على الســتار فيـــذبل
دعا النصر ، والتاييد راياته اسـحبى
على اثرينـــا ذيـل مرط مرحـــل

ويثني على أصحاب الرسول ، فهم :

حكى طيب ذكراهم ، ومر كفاحهـــم
مـداك عروس أو صـــــلاية حنظل

وحازم يحن الى مدح الرسول معرضا عما يفعله غيره من حنين الى العذارى ، وملاهى الصبا .. وان أمله لكبير فى أن يشـفع له لتمحى عنه خطاياه :

ينادى : الهى ، ان ذنبى قـد عـدا
على بأنــواع الهمـــوم ليبتــلى

فكن لى مجيرا من شـــياطين شهوة
على حراص لويســـرون مقتـــلى

وهو يخاطب دنياه قائلا :

فان تصـلى حبلى بخير وصـــلته
وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

واحسن بقطـع الحبل منك ، وبيتـه
فســـلى ثيابه من ثيـــابك تنسل

وينهيها مفاخرا بقصيدته ، موجها الخطاب الى السامعين والمعرضين عن السماع أيضا ، فيقول :

أيا سـامعى مدح الرسـول تنشقوا
نسـيم الصبا جاءت بريا القرنفـــل

وروضـــة حمـــد للنبى محمــــد
غـــذاها نمير المـــاء غير المحـــلل

ويا من أبى الاصـفاء ما أنت منتـه
وما ان ارى عنـك الغـواية تنجلى

فلو مطفـلا انشـدتها لفظها ارعوت
فألهيتهـا عن ذى تمـائم محـول

ولو سمعته عصـم طود أمالها
فانزل منهـا العصـم من كل منـزل

وبالرغم من أن مثل هذه القصائد هى من عمل العقل غالبا ، الا أن الشاعر قد وفق الى اختيار المعانى الملائمة ، والمناسبة لاعجاز قصيدة امرىء القيس ، وتطويع تلك الأعجاز للمعانى الجديدة التى أرادها ، ولا تخلو القصيدة من بعض الصور والتعبيرات الرائعة كقوله :

« ونادوا بنـات النبع بالنصر أثمرى » وهو معنى أولع به حازم .. وكرره فى أكثر من قصيدة كقوله :

« وبـلدة قد عقمـت عيدانهـا
فما سـوى النبع لها من مجتنى »

وهو مأخوذ من قول البحترى :

وعيرتنى سـجايا العدم ظالمـة
والنبـع عريان ما فى غصـنه ثمر

وكقوله :

حكى طيب ذكراهـم ، ومر كفـاحهم
مـداك عروس أو صـلاية حنظـل

بل استطاع حازم أن يفرع من معنى امرىء القيس معنى آخر، .. فجعل طيب ذكراهم يشبه رائحة مداك العروس ، ومر كفاحهم يشبه مرارة الحنظل ، وهذا ما لم يقله امرؤ القيس . وفى القصيدة حركة واستحضار لجو القتال ، كتصويره لفرار ابن عوف من المعركة وقوله :

يا ليـــل الوغى طلت ، فانبـــلج
بصبح ، وما الاصباح منك بامثل

فليت جوادى لم يسر بى الى الوغى
وبات بعينى قائمـا غـير مرسل ..

وعاطفة حازم فى القصيدة هادئة ، لذا قلت الصور المبتكرة، والكلمات المتوترة ، فى القصيدة .. كما أن فخره بعمله الشعرى فى نهاية القصيدة يجعلنا نحس بأن حازما لم تكن العاطفة الدينية هى الباعث له على النظم ، وانما الرغبة فى تطويع قصيدة امرىء القيس للغرض الدينى .. اظهارا لاقتداره على ذلك .

وقصيدته التى هى رسالة بعث بها مع حاج الى قبر الرسول .. أكثر صدقا دينيا فى اعتقادى .. يبدأ حازم هذه القصيدة بقوله :

قف بين قبـــر محمـــد ، والمنبـــر
وقل السـلام على السراج الأنـــور

والثم ثـــرى قبـــر النبى محمـــد
وبـذلك العفـــر الأســـرة عفـــر

واحمـــل تحيـــة حازم بن محمـد
لمقـــامه الأعلى الشريف الأكبـــر

ففى القصيدة حب طاغ .. وتواضع .. وتوسل ، وطلب للمغفرة .. كقوله :

وقل السـلام عليك يا خير الـورى
من عبـدك الأدنى الضعيف الأصغر

من مرتج بك فتـح باب مرتـج
مـن أوب تـوب بالقبـول مبشر

ويبرز تواضعه واضحا فى وصـفه لنفسه .. بأنه عبده الأدنى .. الضعيف .. الأصغر . كما يدعو الحاج الذى يحمل معه أشـواق حازم الى أن يمتع بصره بالنظر الى موطن سجود الرسول ، ومحل قيامه ، والهالة التى تحيط بقبره :

وانظر بمسجده محـل سـجوده
والى مقـام قيـامه فيـه انظـر

وانظـر لأكـرم هالة قد أحدقت
أنوارها بضـياء بـدر مقمـر

وينهيها بهذا الدعاء .. مشيرا الى ما كان من الرسول من قضاء على الشرك ، وتبديد لظلماته فيقول :

صلى عليه الله ما صـدع الدجـى
بضيائـه فلـق الصـباح المسفر

ولحازم قصيدتان فى رثاء الحسين رضى الله عنه ، نظمها فى مراكش معارضة أو تذييلا لبيتى ابن الجوزى اللذين أنشدهما الشريف نجم الدين بن يونس الحسنى بحضرة مراكش فى أيام رشيد بنى عبد المؤمن يوم عاشوراء ، وطلب من الشعراء التذييل

فكان ممن شـــارك فى ذلك ابن القطان ، وأبو بكر الغزارى وابن الحناط ٠٠ وأبو الحسن حازم وأخوه أبو على ، وآخرون ٠٠ وبيتا ابن الجوزى قالهما ارتجـــالا حين ليم على الاكتحال يوم عاشوراء ٠٠ والبيتان هما :

ولائـــم لام فـى اكتحـــالى
يوم استحلوا دم الحســـين

فقلت دعنـــى أحـق عضـــو
يحظى بلبس الســـواد عينـــى

وأبيات حازم الأولى وهى خمسة أبيات قد قالها ارتجالا ٠٠ وأولها :

اما تراهـــا تســـح دمعـــا
كـأن عينـى بكـــت بعـــين

والدمع ممـــا يـــدل ان الحـداد للحـزن لا لزيـن

وليس فى الأبيـات صورة مبتكرة ، أو معنى جديد ٠٠ وانما هى شرح لما جاء فى بيتى ابن الجوزى ، مع تعمد المجانسة فى قوله :

حبـــب لـــون الشـــباب عنـدى
وصحف الشـــيب لى بشـــين

حتى كـــأن المشـــيب صـــبح
ســـقى حســـينا كئوس حسين

ويبدو أن حازما لم يرض عنهذه الأبيات، فنظم قصيدة أخرى تقع فى تسعة وعشرين بيتا ٠٠ من نفس الوزن والقافية ، ولكنهـا

أكثر عمقا ، وأوفر صدقا ، وفيهـا يتجلى حبه للحسين ، وتأثره بمأساته ، وسخطه على قتلته ، والتمثيل به ، وصفاته التى يسبغها على الحسين تدل على حبه له ·· فهو « ابن البتول » الطاهر ابن المطهرين » ، « ورزؤه بكربلاء ·· فرق بين الكرى وبينى» ، وبالطف بكته العيون ، كما بكته الطبيعة بعيون «المزن»·

بالطف يومـا بكته منـا ومن حيا المزن ·· كل عين

ووجهه كالسراج المنير ، ولو رأى أباه على مصرعه :

لراع منـه العـدا هزبر خضـيب كـف ومخلبين
ولـو رنـا جـده اليـه وهو خضيب الذؤابتـين
لجالدت دونـه سيوف ما أرهفتهـا يمين قيـن

وهو يدعو بالهلاك على ابن « حرب » اليزيد بن معاوية ، كما يدعو بالشقاء لنجل سعد قاتله ، ويذكر بتحسر نقر يزيد لثنيتي الحسين ·· بفرع غصن كان فى يده ، حين شهد مصرعه ، فهو :

لـم يـرع لثـم النبى تلـ
ك الثنيتين السـنيتين

وينهى القصيدة بجزء متكلف ، ليس فى مستوى الجزء الأول من القصيدة ، اذ حاول فيه أن يصوغ معنى ابن الجوزى ، فاطال ، ولو اكتفى بهذين البيتين :

لا برحت ما حييـت عينى تسـيل للدمـع واديـين
وتكتسى للأسـى حـدادا يلبس جفنـى سـدفتين

لوفى معنى ابن الجوزى حقه ، وصان قصيدته من التكلف ، والتكرار ، الذى نراه فى قوله :

لو كان من مقلتــــى فيـــه على السوادين مســعدين
خضـــبت منهـــا ما ابيض حزنا ما اســود من لون مقلتيـــن

ويضمن بعد ذلك بيتى ابن الجـــوزى ، ولم يكتف باعادة صياغتهما ، فى أكثر من تسعة أبيات ، مما يدل على عجز حازم عن تمثل معنى ابن الجوزى ، والقدرة على صياغته فى أسلوب سهل ، فصال ، وجال ، ولم يوفق ٠

أنظر الى تهافته فى قوله « ما اسود من لون مقلتين » والأفضل أن يعرف المقلتين لأنهما مقلتاه هو لا مجرد مقلتين لأى انسان ، ومن الأبيات المتهافتة قوله :

نور الهدى غاب عن عيـــون اذ حان للسـبط يـوم حـين
والعين ثكلى لم « تبد » كحلا للحســـن كلا ، ولا لزيـــن

فالتعبير بلم « تبد » تعبير يخلو من التوتر الشعرى « وكلا » مقحمة لاقامة الوزن ٠

ومن الشعر الدينى أيضا عند حازم ٠٠ تسبيحتان ، أولاهما تقع فى تسعة وعشرين بيتا ، وفيها تبدو حرارة عاطفة الشاعر ، فهو يبدؤها بتسبيح الله الذى سبح له كل شىء :

سبحان من سبحته الشــهب والفلك
والشمس والبدر ، والاصباح والحلك

واللوح والقــلم العلوى ســـبحه
واللوح والعـرش ، والكرسى ، والملك

ثم يأخذ فى ذكر صفات الله ، فهو :

لم يشترك معه فى علمه احـــــد
وجـــوده فيـه كـل الخلق مشترك

والعقول قد عجزت عن ادراكه ، وعجزها هذا ادراك منها بأنه فوق كل ادراك ٠

ثم يأخذ فى طلب العفو والغفران من الله متعجبا من حال الانسان الذى ينهى عن المعاصى فلا ينهى ، والعمر يمضى ، وكل نفس يتنفسه الانسان هو جزء ينقضى من عمره ويذهب :

عجبت ممن بـدت للشيب ضـاحكة
فى فوده ، كيف يلهى نفسه الضحك

العمـر مرحـلة ، والمـرء فى سـفر
فى كل حين الى الأخـرى له رتك

تقطيع انفاسـه قطـع لأزمنــــة
بمرهــا مــرر الجثمـان تنبتك

ثم يأخذ فى دعوة نفسه الى هجر ما يفنى الى ما يبقى :

دنيـاك تفنى ، وما الأخرى بفانيـة
فانظر لنفسـك ما تاتى وتتـــرك

فاطلب بما ينقضـى ما لا انقضاء له
واختـر لنفســك ما تعطى وتمتلك

كما يدعوها الى اللحاق بطائفة المخلصين لله فى العبادة ، هؤلاء الذين سخوا بدنياهم ، حرصا على دينهم ، والغنى عندهم

هو بذل ما لديهم من غنى ، استوى عندهم الترف . والشظف ، يغسلون خطاياهم بما ينزفونه من دموع ، والواحد منهم :

يضيء في هالة المحراب بدر هـــدى
تنجلي عنه أسداف الدجى الحلك

والقصيدة تنضح بروح الاخلاص ، والصدق ، وتمتاز بجمال التعبير الذى يخلو من التكلف الا فى القليل من القوافى التى اضطر اليها اضطرارا ·· كقوله : « ما لاتنقى الشكك « جمع شك « وليس يمتســك » ·· وفى القصــيدة معان عميقة مما تميز به فكر حازم كقوله :

سبحان من عجزت عنه العقول فلم
تدركـه ، والعجز عن ادراكـه درك

وقوله :

تقطيع انفاســه قطـع لأزمنــة
بمرهـا • مرد الجثمـــان تنبتـــك

ومن الأبيات الجميلة هذا البيت جاء سهلا ، مؤثرا ، رغم لجوء حازم الى اشباع رغبته فى تجميله بلونين من البديع ، هما : الطباق ، الذى يكاد يلتزمه فى شعره ، والتقسيم ، والبيت هو :

ادني، وأبعــد ، فالأتقــى له درج
الى الســعادة والأشــقى له درك

ومن الأبيات الجميلة أيضا قوله :

والحق بطائفـــة بالحـــق طائفـــة
واسلك سبيلهم فى كل ما سـلكوا

سخوا بدنياهم شحا بدينهم
فكان ما أخذوا فوق الذى تركوا!

وقوله :

من كل ماح خطاياه بأدمعه
فحمرها فى اصفرار الخد تنسفك

وما أروع وصفه للخد بالصفرة ، دليل الافراط فى العمل والعبادة ، والدمع بالحمرة لامتزاج الدموع بالدماء ٠

أما تسبيحته الثانية ، فهى تقع فى واحد وثلاثين بعد المائة من الأبيات ، وهى من بحر البسيط الذى نظمت منه قصيدة البردة للبوصيرى ، وقصيدة الفرزدق التى مدح بها على بن زين العابدين ، وهى القصيدة الرائدة التى اقتفاها كل شعراء المدائح النبوية فى الغالب ٠ وتسبيحة حازم تدور حول ثلاثة أفكار ، الفكرة الأولى : تسبيح كل الكائنات لله ، ودينها له بالطاعة :

سبحان من سبحته السن الأمم
تسبيح حمد بما أولى من النعم

سبحان من سبحته ألسن عرفت
بأن تسبيحه من أفضل العصم

سبحان من سبحته الوحش باغية
والطير ناغمة مفتنة النغم

وتستغرق هذه الفكرة ثمانية عشر بيتا ، ثم يلى ذلك حديثه عما أبدعه الله من مخلوقات ، فهو من فجر الأنهار ، وأنشأ السحب ، وأرسل الرياح لواقح ، ومد ضروع السحاب لترضع النبات وهو الموجد والمعدم ، والمقدر أجل كل شىء :

سبحـان من كل شيء عنـده لمـدى
مثـل الشبـاب الذى يفضى الى الهرم

سبحـان من جعل الدنيا وصورتهـا
مثـل الخيال سرى والعيش كالحلم

ويعبر عن فكرته هذه ، فى ثمانية وثلاثين بيتا ، ثم يأخذ فى الحديث عن صفات الرسول ، معددا معجزاته ، مستفيدا بالقصص والأساطير الدينية دون اغراق ، فهو يذكر رد الرسول لعين قتادة فأصبحت أقدر على الأبصار من عينه التى لم تصب ٠ كما يذكر من معجزاته انتقال الشجرة من مكانها ، وسيرها الى الرسول لتهديه التحية ، والجذع الذى بكى حنينا على فراق الرسـول له ٠٠٠ يقول حازم فى ذلك :

سبحان من قد أرى الشـجراء ماشية
تهـدى السـلام اليه مشى ذى قـدم

سبحان من قد أرى جزعـا لفرقتـه
يبدى حنين حليف الشـوق ملتزم

سبحان جاعل نطـق الذئب معجـزة
شهيرة اسمعت من كان ذا صـمم

ثم يأخذ فى ذكر مشاعر الحج ، وما ينتظر الحجاج من نعم كثيرة ، فعند الحطيم تتحطم آثامهم ، ومن ماء زمزم يشفى عليلهم ، ويروى غليلهم ، وفى منى تدنو لهم الأمانى ، ويستقبلهم الصفا ، وقد صفت نفوسـهم ، وحين ينفرون تنفر عنهم كـل الآثام ٠٠ ويستغرق ذلك الحديث عن الحج ومشاعره ٠٠ وما ينتظر الحجاج من غفران قرابة أربعة وتسعين بيتا ، وينهى القصيدة بالصلاة على الرسول ، طالبا من الله أن يجعل الرسول شفيعه يوم القيامة :

وخصـــنا باعتنـــاء من شـــفاعته
في مشــهد بازدحام النـــاس محتدم

ومـد ظـــلا علينـــا من كرامتــــه
في موقف باقتــراب الشمس مضطـرم

وامنن بما ترتجيه منـك أنفسنـــــا
وانفــع بما قلت من نظـــم ومن كلم

والقصيدة يلتزم حازم فى مائة بيت من أبياتها افتتاح كل بيت « بسبحان » ·· وهذا الالتزام لم يعرف عند شاعر قبل حازم فيما أظن ، فقد رأينا شعراءيفعلون مثل ذلك فى عدد قليل من الأبيات ·· كابتداء وضاح اليمن لاحدى قصائده بقوله : قالت « التى كررها فى سبعة أبيات » قالت ألا لا تلجن دارنا » قالت فان البحر من دوننا ، « قالت فحولى اخوة سبعة » ، الى آخر ذلك ·· لكن أن يلتزم التكرار فى مائة بيت فهذا ما لم نره عند غير حازم ، كما يتجلى فى هـذه القصيدة اتســاع ثقافة حازم ، فهو على علم كاف بفروع الدراسات الدينية ، وعلى المام بمعجزات الرسول : ما اشتهر منها ، وما لم يشتهر · وفى القصيدة بعض النظريات والتعبيرات التى تدخل فى مجال الفلسفة كقوله :

سبحان جاعل كون الشيء عندهـــم
كغير شيء اذا ما الشيء لم يـــــدم

سبحان من جـــل عن ند ، ونزه أن
يعزى لأين ، ولا كيف ، ولا لكـــم

سبحان من كان والأكوان ليس لهـــا
كون ، ومن سبق الأزمان بالقـــدم

وكايمان حازم بقيمة الفعل ، واعتقاده كبعض الفلاسفة ، مثل ابن طفيل ، أن عقل الانسان يمكن أن يهديه الى الايمان بالله دون حاجة للأنبياء .. يقول حازم فى ذلك :

سبحان من بدليل الوحى زاد هدى
من اهتدى بدليل العقــل والفهــم
سبحان من شــاء امداد العقول بمـا
أوحى الى رســله فى الأعصر القــدم

والجانب العقلى فى القصيدة يرجح الجانب العــاطفى ، لذا قلت فيها الصور الخيالية والتعبيرات المتوترة .

ولحازم مقطوعة قصـــيرة ، لا تتجاوز أربعة أبيــات ، تنبض بالعاطفة الصادقة ، وتمتاز بالايقاع العذب الصادر من التكرار ، كما فى عجز البيت الأول :

من قال حســـبى من الورى بشــر
فحســبى اللــه ، حســبى اللــه

ورد الصدر على العجز ، كما فى البيت الثالث :

لولاه لم توجد السماء ، ولا الأرض ، ولا العالمون .. لولاه

مع تكرار حرف النفى « لا » ، ومراعاة المطابقة بين الأرض والسماء . كما تتميز بالسهولة والعذوبة ، والوضوح ، كما فى قوله :

كم آية للالــه شـــاهدة
بانــه لا الـــه الاه ..

أما في مجال شعر الزهد ، فليس لحازم سوى مقطوعة قصيرة ، وبضعة أبيات مفرقة في نهاية مقصورته ، والمقطوعة تمتاز بعمق النظرة ، والتأمل ، كما تحتوى على نظرات فلسفية عميقة ، فالأيام التي تمر من عمر الانسان هي خطوات يقطعها الى منهل الموت ، وللانسان وجود أول ، وهو وجوده في الحياة . ووجود ثان أبقى وأخلد ، هو وجوده في العالم الآخر · ويدعو الانسان الى ألا يأسف على « فراقه الدنيا » فان في الآخرة ما يشغله عن ذلك ، وينهيها بطلب رضا الله · وللأبيات تأثير في النفس رغم اعتمادها على التعبيرات الواقعية ، والبعد عن الصور الضاربة في أعماق الخيال ، ومن أبياتها قوله :

لم يدر من ظن الحياة اقامة	**أن الحياة تنقل ، وترحل**
في كل يوم يقطع الانسان من	**دنياه مرحلة ويدنو المنهل**
فاذا يفارق دار منشأه امرؤ	**فله الى دار المعاد تنقل**
ووجوده الثاني يبلغه الى	**ما لا يبلغه الوجود الأول**

هذه هي خلاصة ما نظمه في الغرض الديني ، ومنه يتضح أن عاطفته الدينية هادئة عاقلة ، يسيطر عليها الفكر ، والعقل ، ولا نشعر فيها بوجد الصوفية وشطحاتهم ، أو صدوف الزاهدين عن الدنيا ·· ، فنظراته الدينية تقتصر على تمجيد الله وتسبيحه ، والتذكير بما له في العالم من آيات ··· أو الحنين الى زيارة قبر الرسول ، مع الاشادة بأعماله ، وفي مقدمتها معجزاته وغزواته ·· وأبياته في الزهد تقتصر على تفضيل الآخرة على الدنيا ، والدعوة الى عدم الحزن على ملاذها ، ومسراتها · وشعره الديني يعتمد على الأساليب التقريرية وندرة الاعتماد على الصور الخيالية ، لسيطرة التفكير عليه ·

الفصل الثانى

الأفكار والمعانى

لقد تبينا فى كثير من المواضع عمق دراسات حازم ، وقراءاته ، لذلك جاءت معانيه وأفكاره عميقة ، رحبة الجوانب ، متأثرة بما قرأ ، من آيات أو أحاديث نبوية ، أو أمثال عربية ، وحكم تلخص تجاربه وتجارب الحكماء ونظراتهم فى الحياة ، كما نجد له بعض التعبيرات الفلسفية ، والألفاظ المنطقية ، الى جانب معانيه المستمدة من علم النحو ، وغيره ، مما درسه حازم ، وتأثر به ، وقد سقنا العديد من الأمثلة · ونذكر فى هذا الصدد بعض الأمثلة أيضا من شعره : فمن اشاراته التاريخية التى تدل على علمه بأيام العرب ووقائعهم قوله :

لو أن غسانا رأته أنسيت — **يوم السباسب فى الزمان البائد**
وعهود جلق اذ تحييهم بها — **وسط القصور الحمر بيض ولائد**

أو قوله مادحا أبا زكريا ، ومهنئا له بقدوم ابنه أبى يحيى :

وتواضعت شم المعاقل هيبة — **من كل دان منك او متباعد**
وأذل عز الأبلق الفرد الذى — **أخذ التمرد عن أخيه مارد**

ومن المعـانى الكثيرة التى استمدهـا من معين القرآن الذى لا ينضب ٠٠ قوله :

واسعد بزهر كواكب أطلعتهـا يقـذفن دونك كل غاو مـارد

ففى البيت اشارة الى ما ذكره القرآن الكريم عن الشهب ، التى تقذف بها الشياطين ٠٠ كقوله تعالى : « وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » ومن صور تأثره بالقرآن الكريم ٠٠ قوله : « وأبت ونور الله يسعى أمامكم ٠٠ » وهو من قوله تعالى : « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ٠٠ » ٠

ومن الحكم التى يحجل بها شعره - على حد تعبيره - والتى أثنى على المتنبى لأنه يكثر منها فى شعره ، قوله :

ورجيت فيـه الدهر من حيث خفتـه
كـذا الدهر مخشى ، مرجى عواقبـه

وقوله :

وللصبر فى كل الأمور مـآل من
ارتـه مغبـات الأمـور تجـاربه

والحكم فى شعر حازم أقل منها فى شعر المتنبى ، كما أنها أكثر بساطة ، وأقل عمقا ٠٠ وتأثر حازم فى معانيه بالشعر التراثى تأثر واضح ٠٠ نلمسه فى اشاراته الكثيرة كقوله :

تلقى بهـا للمجد أرفـع رايـة
فأعرب عن دعوى عرابة فى المجـد

ففى البيت اشارة الى بيت القائل :

اذا ما راية رفعت لمجد
تلقاها عرابة باليمين

ولكن حازما حين ينقل معانى الآخرين أو صورهم ، فانه يحاول أن يضيف اليها ، ويزيد فيها ما يجعله يتفوق على السابق - فى الغالب والكثير - من ذلك قوله :

فلأن تقدمك الملوك ، فمثلما يتقدم الاصباح فجر كاذب
فلأنت بحر ، والملوك جداول ولأنت شمس ، والملوك كواكب

فلقد مهد للمعنى الذى أخذه من النابغة بتصوير حال ممدوحه مع الملوك السابقين بحال الصبح الذى يتقدمه فجر كاذب ٠٠ وفى البيت الثانى الذى نظر فيه الى النابغة ؛ نجده قد آخرج المعنى فى صورة ثانية هى « فلأنت بحر والملوك جداول ٠٠ » وهى وان كانت تكرارا للصورة التى ذكرها النابغة الا أن فيها تأكيدا للمعنى ، وابرازا له فى صورتين متغايرتين ٠ ويمدح حازم أبا زكريا يحيى فيقول :

غمام لعافيه حياة ، وفى العدا صواعقه مرفضة ، وحواصبه

فتحس أنه ينظر الى ما قاله البحترى :

وصاعقة من نصله تنكفى بها على أرؤس الأقران خمس سحائب

ولكن حازما أكثر شاعرية من البحترى ٠٠ اذ نجد الصنعة العقلية فى بيت البحترى واضحة فالصاعقة من نصله ، وتحملها خمس سحائب بعدد أصابع يد الممدوح ، أما حازم فقد جعل الممدوح غماما يحمل الحيا لطالبه ، وصواعق ، ورياحا حواصب ،

على الأعداء ، ففصل المعنى وأضاف اليه ما جعله أجمل ·· ومن الأبيات التى نظر فيها الى سواه قوله فى المقصورة :

نقيد الغصن بقيد فضة ··· قد دار حول الساق منه والتوى

الذى يشبه قول الشاعر :

كأن يدا صاغت هناك لساقه ··· من الفضة البيضاء قيدا مسلسلا

ويفضل الغرناطى بيت حازم ·· على هذا البيت فيقول ، الا أن الناظم استقصى المعنى وزاد فيه فأحسن كل الاحسان · ولقد تتبع الغرناطى حازما فى معانيه التى جاءت فى مقصورته ، ذاكرا الأبيات التى نظر اليها ، وتأثر بها من شعر السابقين ، مبينا ما تفوق فيه حازم على غيره ، وما قصر فيه عنهم · ولحازم بعض المعانى الفلسفية والعلمية التى تتردد فى قصائده كقوله :

فقد أخذت صحيح الملك من سند ··· عال وأحكمته ضبطا واتقانا

ومنتجات قضايا بالخلافة قد ··· قضت لكم، وغدت في الصدق برهانا

وحين أضحت لكم بالحق واجبة ··· لم تلف فيها ملوك الأرض امكانا

هذا هو الحق والبرهان يعضده ··· وانما ينكر البرهان من مانا

لقد أشار حازم فى الأبيات السابقة الى بعض العلوم التى كان ملما بها ، فذكر الحديث وسنده واشتراط الضبط ، والاتقان فيه ، كما ذكر قضايا المنطق ، وشرط الصدق ، والبرهان · وهى مصطلحات منطقية ·· وأشار فى البيت الثالث الى علم التوحيد ، ومن المعروف أن علم التوحيد قد كان يستمد أدلته وبراهينه من الفلسفة ، كما أن علم المنطق جزء منها · وفى حديثه الذى ذكرناه فى أكثر من موضع عن النجوم ، دليل على علم واسع بأحوالها ،

ومواقعها ، كما أشرنا فى الحديث عن المقصورة الى تأثر حازم بعلم النحو ، واستمداده بعض معانيه فى شعره ٠٠ كقوله :

تريك القنا رفضـــا اذا ما نصبتها
الى الطعن فهى الرافضات النواصب

ولحازم معان أثيره عنده ، يكررها فى شعره كثيرا ، من ذلك قوله فى المقصورة :

ومن أسود فى الحديد دونهـا — تشب بالهندى نيران الوغـــى
كم من ظباء فى الحرير دونها — تشب بالهندى نيران القـــرى

اذ كرره فى احدى قصائده ، فقال :

«تشب فى الهندى نيران الوغى» و «تشب بالهندى نيران القرى»

وكتخلصه الرائع فى المقصورة ٠٠ اذ يقول متخلصا من الغزل الى المدح :

فلو تجود قدر ماضنت٠٠حكت — جود أمير المؤمنين المرتجى

فقد كرر معناه فى قصيدة أخرى ٠٠ فقال :

لوقدر مابخلتتجود حكت ندى — كف الأمير محمد ، وسخاءهـا

وراق له تشبيهه الماء بالفضة فكرره أكثر من مرة ، من ذلك قوله فى المقصورة :

كم فضة جامدة أنفقت كـــى — تجرى ذوب فضة وسط الفضا

وقوله :

وفقيد الغصـــن بقيـد فضـــة — قد دار حول الساق منه والتوى

ويعجب كسواه من الشعراء بقول الرسول « نصرت بالرعب » فيكرر هذا المعنى فى أكثر من بيت من ذلك قوله :

جيش جيوش الرعب من قدامه تسرى وتغزو قبله من قد غزا

وقوله فى قصيدة أخرى :

امام بجيش الرعب يغزو عداته فلوشاء لاستغنى عن الجحفل المجر

ويتأثر ببيت البحترى « وصاعقة من نصلـه .. » البيت ، فيكرر ذلك فى أكثر من قصيدة ..

كقوله :

فبجوده ترجو العفاة حياتهـا وبباسه تخشى العداة هلاكهـا

وقوله :

غمام لعافيه حياة ، وفى العدا صواعقه مرفضة ، وحواصيـه

ومن الصور التى كررها تشبيهه الفرسان بأسود مخالبهـا الرماح والسيوف ، فنجده يقول :

أسد غيل مالها غير العوالى من براثن

ويخرجها فى ثوب آخر فيقول :

وتحت مثار النقع آساد غابـة لها من نصول السميرى مخالب

ويروق له تشبيه الخليفة بعدد من صور التشبيه المتلاحقـة فيذكر ذلك فى المقصورة فيقول :

صبح بدا، بدر هدى ، طود علا بحر حلا ، غيث همى، ليث سطا

كما يذكره في قصيدة أخرى له بما لا يخرج عن الصفات أو التشبيهات السابقة ، فيقول :

صبح الهدى ، بدر الدجى ، غيث الندى
ليث الوغى ، الساطي بكل مدجج

ولا يغض هذا التكرار من قيمة حازم الفنية ، فلكل شاعر خصائصه الأسلوبية ، والفكرية التي ينفرد بها عن غيره من الشعراء ·· والذى يمكن أن نأخذه عليه أنه في بعض الأحايين ·· يسرف في تشقيق المعنى وتفصيله ، حين يعجب به ·· وهو في هذا شبيه بابن الرومى الذى اشتهر باستيعاب المعنى وتفصيله ، وحين يلجأ حازم الى هذا التشقيق والتفصيل نحس أنه خرج بنا من دائرة الفن الذى يخاطب الوجدان ·· الى دائرة قريبة من دائرة العلم الذى يخاطب الذهن · من هذه التشقيقات حديثه عن محبوبته التى تشبه الشمس ، والتشبيه بالشمس تشبيه مألوف معتاد ·· ولكن حازما يبدو أنه يريد أن يولد منه شيئا جديدا أو يضيف اليه ما يجعله مبتكرا جديدا ·· فنجده يسرف فى الحديث عن الشمس ، فالشمس قد توارت قبل وقت غروبها ، لأن حبيبته قد رحلت ، وكم أشرقت الشمس خلال الدجى قبل ذلك ، حين كانت تزوره محبوبته في الظلام ، والرقيب يشك حين يرى حبيبته ، أو يرى الشمس ، فلا يدرى احداهما من الأخرى ، فيظن الشمس قد عادت ودولة الميل قد دالت « والشمس ما ردت لغير يوشع » ·· ولنذكر الأبيات ·· يقول حازم :

لله ما قد هجت يايوم النوى	**على فؤادى من تباريح الجوى**
لقد جمعت الظلم والاظلام اذ	**واريت شمس الحسن في وقت الضحا**
فخلت يومى اذ توارى نورها	**قبل انتهاء وقته ـ قد انتهى**

وما تقضى عجبى من كونهـــا غابت وعمر اليوم باق ما انقضى
وكـم رأت عينى نقيض ما رأت من اطلاع نورها تحت الـدجى
فيالهـــا من آيـــة مبصرة أبصرها طرف الرقيب فامترى
واعتورته شبهة فضل عـــن تحقيق ما أبصره ، وما اهتدى
وظن أن الشمس قد عادت له فانجاب جنح الليل عنها وانجلى
والشمس ماردت لغير يوشـع لما غـــزا ، ولعلى اذ غفـــا

ان هذا المعنى الذى صاغه حازم فى قرابة سبعـة أبيات . لخصه المتنبى فى بيت واحد رائع ، اذ قال :

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء اذ حيث كنت من الظلام ضياء

ومن خصائص حازم أنه يمزج السار بالمؤلم ليدفع الملل عن المتلقى ٠٠ كما يحاول أن يعقب بالأمل والرجاء على اليأس والقنوط ٠٠ كقوله :

قد كانت الأيام تســمح بالمنى وتنيل قبل سؤالها آلاءهــا
حتى اقتضت شيم التنقل أن ترى مسترجعات رفدها وحباءها
وتعاقب الأضداد يقضى أنها ستديل من ضرائها سراءهـــا
والدهر نقلته ، وان هى كدرت شرب النفوس فقد تتيح صفاءها
فيسوؤها طورا بما قد سرهـا ويسرها طورا بما قد ساءهـــا
فترج من عطف الليـالى كسرة فلكم جلت بسرورها غماءهـــا

ويؤكد حازم فى منهاجه ايثاره لهذا الأسلوب الذى يأتى فيه الشاعر بالشاجى مازجا بين السار والمؤلم ٠ « مبتدئـــا بالمؤلم ، منتهيا بالسار الذى يدعو النفس الى الرجاء والأمل ، يقول حازم فى ذلك : « ويجب أن تؤنس النفوس عند استجمامها من توالى المعانى التى من شأنها أن تقبضها ، بمعان يناسب بينها وبين تلك مما شأنه

أن يبسطها ٠٠ » وذلك في غير الرثاء ٠ وهو يرى أن المتنبى يكثر من ذكر الأمور الشاجية ، وهى الأمور التى تعقب فيها الوحشة الأنس ، والكدر الصفاء ، نحو اعقاب التنعم بالحبيب بالتألم لفراقه، والتنعم بالشبيبة بالتألم لفراقها ، وحازم فى صنيعه يتفق مع المتنبى فى ايثار اللون الشاجى ، ولكنه ينفرد عنه بأن يعقب على المؤلم بالسار ، وهذا مما استفاده من تجربته الخاصة فى الشعر والحياة ٠ والقصيدة عند حازم منظمة ، مرتبة الأفكار ، كل فكرة تعتمد على سابقتها ، وترتبط بها ارتباطا عضويا متينا ، لا يشعر معه المتلقي بفجوة أو قلق ٠٠ وذلك ناشىء عن هندسته العقلية للقصيدة قبل نظمها ، ولكي يتجنب أن يأتي عمله الفنى من صنيع الذهن والفكر ، فانه يمزج بين التخيل والاقناع ٠٠ ويراوح بين الأفكار ، مع تنويع الأسلوب الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، وفى المقصورة خاصة ، نجده يتحدث عن غرض المدح ٠٠ ثم ينصرف عنه فى تدرج الى غرض آخر كالوصف أو الغزل ، ثم يعود تلقائيا دون تعمد ، الى المدح مرة ثانية ٠٠ وبهذه المراوحة بين الأغراض والمعانى ، أمكنه دفع الملل عن المتلقى ، وعمل على تجديد نشاطه ٠

وحازم يميل فى المدح الى المبالغة ٠٠ وبخاصة مدح الملوك الذين « ينبغى أن يتخطى فى أوصافهم حدود الاقتصاد الى حدود الافراط » ٠ فنجده يقول فى ممدوحه :

تكامل فيه الفضل،وانتهت العلا ... تبارك معطيه الكمال وواهبه

أو قوله :

يهدى الجيوش اذا سرت لألاؤه ... فكأن فى مسراه بدرا مقمرا

أو حين يقول لممدوحه : ان الله قد خلقك كما تهوى :

حباك خلقا وخلقا اذ براك كما تهوى،وطبعا على ماشئت منطبعه

والثريا تتمنى أن تكون نعال الممدوح ، والهلال يتمنى لو كان شراكا لهذه النعال :

من للثريا ان تكـون نعالـــه من للهلال بان يكون شراكهـا

وعلى كل ، فالمبالغات ليست تشكل ظاهرة فى شعره ، وانما هى أبيات قليلة نجدها فى غرض المديح الذى حبذ فيه أن يقع مثل ذلك .

الفصل الثالث

الأسلوب

١ ـ الألفاظ والتعبيرات :

لقد كان لاتساع قراءاته ، والمامه الواعى الفاحص بالتراث الأدبى فى عصره ، وفى مختلف العصور التى سبقته ، والذى يدل عليه تلك المعانى والصور التى استمدها فى شعره من كبار الشعراء ، كأبى تمام والبحترى والمتنبى وابن الرومى ، ومن قبلهم من الشعراء كامرىء القيس والأعشى والنابغة ، وسواهم ، ودرايته بأسلوب عدد منهم ·· كالمتنبى الذى يمزج بين الاقناعى والتخييلى ، كما أدرك ذلك حازم فى منهاجه ·· لقد كان لكل ذلك أثره فى لغته الشعرية ·· فجاءت قوية متينة ، رصينة محكمة ، خالية الا فيما ندر من الاضطراب ، ولعل ذلك هو ما عناه ابن رشيد من وصفه بالجزالة ، حين قال عنه وعن أبى بكر بن حبيش : « وبالجملة فهذان الرجلان ·· كانا الغاية فى طريقتهما ، أبو الحسن فى جزالته ، وأبو بكر فى حلاوته · فالجزالة التى وصف شعر حازم بها هى من الصفات التى تتردد كثيرا ·· على ألسنة النقاد دون أن يحدد مفهومها تحديدا دقيقا ·· ويدل معناها اللغوى على « البعد عن الركاكة ·· » « والكلام الجزل القوى الشديد ، واللفظ الجزل خلاف الركيك » كما عرفها

ابن منظور فى لسان العرب ·· « والجزالة اذا أطلقت على اللفظ يراد بها نقيض الرقة ·· » كما قال أبو البقاء العكبرى · فأسلوب حازم يمتاز بالجزالة كما يدل على ذلك معنياها « القوة » ·· والبعد عن الركاكة ·· ولكن هذه الصفة التى تنطبق على الكثير من شعره ، يجب ألا نعممها على سائر مستويات شعره ، فلغة حازم ، وأسلوبه يتغيران ويختلفان باختلاف الأغراض ، والحالات النفسية للشاعر : فهو حين يتحدث عن غزوات ممدوحه وحروبه ·· تقوى ألفاظه وتشتد ، متخذا من الألفاظ والصور ، والتعبيرات أدوات توحى بالسطوة والقوة التى يسبغها على ممدوحه ، كقوله :

كماة ، حماة ، ما يزال الى الوغى
حنين لهم ما حن نضو ، وما أطا

عليهم نسيج السابغات كأنها
جلود على الحيات قد كشطت كشطا

اذا لمع للشمس لاحت عليهم
رايت صلالا البست حللا رقطا

جيوش اذا غطى البلاد عبابها
امواجها غطت نفوس العدا غطا

فهو قد اختار ألفاظا كلها توحى بالقوة ، والرهبة ·· كماة ، حماة ، وغى ؛ السابغات ؛ جلود الحيات ، جيوش ، غطى ؛ عباب ، أمواج ··

ولكن حازما يرق ويصفو أسلوبه ·· فيتسرب فى هدوء وسكينة الى النفس ·· حيث يخالط الوجدان ويتخلل المشاعر ·· حين يتحدث عن حبه ، أو عن نزوحه عن دياره ، وغربته ، أو

حين يأخذ في استعادة ذكرياته • ان شخصية حازم تظهر واضحة في شـــعره الذي يتحدث فيه عن مأســـاة بلاده ، أو عن ذكريات شبابه ، في تلك البلاد الحبيبة الى نفسه ، وكذلك حين يدعو ممدوحه الى استخلاصها من مخالب الأعداء •• ولكن شعره في ذلك قليل ، نجده مبثوثا خلال مدائحه ، وتهانيه ، أو في عدد قليل من قصائده التي أوقفها على الغزل ، •• من هذه الأبيات التي نلمس فيها رقة ألفاظه ، وتعبيراته ، وصوره ، قوله يتغزل في محبوبته :

ثغر تجوهر سلسال الرضـــاب به
حتى بـدا لؤلـؤا رطبـــا ، ومرجانا

ليت العيـــون التي ترنو فتسحرنا
كانت ـ كما نحن نهواهن ـ تهوانا

انا بني الحب لانصغي الى عـــذل
ولا نميـــل الى العذال آذانـــا

فكيف تعذل صبـــا عـــذر عاشـــقة
في وجهه اليوسفي الحسن قد بانا

لهـــا لحـــاظ اذا ترضى ، وان غضـــبت
تحيي وتقتـــل أحيـــانا وأحيــــانا

أوقوله :

فبت مجتليـــا للبـــدر ، مجتنبـــا
من روضـــة الحسن تفاحا ورمـانا

وقوله :

ادني التعانق شخصينـــا وضمهمـــا
لف النواســـم بالأغصـــان اغصانا

وهو فى الحنين الى الديار ، والحديث عن الذكريات والحب ، يرق ويعذب ، ويختار من الألفاظ ما ينقل الينا نجوى نفسه ، ونبض وجدانه ، بل نجده يقدم على استعمال ألفاظ لا نراها تتكرر كثيرا في شعره ، كما أن موسيقاه النابعة من التكرار ، ومن الصور الأنيقة العذبة ، والكلمات المحسوسة المرتبطة فى وجدان القارىء بايحاءات جميلة ، ترق ، وتوحى بالجو النفسى للشاعر ، انظر الى قوله « ثغر تجوهر ·· سلسال الرضاب ·· » فالكلمات كلها منتقاة ، عذبة رقيقة ·· تحمل فى شحناتها ما يمتع أكثر من حاسة من حواس الانسان « فالثغر ·· والرضاب ·· » يوحيان بالاشتهاء والرغبة و « سلسال » يوحى بالرغبة فى الارتواء ، واللؤلؤ الرطب والمرجان ، والجواهر ، متع حسية تحمل الاحساس بتزين المحبوبة ، وبما فيها من كنوز الجمال التى لا تقل روعة عن هذه النفائس ، وتكرار « أحيانا وأحيانا » ·· مع الحذف الذى يوحى بالكثير من المشاعر والاحساسات ، وكذلك تكرار « الاغصان » ·· ينقلنا الى جو راقص بهيج ، ساعد فى رسمه ، ونقله ، الوزن الشعرى « البسيط » الذى وصفه حازم « بالبساطة والطلاوة » وتمتاز لغة حازم بالسهولة والوضوح فى الغالب ، ولكنه فى القليل يحاول أن يتبدى فيأتى بالغريب من الألفاظ ، كالأجزاء التى يتحدث فيها عن رحيله فى الصحراء ، وشربه لأواجن من المياه ، أو حين يعارض بعض الشعراء كما فى صاديته التى عارض بها الصابونى ، كما عارضه عدد وافر من الشعراء ، اذ نجد له مثل هذه الألفاظ « شقص » بمعنى نصيب ، « ودحص » ـ اى مشرفة على الهلاك ·· وغيرها ، مما أعتقد أن الذى لجأه اليه انما هو تعذر القافية · ومثل ذلك بعض ما جاء فى طائيته ، اذ نقع على ألفاظ غريبة جاء بها من أجل القافية كقوله » وقد كانت قلادتها لطا « ·· واللط هو الستر والحجاب ، وقوله : قايست الوقيعه والوقطا ·· والكلمتان

بمعنى واحد وهو الحفرة يتجمع فيها الماء ٠٠ » ومن الأبيات التى يبدو فيها بشملة أعرابى ، ذلك الجزء من المقصورة ٠٠ الذى يصف فيه رحيله فى الصحراء ، وشربه المياه الآسنة ٠٠ كقوله فى صفة فرســـه :

ومســـرج على الزفـــير مشـــرج
ململم الصـــهوة ، ملهـــوم ، وآى

وأعيـــس مخيـــس بشـــرى اذا
ما وصل البيد ببيـــد ، ووصى

أو قوله :

كـــم زاحت خيفـــانة بشـــكتى
عيرانة تحمـــل رحلـــى بشـــكى

وعلى كل فتعمد الاغراب قليل فى شعر حازم ٠ والذى يهمنـــا من كل ما سبق أن حازما لا يسير فى شعره على وتيرة واحدة ، بل يتغير أسلوبه بتغير موضوعه ، واحساسه ، فهو يرق حينا ، ويقوى ويشتد حينـــا آخـــر ، كما تسهل ألفاظه ، وقد تغمض فى بعض الأحايين ٠ على أن الراجح فى أسلوبه هو الوضوح والجزالة ، لأن أكثر شعره يدور حول أغراض جادة رصينة ، كالمدح ، أو وصف المعارك الحربية ، وتكثر قصائد المدح فى شعر حازم ، لهذا جـــاء أسلوبه ملائما لهذا الغرض السائد ٠٠ فتميز بالقوة ، والمتانة ، والرصـــانة ٠

٢ ـ التنويع :

ومن خصائص أســـلوب حازم التنويع ، وبخاصـــة حين يعيش تجربته ، ويقوى انفعاله بها ، فنجده يغـــاير فى الأساليب عفويا ، للتغير الذى يحدث فى احساسه ، ومسار تجربته ، فنجده

يغاير فى الأساليب عفويا للتغير الذى يحدث فى احساسه ومسار تجربته ، فنجده حين يشده الحنين الى ذكرياته بالأندلس ، فيأخذ فى وصف ذلك ٠ يراوح بين الأساليب ، فينادى خليله قائلا :

فيـا خليلى اسـقيانى أكؤســـا
تسـكر من خمر الصبا من قد صحا

ثم يتســاءل :

أين الزمــان النــاضر الطلـق الذى
كم قر فيـه ناظرى بمــا رأى

ويصف فى جمل خبرية :

فى بقعــة كجنــة الخلد التى
يرى بهــا كل فـؤاد ما اشتهى
تجرى بهــا الأنهــار من مـاء ، ومن
خمر ، ومن رسل ، وأرى قد صـفا

ونجده يلجأ الى التكرار ، فيكرر كلمة « من » ثلاث مرات فى البيت الواحد ، كما يرصع كلامه ٠٠ فيأتى بمثل هذه التعبيرات ٠٠ ومنعم بمطعم ، ومشرب ٠٠ ومركب لمأنس ، ومجاس فى مدرس ، وملثم لمرشف ومصهر لمعطف ٠٠ ثم يأتى بأخبار متلاحقة ، فيقـول مقفيا على كل ما ذكره من أوصاف ٠

فالدهــر عيــد ، والليــالى عرس
والعيش أحــلام كأحــلام الكرى

ويبرز ذلك التنويع حتى فى مدائحه ، ذلك لأن حازما قـد كان يهيىء نفسه لقصائد المديح ، ويحشد له كل طاقته النفسية والفنيــة ، فيعيش فى قلب التجربة ، وينفعل بهــا ، لتأتى متينة

السبك حافلة بالصدق ، الذى يسبغ على القصيدة الرواء ، الناشىء عن جمال التصوير والتعبير ، يقول حازم فى مدح المستنصر بعد جملة أبيات :

تـــراه اذا يعطى الرغـــائب باســـما
لـه جــدل يربى على جــدل المعطى

وكـم عنـق قـد قلـدت بنوالـــه
فريدا وقـد كانت قلادتهـــا لطـــا

متى ما تقس جـود الكرام بجـوده
فالبحـــر قايست الوقيعة والوقطا

يشـف له عن كل غيب حجـــابه
فتحســـبه دون المحجب مالطــــا

فكيف ترجت غــــرة منـه فرقة
غـــدا عـــزها ذلا ، ورفعتها هبطا

فهو يخاطب السامع مخبرا فى البيت الأول ، ثم ينتقل الى الحديث عن كثرة عطاياه ، فى البيت الذى بعده ، ويأتى بجملة شرطية فى البيت الثالث ، ويخبر عن انكشاف حجب الغيب له ، ثم يستفهم متعجبا فى البيت الذى بعده .. ان حازما يلجأ لجوءا نفسيا الى هذا التنويع الذى يراه مصدر ما فى الشعر من جمال ، لأن النفس الانسانية تمل ، وتضيق بالأساليب التى تسير على نمط واحد ، لهذا كان يؤثر القصائد على المقطعات ، لاشتمالها على أنواع مختلفة من الأغراض ، والأفكار .

٣ – الألفاظ والأساليب العلمية :

وبالرغم من أن حازما ينكر على الآخرين استعمال الألفاظ

والتعبيرات العلمية ، لأن مثل هذه الألفاظ لا يتجاوب معها الا الخاصة من المشتغلين بهذا العلم .. فاننا نجد له بعض الألفاظ والتعبيرات المستمدة من النحو أو الفلسفة وفى الحق أنها قد جاءت ممجوجة ثقيلة .. من هذه الأبيات التى استعمل فيها بعض المصطلحات العلمية قوله :

لـم يبق لى صـدودها تعـللا
الا « بليت » او « لعـل » و « عسى »

والألفاظ الثلاثة تدور فى فلك واحـد ، فذكرها لم يضف جديدا ، وكان من الأفضـل له لو اكتفى بواحـدة منهـا ، دون الآخرين .

فاعمم بأوصـاف العـلا كمـاله
واستثن فى وصف سواه « بسوى »
لا تجر نعـت من عـداه مطلقـا
فى المجـد بل مقيـدا ، بمـا عدا
فمن يقـرظ من عـداه ، فليكـن
مستثنيا بمـا عـدا ، وما خـلا

ولنترك العلامة الغرناطى يعقب على هذه الأبيـات ، يقـول الغرناطى : « وما أفاد فى واحد من هذه الأبيات زيادة على ما أفاده فى الآخرين سوى ترداد العبارة ، والاطالة من غير طائل ، وقـد يستحسن تنويع العبارة اذا جىء بالمعنى فى عبارات تفيد كل واحدة منها ما لا تفيده الأخرى .. » .

وحازم نفسه فى منهاجه ينكر اسـتعمال مثل هذه الكلمات ويقول : ان أبا الفرج قدامة ، وأضرابه « قد نص جميعهم على قبح ايراد المعانى العلمية ، والصناعية ، والعبارات المصطلح عليها فى جميع ذلك ونهوا عن ايراد جميع ذلك فى الشعر .. » .

الفصل الرابع

الصور والأخيلة

تحدثنا فى فصل آخر عن الخيال عند حازم ٠٠ وعند المعاصرين ، كما تحدثنا عن أنواع الصور ، وقلنا انها تنقسم الى نوعين ٠ صور كلية وصور جزئية ٠٠ هى : التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، والرموز ، والتلميحات ٠ وفى صدد الحديث عن الصورة الكلية ، قلنا : ان حازما يؤثر القصائد ذات الأغراض المتعددة وهى القصائد الكلية ، ويراها من الدلائل على تفوق الشاعر ، لذا ضرب فيها كبار الشعراء كالمتنبى وامرىء القيس ، وسواهما ، بسهم وافر ٠ وهو فى تحقيق الوحـدة بين أجـزاء القصـيدة يتفق مع غيره من الشـعراء والنقاد ، كالحاتمى ، فيقيمها على حسن التخلص من غرض الى غرض ، وهو فى شعره لا يكتفي في أغلب قصائده على مجرد التخلص الذى قد يكون بكلمة أو كلمتين ، أو بيت واحد من الشعر ، انما يمتاز على غيره بالتمهيد الطويل للانتقال من غرض الى غرض ـ يظهـر ذلك واضحا فى مقصورته ، وفي بعض قصائده ، وسنحاول ذكـر ما يدل على ذلك من شعره ٠٠ ففى قصيدته التى يبدو أنه اقتفى فيها قصيدة بشار المشهورة ٠ اذ أنها تتفق معها فى الوزن ، والقافية :

يذكر حازم ثمانية أبيات فى شكوى البعد ، ممهدا بهـــا للانتقال من الغزل الى المدح ، يقول فيها :

لك الله من قلب صبـــور على النـــوى
اذا الدهـــر نابت بالبعـــاد نوائبـه

ألفت نوى من قـــد هويت فلـــم أجد
على ســـبيل الصبر صعبـا مراكبه

ورجيت فيــه الــــدهر من حيث خفتـه
كـذا الدهـــر مخشى ، مرجى عواقبـــه

ومن عـــاتب الأيـام فى نـــأى خلـة
فهيهـــات يومـــا أن تفيق معاتبـــه

وقد تأثر حازم فى بيته الأخير ، بقول بشار المشهور ٠

اذا كنت فى كـــل الأمـــور معاتبـــا
صـديقك لم تلـــق الذى لاتعاتبه

ولكنه قد نقل معناه من الحديث عن عتاب الأصدقاء الى عتاب الأيام فى هجر الأحبة ٠٠ ينتقــل بعــد ذلك الى الغرض الثانى من أغراض القصيدة وهو المدح ، متخلصا تخلصا موفقا بالبيت الآتى :

ومن يلن من دار الخليفـــة لم يبـــل
بمن قـد تناءت داره ، وملاعبـــــــه

كما نجده يتخلص تخلصا رقيقا مازجا بين الغرضين ، خالعا على كل واحد منهما صفات الآخر ليتم المزج بينهما ٠٠ فى القصيدة الجيمية التى مدح بهـا أبا عبـد الله بن أبى الحسين بن سـعيد ، فيقول فى وصف طول الليل بعد فراق الأحبة :

كم بت بعدهم بليل لم يلح
فيه سنى صبح ، ولم يتبلج

طالت غياهبه ، فلم يتفر عن
فلق لدى ارق ، ولم يتفرج

ثم يتخلص بقوله :

حتى استضأت ببدر آفاق العلا
اليعربى الياسرى المدحجى

وتطلع ابن أبى الحسين لناظرى
كتطلع الصبح المنير الأبلج

فلو أسقطنا من حسباتنا ذكر ابن أبى الحسين ، لشعرنا بترابط بين البيت الأخير حيث تطلع الصبح المنير الأبلج ، وهو من أبيات المديح بالأبيات التى يصف فيها طول ليله لبعد من يحب ، فكأن الصبح الذى طالما انتظره قد أشرق وأهل . والحق أن الانتقال المرهف للشاعر انما هو الانتقال من الغزل الى المديح .. أما الانتقالات الأخرى كالانتقال من مدح الخليفة الى وصف حروبه ، أو جيوشه ، أو أعماله .. فهى انتقالات لا يشعر بها .. لأن الشاعر يذيب فيها الأفكار ، ليصبها فى قالب واحد ، أو يمزج بين خيوطها مزجا لا يتبين معه أيها السدى ، وأيها اللحمة .. كما فى هذه الأبيات التى انتقل فيها من وصف النجوم الى وصف خيل الخليفة فقال :

وخيلك قد آنسى النعائم خوفها
شبا ذابح من خلفهن وزوراء

فهل خفيت في الصبح من خوف غارة
على ساحة الخضراء منهن شعواء

جياد اذا تكسى الدروع حسبتها
رعانا تغشتها يلامع بيداء

كأنك راء زئبقا .. مترجرجا
على ملس أصلاب لهن وأصلاء

فكم قذيت شمس النهار بنقعها
وكم صدئت مرآتها بعد امهاء

وأوضح ما تكون قدرته على تحقيق الوحدة بين أغراض القصيدة ، وأفكارها ما نراه فى المقصورة اذ نجده ينتقل من الغزل الى الوصف أو المدح . ثم يعود الى الوصف كالغزل فى عفوية ودون تكلف ، ولقد تحدثت عن ذلك خلال الحديث عن المقصورة .. مما لا أحتاج معه الى اعادة بيان وتوضيح . أما قصائده التى يبدؤها بالغرض مباشرة ، وهى كثيرة فى ديوانه .. فالوحدة بين أجزائها متوفرة ، وهو ينتقل خلالها من فكرة الى فكرة ذات صلة بالفكرة التى تتقدمها .. مازجا بين الأفكار والمعانى المختلفة مزجا وثيقا لا خلل فيه أو ضعف . وحازم لم يتقيد فى قصائده بوحدة البيت ، مما حقق لقصائده المزيد من الترابط والاتساق ، وان كنت أعتقد أنه قد أقام قصائده على وحدات أو مجموعات من الأفكار أو العناصر ، ان تبسطنا فى التعبير ، فهو مثلا يصف الأسلحة فى عدد من الأبيات، ثم الخيول فى عدد آخر ، فالقائد ، فالجيش ، وفى كل وحدة من هذه الوحدات ترابط تام وثيق ، وحين ينتقل منها الى وحدة أخرى ينتزع أي عوائق تصده عن المزج ما بين الوحدتين ، مما يجعل

المتلقى لا يشعر بهذه الانتقالات التى تشبه سياحة يقوم بها مستكشف لعالم متنوع المناظر ، ولنذكر هذه الأبيات التى ينتقل فيها من مدح الخليفة الى وصف خيله .. فيقول :

ملك كسا الاسلام ثوب نضارة
بظبا أطالت كفه أعداءها

الى أن يقول :

كم ذللت عربا وعجما خيله
اذ ظللت بعجاجها صحراءها

تذر الجماجم ان عصت مثل اسمها
وتدير فى أرجائها ارجاءها

جابت الى الأعداء كل تنوفة
وطوت الى أعدائها عدواءها

لو يممت حجرا ، عدا عن أن ترى
تلك الكتائب نقعها زرقاءها

تردت بكل شبر بردى العدا
طعنا ويدرى سيفه اعضاءها

ثم يأخذ فى وصف الأسلحة ، من سيوف ورماح ، مما يدخل فى اطار وحدة جديدة ، وهكذا يحقق فى قصائده النظام ، مع المزج ، فيجعل من الأجزاء كلا واحدا له شخصيته ومعالمه .

الصور الجزئية :

يمكننا أن نقدم للحديث عن الصور الجزئية فى شعر حازم

بتلخيص ما ذكره هو فى منهاجه عن التشبيه الذى يعتبره نوعا من المحاكاة ٠٠ فهو يضع للتشبيه بعض الشروط حتى يكون جيدا ، من ذلك :

١ ـ أن يكون التشبيه بأمر موجود ، لا مفروض ٠

٢ ـ أن يكون المشبه به محسوسا ، فمحاكاة المحسوس بغير المحسوس قبيحة فى رأيه ٠

٣ ـ أن تكون « المحاكاة التى يقصد بها وضوح الشبه منصرفة الى الجنس الأقرب للشىء ، كتشبيه أبطل الفرس بأبطل الظبى ٠٠ والمحاكاة التى يقصد بها التوسع والراحة ، والقناعة بما تيسر من الشبه ، منصرفة الى الجنس الأبعد كتشبيه متن الفرس بالصفاة » ٠

والمحاكاة التى يقصد بها اجتماع وضوح الشبه ، وظهور نبل الشاعر وحذقه ، منصرفة الى الجنس الذى يلى الجنس الأقرب ، كتشبيه الأشياء الحيوانية بالأشياء النباتية ٠ نحو تشبيه قلوب الطير رطبة بالعناب ، ويابسة بالحشف ، وتشبيه ابرة الروق بالقلم المستمد « قلم أصاب من الدواة مدادها » ٠

٤ ـ ويشترط لصحة التشبيه وجماله ، أن يكون المثال المحاكى به معروفا عند جميع العقلاء ، أو أكثرهم بالسجية ٠

٥ ـ كما يشترط أن تكون الصفات المشتركة بين طرفى التشبيه أشهر صفاتهما أو من أشهرها ٠

٦ ـ ويشترط فى المحاكاة التى يقصد بها تحريك النفس ترغيبا أو تنفيرا ، أن يكون المشبه به مما تميل اليه النفس أو تنفر منه ٠ وقد أخطأ حبيب حين قال فى وصف الخمر :

اذا ذاقهـــا ، وهى الحيـــاة رأيتــه
يعبس تعبيس المقـــدم للقتـــل

٧ ـ فاذا كانت المحاكاة لا يقصد بهـا الترغيب أو التنفير ، أو بعبارة أخرى لا يقصد بها التحسين أو التقبيح ، بل يقصد بها مجرد المطابقة ، فالمذهب الأمثل عند حازم محاكاة الحسن بالحسن ، والقبيح بالقبيح ٠

٨ ـ لا تحسن محاكاة ذى المقدار الكبير بذى المقدار الصغير ، كما لا يحسن عكس ذلك ٠٠ الا فى حال التعظيم أو التحقير ، كما لا تحسن محـاكاة ذى لون بذى لون مخالف ٠٠ الا اذا كان المراد ذكر ما بينهما من مشابهة فى الهيئة ٠ وعلى هذا حمل تشبيه العصا بالجان فى قوله تعالى « وأن ألق عصـــاك فلما رآها تهتز كأنها جان ٠٠٠ » وتشبيه الذباب بالقادح فى بيت عنترة المشهور ٠٠٠ هذه خلاصة أراء حازم فى المحاكاة بالتشبيه ٠

وحين نتفحص بعض صور حازم الشعرية ، نجد صدى لآرائه البلاغية فى تلك الصور ٠ فهى صور تعتمـد على الحس كتشبيهه عيون الابل الغائرة من السير ببقايا دهان رشفتها الصحراء :

وعيونهـــا كبقـــــايا من دهـان فى مداهـــن
رشـــفتهن ســــــوالف لثرى الأرض ، ســــوافن

ومحبوبتـــه :

غصـــن آس شربه مـــا ء شـــباب غـــير آســـن

وقصائده التى يمدح بها الخليفة كالنسمات الرقيقة التى لم يحى بمثلها على بنى حمدان ممدوح المتنبى :

نواســم حمــد لم تحى بمثلهــا
على بني حمــدان يومــا عواصــمه

وابله ٠٠ يردن مياه الفجر غير سوائم
ولا هن فى روض الظــلام سوائمــه

وتغلب على شعره الصور البصرية ٠٠ كقوله :

جيــاد اذا تكسى الدروع حسبتهــا
رعانا تغشــتها يـلامــع بيــداء

كأنك راء زئبقــا مترجرجــا
على ملس أصـــلاب لهن وأصــلاء

فكم قـذيت شمس النهــار بنقعهــا
وكم صـدئت مرآتهــا بعد امهــاء

فنجده يعجب بالألوان فيكثر من ذكرها ٠٠ كقوله :

يبدو احمرار البرق فى صفحاتها — خجلا اذا رفع النسيم رداءهــا
يذر الربا خضرا ،وكانت قبلها — عفرا اذا سفحت بهــا أنواءهــا

او قوله :

أذكى الحياء بوجنتيهــا نــاره — حيث الشبيبة قد أسالت ماءها
خجلت وأدنت كفها من خدهــا — فحسبتها مخضوبة حناءهــا

كما يكثر من الصور المستمدة من الطبيعة ، وهى ظاهرة تشيع فى الشعر الأندلسى بعامة ٠ ويبدع حين يصف بعض المنشآت أو بعض مناظر الطبيعة ٠٠ من ذلك وصفه لبعض ما أنشأه الخليفة المستنصر من حدائق ، وما جدده من قنوات ٠٠ يقول حازم فى ذلك :

مصانع فيها أغرب الجود والندى
فما استغربت من بعدهن الغرائب

سمت وسطها بيض القباب ، وأحدقت
قباب بها من سندس ، ومضارب

قباب من الدوح المنيف تهدلت
لهن أعال بالحيا ، وجوانب

علت ، وصفت أطنابها فتهدلت
على صفحات الماء منها هيادب

تبلج فى شرقى جامع تونس
بهن ضياء يملأ العين ثاقب

فالصور كلها ـ بصرية .. يستمد الكثير منها من جمال الطبيعة .. كالدوح .. وتهدل الأغصان .. وصفحات الماء .. وقباب من سندس أخضر .. وتبلج الضياء الذى يملأ العين .. كما نجده يعجب بالأردية الملونة ، وبخاصة الوشى والديباج ، فيستمد منها بعض صوره .. كقوله :

سرى لابسه لونين من شفق ، ومن
دجى ، وانثنى ما بين فجر وظلماء

أو قوله :

توسد غزلان الأوانس والمها
بها الوشى والديباج لا السدر والأرطى

كما يعجب بالجواهر ، فيكثر من ذكرها ، واستمداد بعض

صوره منها .. كتصويره لدموع محبوبته بحبات من الدر قد انفرطت من عقد :

لم تدر اذ سألتك ما أسلاكها ابكت اسى أم قطعت أسلاكها
فغدت سوالفها تحلى لؤلؤا من ادمع لم تستطع امساكها
فارتك سفح الطل فى موليـة على الحيا ببرودها اذ حاكها

أو قوله :

ولم يسب قلبى غير أبهرها سنا وأطولها جيدا ، وأخفقها قرطا

أو قوله :

ويافكرى اعتامى اللآلىء وانتقى وفى لبة العلياء أبكارها نصى

وتلى حاسة الابصار عند حازم فى القوة حاسة الشم .. فيكثر من الصور المستمدة من الأزهار والرياض الطيبة الرائحة ، بل كثيرا ما يذكر صورة من هذه الصور التى تعبر عن اعجابه بشىء طيب الرائحة ، ثم يكررها ليطيل الاستمتاع بها ، وليتمكن من نقلها نقلا أمينا كأنه يحاول أن ينقل هذه الرائحة الطيبة .. كما هى فى الحياة ، عن طريق الكلمات والصور ، من ذلك قوله :

فتق النسيم لطائم الظلماء عن مسكة قطرت مع الأنداء
وغدا الصباح يفض خاتم عنبر بالشرق عن كافورة بيضاء

فالبرغم من أنه يصف انتهاء الليل ، ودخول الصباح الا أن صوره كلها مستمدة من أشياء طيبة الرائحة .. اللطائم وهى أوعية المسك ، والمسك الذى يقطر على الأرض مع الندى والعنبر ، والكافور

ويتصور الشاعر أن للبشرى التى بشر بها ممدوحه رائحة طيبة عبأت الرياح بالطيب والعطر فيقول :

فاهنأ ببشرى طاب نشر نسيمها فأطاب انفاس الرياح وعطرا
عبقت نواسمها فضاءت مندلا وتارجت مسكا ، وفاحت عنبرا

والغيور ، أو العاذل يروعه .. تنسم الروض ، أو ترنم الورقاء :

وكل غيور لا يزال يروعه تنسم روض أو ترنم ورقاء

وحبيبته حين تعبر بقافلتها الصحراء ، فانها تغرس فيها رياضا ، وتنعشها بأنفاسها الرطبة :

يروض من احداجها كل مهمة وتبرد من انفاسها كل رمضاء

ونعم الممدوح تحيل التلاع المهجورة ، رياضا غناء :

وكم تلعة كانت مهجر جندب فاضت بنعماكم مغرد مكاء

« وبه رعوا روض الأمانى ناضرا .. » .. و « أرعى الأمانى خضر أندية الندى .. » ومن أجمل الصور المستمدة من حاسة الشم ، واللمس معا ، وصفه للضب وهو يتلقى أنفاس الرياح .. فى حب وشغف بتلقى المخمور لأنفاس الفجر المعطرة .. فيقول :

ويلتقى الضبأنفاس الرياح بها كما تلقى نسيم الفجر مخمور

والحدوج التى تضم محبوبته ، ومن معها كأكمام الزهر :

ليس الحدوج التى خفت بهن سوى أكمام زهر ، وهالات لأقمار

ونور الحسن يتفتح تفتح الورود فى خدى محبوبه :

يذود اللحاظ الهيم عن ماء وجنة ... تفتح نار الحسن منها بارجاء

يزيد بدمعي روض خديه نضرة ... كما عللت ورد الرياض ملابنة

ومن الصور المستمدة من الطبيعة تصويره للقنا وقد شربت من دم الأعداء ، فخالها الرائى نخلا سامقا يحمل أقناء من بلح .. وهي تلك الرايات الحمراء المرتفعة :

يعل القنا حتى يخلن سوامقا ... تهصر من راياتهن بافناء

تلى حاستى البصر ، والشم – حاسة التذوق ، واللمس .. فاللحاظ فى البيت السابق (يذود اللحاظ الهيم .. البيت) ظمأى ، والوجنات كالجداول الصافية التى تتمنى اللحاظ أن ترتشف حتى ترتوى منها ..

والخليفة ، قد شجع العلم والأدب .. فأفاض منه ينابيع صافية يرتوى منها الراغبون :

أفاض ينابيع العلوم معنية ... وأصفى فما فيها مجال لأقذاء

والقنا يشرب من الدماء كما فى البيت السابق .. « يعل القنا حتى يخلن سواقا » وفي يد الخليفة ماء الحياة .. لذا يلثمها الناس :

تبادر الناس فيه لثم خير يد ... ماء الحياة بها حيث الحيا نبعا

ومن ذلك قوله :

وما أبالى اذا الدنيا حلت لكم   واعذوذبت أن غدت لى ذات امرار

فالحلاوة ، والمرارة ٠٠ التى وصف بها طعم الحياة ٠٠ من الصفات التى تستمد من التذوق بالفم واللسان ٠٠ ويكرر ذلك فى نفس القصيدة مصورا أمانيه وقد عذبت بعد امرار فيقول :

يابن الحسين أبى عبد الاله غدا   شرب المنى لى عذبا بعد امـرار
شيبت موارد انى بعد ما خلصت   جمامها الزرق من شوب وأكدار

ومن الصور المستمدة من حاسة اللمس ، وهى قليلة ، وصفه للزمن بالجعودة ، والكف بالطلاقة ، فى قوله :

تنير الدجى منه اذا الزهر لم تنر   بأزهر طلق الكف فى الزمن الجعد

ويصف ظهور الجياد بالملاسة فيقول :

كانك راء زئبقا مترجرجـــا   على ملس أصلاب لهن وأصـلاء

ومن الحواس التى لا يكثر الاستعانة بها فى رسم صورة حاسة السمع ٠٠ فالصور السمعية قليلة فى شعره ٠٠ ومن هذا القليل :

وكل غيور لا يزال يروعـــه   تنسم روض أو ترنم ورقـــاء

وقوله :

وكم تلعة كانت مهجر جنـدب   فاضحت بنعماكم مغرد مكـــاء

وقوله :

تبيت تناغى خيله بصهيلهـــا   صرير العوالى فوقها وتناغمـــه

وقوله :

بكل جون زحوف بالحصا زجل   سام تخشع فيه الأكم والقـور

وبالرغم من أن حازما يفضل الصور المستمدة من الحس على غيرها ·· ويكثر منها فى شعره الا أننا نجد له بعض الصور المستمدة من المعنويات ·· ولكنها قليلة فى شعره ·· وقد جاءت موفقة ·· من ذلك قوله :

قواف كمحض الود يزداد رونقا
وحسنا على استخلاصه ، وعلى المحض

فقد شبه القوافى بالود وهو أمر معنوى ·· كما يصف قصائده أو ثناءه بالسحر الذى يبهر السحر نفسه فيقول :

تقل ثناء يبهر السحر سحره ودرا له يستقصر الدر ناظمه

ومن الصور المعنوية التى تخلو من المشابهة النفسية·· تشبيه كثرة الدموع التى يذروها لفراق أحبته بكثرة جود الخليفة ·· فى قوله :

ودموع مشبهات جود يحيى وهو هاتن

ينتقل بنا ذلك الى الحديث عن رأى حازم فى المشابهة النفسية بين طرفى الصورة الخيالية ، وقد رأيناه يحبذ توفرها ، وبخاصة فى التشبيه الذى يراد منه الاغراء بفعل شىء ، أو التنفير منه ، أما فيما عدا ذلك ، فلا ضرورة تدعو اليه ·· لهذا قد وجدناه يعيب على أبى تمام قوله :

اذا ذاقها وهى الحياة رأيته يعبس تعبيس المقدم للقتل

حيث لا مشابهة بين أثر الخمر الجميل ، وما تحدثه من نشوة ، وبين « تعبيس المقدم للقتل » وهو فى شعره يحقق هذا التشابه حين يصدق فى تجربته ، فيتمثلها وينفعل بها ·· وذلك

كثير في شعره : ولنكتف ببعض الأمثلة ٠٠ من ذلك قوله عن غارات جيوش الخليفة على أعدائه :

فكم قذيت شمس النهار بنقصها
وكم صدئت مرآتها بعد امهاء

لقد كان فى امكانه أن يقول « فكم خفيت شمس النهار أو سترت أو حجبت » ويظل الوزن والمعنى سليمين ٠ ولكنه آثر كلمة الاقذاء لأنها مما يؤذى العين ، وهى تلائم شعور الأعداء النفسى ، وانقباضهم من هجمات جيش الممدوح ، ومثلها التعبير « بصدئت » فالصدأ الذى يشوه مرآة الشمس التى كانت مجلوة ٠ يناسب ما اعترى هؤلاء الأعداء من كآبة وغم ٠٠ ومن ذلك تصويره للدنيا وقد حسنت فى عينه فاشبهت العروس الكاعب ، وقد جلست فى منصة العرس ، فيقول :

تحسنت الدنيا بكم ٠٠ فكانها
عروس ، عروب فى المنصة كاعب

ونحس فى تصويره للحاظ العطشى الى ما يترقرق بوجنة المحبوب من ماء الحسن ـ باعجاب الشاعر بجمال هذه الوجنة ٠٠ وظمئه الى أن يروى منها عطشه ، ويطفىء لواعج نفسه ٠٠ فنجده يختار الكلمات « يذود » التى توحى بالالحاح فى الرغبة ، « والهيم » التى توحى بالعطش فكأن اللحاظ ابل عطشى الى الماء بعد أن أرهقها السير ، و «ماء وجنة » وهى توحى بترقرق ماء الحسن والشباب بها ٠٠ وتفتح « نور الحسن » التى توحى بأن الوجنة كالجدول الصافى الذى تحف به الزهور ٠

وثمة سمة أخرى تبرز فى صور حازم ٠٠ وهى التشخيص ٠

وخلع الحياة على كل ما لا حياة فيه ٠٠ تطالعنا هذه الظاهرة فى الكثير من أبيات قصائده ٠٠ فللأمانى عيون ، فى قوله :

كم للجزيرة من بشرى، وتهنئة منها عيون الأمانى نحوها صور

والأيام البهيجة تتسابق نحو الممدوح ٠٠ كل يوم منها يحاول أن يسبق الآخر فى لقائه :

تسابق أيام المسرات نحـــوكم فمن سابق منها، وموف على الأثر

ولليل جناح غدافى يبسطه على الحياة ، وفى الصباح يولى بعد أن تقص قوادمه :

ألم ، وجنح الليـــل يضفو جناحـه
عليه ، وولى حـــين قصت قوادمـــه

وللمنى أوجه غر طالما نعم بها الشاعر فى بلاده بالأندلس :

كم أوجه للمنى غر نعمت بهـــا
فى أزمن مثلها غر ، وأعصـــار

ونرى التشخيص واضحا فى تلك الصــور الحية المتحركة التى رسمها للنجوم فى مقصورته : وفى طـــائيته حيث جعـــل « الثريا » كاعبا أزمعت نوى ، متخذة من نجوم « الهقعة » هودجـا ونجم « السها » قد دق من فرط شوقه الى محبوبته الثريا ٠٠ وقد أتهم سهيل يائسا منها بعد أن رآها « تنجد » ٠٠ والصبح الجميل يشبه معصم غادة بيضاء أخذت تقطف بيدها زهر النجوم ٠

وحازم من الشعراء القادرين على رسم الصور المتحركة ٠٠ ونقل حركتها بريشته ٠٠ كتصويره لاهتزاز ماء الروايا التى تحملها الابل ، وانتفاض ما فى عيونها من ماء ٠٠ فيقول :

وماء رواياها كماء عيونهـــا ترافصه أيدى الأسرى أيما رقص

أو قوله :

فان رفعوا آنافهم جدعت ، وان امال الهوى أعناقهم فهى للوقص

ففى هذا البيت يوفق الشاعر فى رسم الصورة لهؤلاء الأعداء وهم يتحركون محاولين فعل أى شىء مما يمليه الغرور عليهم ، ولكن يد الخليفة وجنده لما يفعلون بالمرصاد ، فان رفعوا أنوفهم كبرا جدعها ، وان أمالوا أعناقهم زهوا قطعها ٠

ونلاحظ أن حازما يتمتع بقدرة على نفاذ البصيرة ، وقـوة الملاحظة ٠٠ تجعله يوفق فى رسم بعض الصور الدقيقة ، والمبتكرة ، وبخاصة حين يقوى انفعاله ، ويمتزج وجدانه بتجربته ٠٠ من هذه الصور ٠٠ قوله :

من كان معتل الضمير مريضه لم تاته الا رماحـك عـــودا

أو قوله :

والنهر لما ارتاح معطفـــه الى لقيا النسيم ، عبابه يتمــوج

فالصورة مكثفة ، اذ جعل للنهـــر معطفـــا ٠٠ هبت عليه النسمات الرخية ٠٠ فارتاح لها فأخذ يتموج راقصا ٠ ومن أروع وأدق صوره ٠٠ قوله فى صدد الحديث عن ممدوحه ، وقد رضى عنه الخليفة بعد سخط :

فعادة للحميا أن تصـــير الى نور الزجاجة من محلولك القار
فالدر ينقل من أصدافه فـيرى فى عقد غانية ، أو تاج جبـار

فالممدوح قد كان مبعدا أو سجينا ٠٠ والحميا ظلت سجينة الأقبية والدنان ٠٠ ثم خرج هو الى المنصب الذى ولاه اياه الخليفة

·· فكان كخروج الحميا من قبرها أو دنها الى الزجاجة الشفافة المضيئة ·· والممدوح يشبه كذلك الدر الذى كان محتبسـا فى أصدافه فخرج لتتحلى به الغانية ، أو يرصع به تاج ملك عظيم ·

لقد ذكرت فى موضع آخر أن لحازم اونين من الصور : لون مستمد من قراءاته ، ولكنه يحاول أن يدخل عليه من الاضافات ما يجعله جديدا ، ولون مستمد من ملاحظاته ، ومبتكراته ، ولقـد ذكرت أمثلة لكلا النوعين ·· نضيف اليها هذه النماذج القليلة من ديوانه · فمن النوع الأول قوله :

افلتن اشراكى غداة رميتهـا وعلقت حين رميننى أشراكهـا

وهو من قول جميل بن معمر :

صادت فؤادى يا بثين حبالكم يوم الحجون ، وأخطاتك حبائلى

وبيت جميل أصدق وأروع ، فهو يتحدث عن محبوبة واحدة . وحازم عن محبوبات ، وما هكذا يكون الحب العذرى الصادق ، وفى صورة حازم ما يومى بالاعداد العاقل للحصول على الحب فهو قد رمى شراكه ، فهربن منها ، بينما نجد فى تعبير جميل ما يوحى بأن ذلك قد حدث تلقائيا ودون قصد ، وتعبير جميل أوجز من تعبير حازم وبخاصة فى الشطر الثانى من البيت ·

وقوله :

ومن عاتب الأيام فى نأى خلـة فهيهات يوما ان تفيق معاتبـه

الذى استمده من قول بشار :

اذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

فجعله فى الغزل بعد أن كان فى معاتبة الأصدقاء ٠

وقوله :

تحف بهـا الآمال حين تؤمـــه وان هى آبت أثقلتها الحقـائب

وهو من قول نصيب :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وما فعله حازم من استمداد بعض صوره من السابقين قـد أباحه النقاد ، فمن غير المعقول أن يتخلص الشاعر من قراءاتـه التى هى أهم مكونات ثقافته ، يقول ابن رشيق : « ان المتبع اذا تناول معنى فأجاده ، بأن يختصره ان كان طويلا ، أو يبسطه ان كان كذا أو يبينه ان كان غامضا ، أو يختار له حسن الكلام ان كان سفسافا ، أو رشيق الوزن ان كان جافيا فهو أولى به من مبتدعه »٠ وهناك لون آخر من التصرف فى معانى الآخرين قد أجازه النقاد . هو صرف المعنى من وجه الى وجه آخر ، كان يكون المعنى فى الغزل فيجعله فى المدح ، أو العكس ٠٠ وقد فعل حازم ذلك فى قصيدته التى ضمنها أعجاز معلقة امرىء القيس ، اذ صرف معناها من الغزل الجنسى الى مدح الرسول الكريم ، ولحازم الكثير من الصور المبتكرة التى ذكرنا نماذج منها فى مواضع متفرقة من البحث ٠٠ وهو يكثر من الاستعارات حين يقوى انفعاله ويشتـــد ٠٠ فاذا كان هادىء النفس ، فاتر الانفعال ، لجأ الى التشبيهات بمختلف صـورها ، متخذا منها أداة للترجمة عن احساسه ، وقد ذكرت أمثلة لذلك فى الحديث عن المقصورة ٠

الفصل الخامس

المحسّنات البديعية في شعر حازم

يرى حازم كما رأى الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ هـ - ان من مصادر الجمال فى العمل الفنى تحقق « التناسب » وهو يكون بين الألفاظ كما يكون بين المعانى · ومن التناسب اللفظى عند الخفاجى ما يقع فى الكلام من سجع أو ازدواج ·· كما تجرى القوافى فى الشعر مجرى السجع فى النثر !! ومن التناسب أيضا الترصيع فى الشعر والاتحاد فى الوزن التساوى أو التقارب بين طول الجمل ، ومن التناسب اللفظى الجناس ·· « أما تناسب الألفاظ من طريق المعنى ، فانها تتناسب على وجهين : احـدهما أن يكون معنى اللفظتين متقاربا ، والثانى أن يكون أحد المعنيين مضادا للآخر أو قريبا من المضاد ·· » ويدخل فى المضاد الطباق والمقابلة · ويعلل حازم لسر ما فى المتماثلات أو المتضادات من جمال بأن «تناصر الحسن فى المستحسنين المتماثلين والمتشـابهين أمكن من النفس موقعا من سنوح ذلك فى شيء واحد ، وكذلك حال القبح ·· وما كان أملك للنفس ، وأمكن منها فهو أشد تحريكا لها ، وكذلك أيضا مثول الحسن ازاء القبيح أو القبيح ازاء الحسن مما يزيد غبطـة بالواحد ، وتخليا عن الآخر ، لتبين حال الضد بالمثول ازاء ضده ··

لذلك كان موقع المعانى المتقابلات من النفس عجيبا .. وكلما كانت المتماثلات أو المتشابهات أو المتخالفات قليلة وأمكن استيعابها أو استيعاب أشرفها وأشدها تقدما فى الغرض كانت النفوس بذلك أشد اعجابا ، وأكثر له تحركا .. » . ومن التناسب أيضا ما يوجد فى الكلام من تقسيم أو تفريع أو تفسير .. فلا عجب اذا ما وجدنا حازما يهتم فى شعره بايراد تلك الألوان من المحسنات البديعية ، التى هى فى رأيه ليست مجرد زينة لفظية ، وانما هى تحقق التناسب بين الألفاظ ، كما يحقق بعضها التناسب بين المعانى مما يزيد فى جمال الشعر ، ويجعله أكثر تحريكا للنفس ، وتأثيرا ، ومن تلك المحسنات التى تحقق التناسب والتى أكثر منها حازم فى شعره :

١ ـ الجناس :

والمتأمل لشعر حازم يجده ، وبخاصة فى المقصورة قد أسرف فى تلوين الشعر بالجناس ، وأنواعه المختلفة من تام ، وناقص ، وقد دفعه هذا الاسراف الى الاتيان بصور منه متكلفة ممجوجة كقوله :

وعزنى وجدى بخود ، غرنى
عطف لها لان بقلب قد قسا

لكننا نجده فى قصائد الديوان الأخرى يحاول التخفيف من تلك الحلى التى تعوقه عن الحركة .. فيأتى بصور من الجناس التى تحقق التناسب اللفظى .. كما تحقق نوعا من الايقاع الموسيقى كقوله :

وحسنها جود يسيل ، ونائل وحصنها رمح يصول ، وقاضب

أو قوله :

يشوق فؤادى ما يشق عليه من شذا روضة من مجرس الحلى غناء

وقوله :

يرتاد أبكار الرياض بقـــومه وبقوله متخيرا ٠٠ أكلاءهـــــا

وأكثر صور الجناس ترددا فى شعره هو الجناس الناقص ، أما الجناس التام فهو قليل ٠٠ ما خلا المقصورة ، فانه قد أغرقها بشتى أنواع الجناس ، فمن الجناس التام قوله :

اتبعتهـــا اذ ودعت بتحيـــة مثل التحية تقتفى جوزاءهـــا

ويقل أيضا فى شعره ـ جناس التصحيف ، ومنه قوله :

فاثرت ما اسدوه من أثوابهـــا وانرت من أضوائها ظلماءهـــا

٢ ـ الطباق والمقابلة :

من أنواع التناسب التى اهتم بها حـــازم اهتماما كبيرا : الطباق والمقابلة ٠ ويبدو أن هذا اللون من التناسب ٠٠ من أسرار الجمال فى الأدب ٠٠ بعامة ٠٠ فنجد بعض الباحثين الأجـــانب يشيدون بما يحققه من أثر جميل فى الفن ٠٠ توفـــر التضـــاد والتماثل بين صورتين أو أكثر ٠٠ يقول « أرشيبالـــد مكليش » معلقا على القصيدة التى قيل انها من نظم كونفوشيوس ، والتى من أبياتها قوله :

فى غابة البلوط ، فى الأرض اليباب ، تنام الظبية ميتة
وفوقها نباتات السمار البيضاء

••••••

السيدة جميلة كاليشب النفيس
لا تلمسنى يا سيدى ٠٠ ارجوك
لا تخطف منديلى
لا تخطفه ، فكلبى سينبح

يقول أرشيبالد : « على أرض الغابة ظبية ميتة ، جسم رقيق ، وهنالك سيدة متلهفة ، وفوقها فارس جميل ٠٠ ثم يقول » فهنالك صورتان متماثلتان ، ومختلفتان ٠٠ » وهو يرجع ما فى هـــذه القصيدة وأمثالها من جمال الى هذه الصور المتماثلة والمتنافرة فى آن واحد ، والتى يطلق عليها كرلريدج « توازن الصفات المتنافرة واشاعة الانسجام بينها ٠٠ » ومثل هذا التوازن والانسجام بين هذه الصور انما هو من عمل الخيال ٠٠ ان شعر حازم يكاد يعتمد على مثل هذه التعبيرات ، والصور والمعانى ، المتقابلة ٠٠ فهى تحقق نوعا من الايقاع الموسيقى النابع من هذا التقابل ، الى جانب ما ذكره حازم نفسه من أن التقابل يثير الاعجاب والدهشـــة « مما يزيد غبطة بالواحد ، وتخليا عن الآخر ٠٠ » على حد قوله السابق ٠٠ من ذلك قوله عن أهل محبوبته الذين يـــكثرون من الارتحال ، ويشتهرون بنظم الشعر :

كم بيت شعر قد ثناه مقوضا ... وبيوت شعر قد اقام بناءهـــا

وقوله فى مدح الخليفة :

امام سعيد ، من يسالمه لم يزل ... سعيدا ، ولكن الشقى محاربه
فقد ملات كـل الأكف هباتــه ... وقد ملات كل البلاد كتائبـــه
غمام لعافيه حياة ، وفى العدا ... صواعقه مرفضة ، وحواصيـــه

ويقابل بين حال بلاده قبل الاعتداء عليها · وحالها بعد ذلك ، فيقول بعد أن يستعرض بعض ذكرياته :

معاهد قد لبسن الأنس متصلا   في غرناطة منها ، واسمار
فاوحشت بعد ايناس،وصاربها   صرف الحوادث طلابا بأوتار

٣ ـ الترديد والتصدير :

يفرق ابن رشيق بين الترديد الذى مثل له بقول زهير :

من يلق يوما على علاته هرما   يلق السماحة منه والندى خلقا

والتصدير الذى مثل له بقول الشاعر :

سريع الى ابن العم يشتم عرضه   وليس الى داعى الندى بسريع

بأن « التصدير مخصوص بالقوافى ترد على الصدور ، والترديد يقع فى أضعاف البيت » · ويؤكد ابن رشيق ولع المتنبى بالترديد فيقول « وسمع أبو الطيب باستحسان هذا النوع فجعله نصب عينه حتى مقته ، وزهد فيه ، ولم يكن الا بقوله :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا   قلاقل عيش كلهن قلاقل

وقوله :

اسد فرائسها الأسود ،يقودها   اسد تكون له الأسود ثعالبا

فلا أدرى كيف تخلص من هذه الغابة المملوءة أسودا ؟ ولا أقول انه بيت شعر · وحازم الذى أعجب بأسلوب المتنبى · وأشاد بطريقته في منهاجه ·· يبدو أنه قد تأثر به فى ترديده ، فأكثر من تكرار بعض الألفاظ فى عدد من أبيات قصائده ·· وهذا اللون

من التكرار ، سواء أكان ترديدا أم تصديرا ، يمنح الشعر جرسا وايقاعا جميلا ، من ذلك هذه الأبيات التى نوردها من شعر شاعرنا حازم ، يقول فى مدح الخليفة :

نداك على العافي ، وبأسك في العدا حياة لأموات ، وموت لأحيـــاء

يقول عن الدهر ، وتقلباته :

والدهر نقلته ، وان هى كدرت شرب النفوس فقد تتيح صفاءها
فيسوؤها طورا بما قد سرها ويسرها طورا بما قد ساءهـــا

وعن الخيل ، وما يفعله الفرسان بالأعداء :

تردى بكل مشمر ، يروى العدا طعنا ، ويلدى سيفه أعضاءها

ويقـــول :

فيعز جانب من أطاعكم ، ومن يعصيك لم يعتز منه .. جانب

ومن ذلك قوله « فيهابه الراجى ، ويرجو الهائب » ، وقولـه « فراهبه راج ، وراجيه راهبه » .

٤ ـ التقسيم والتفصيل والترصيع :

التقسيم هو استيعاب ذكر أقسام الشيء .. وهذا هو التقسيم الجيد ، ومنه قول نصيب :

فقال فريق لا ، وقـــال فريقهم نعـم
وفريق ، قال : ويحـــك لا نـدرى

فاذا أورد الشاعر الأقسام ناقصة كان التقسيم معيبا .. كقول جرير :

صارت حنيفة أثلاثا ، فثلثهم من العبيد ، وثلث من مواليها

ومن التقسيم التقطيع ، وسماه قوم منهم : عبد الكريم ·· التفصيل ، وأنشد فى ذلك :

بيض مفارقنا ، تغلى مراجلنـا نأسو بأموالنا آثار أيدينـــا

فاذا كان التقطيع مسجوعا سمى « ترصيعا » ·

ولحازم أبيات كثيرة فى شعـــره قد احتوت على التقسيم أو التفصيل ·· أما الترصيع فهو قليل نادر ·· لأنه يأتى فى الغالب ـ متكلفا ·· والتقسيم والتفصيل ، بما فيه من تقسيم للجملة ، وتنسيق لها مع ما حولها من جمل يمنح الشعر جرسا وايقاعـــا صوتيا جميلا ، ومن أبيات حازم فى ذلك قوله : مرصعا :

صبح بدا ، بدر هـــدى ، طـــود علا
بحر علا ، غيث همى ، ليث سطـــا

نجم سرى ، سيف فرى ، ركن سما
حصن حمى ، روض ذكا ، غصن زكا

والتكلف واضح فى هذين البيتين من مقصورته التى حشد فيها الكثير من ألوان المحسنات البديعية التى اشتهـــرت فى عصره ، وأقبل الشعراء يتنافسون فى ترصيع شعرهم بها ، مما جعل الكثير من قصائدهم لوحات مزخرفة تخلو من النبض والاحساس ، وبخاصة فيما نظمه الضعاف من الشعراء ، ومن التقسيم الموفق قوله :

يخشى ، ويرجى سطوة ، وندى ، فما
فى الأرض الا راغب أو راهـب

ومن التفصيل :

ناهيك من جنة للدين واقية
وصارم في يد الاسلام بتار

وهضبة من هضاب الحلم راجحة
وروضة من رياض العلم معطار

وغيث جود على العافين منسكب
وليث بأس على أعدائه ضار

وقوله :

العلم والعليا ، له الحلم ، والحجا
له الجود ، تهمي بالنضار سحائبه

وقوله :

غمام بلا دجن ، وصبح بلا دجى
وبدر بلا نقص ، وبحر بلا جزر

ولنكشف بذكر هذه النماذج من شعره ، فان هذا اللون من البديع ٠٠ مما يكثر في شعره ٠٠ ويأتي في الغالب ٠٠ جميلا مقبولا ٠

٥ ـ التورية والألغاز :

ان التورية والأحاجي والألغاز ليست من صميم الفن الراقي ، وانما هي لون شعري يقصد للترفيه وشحذ الذهن عادة ، وان كان عدد من الشعراء في عصور الانحطاط قد أكثروا منه ، وتنافسوا

فيه ٠٠ وهو قديم ، فقد وجدت له بدايات منذ العصر الجاهلي ولذى الرمة قصيدة كلها ألغاز تسمى «أحجية العرب ٠٠» ومن أبياتها :

وسـقط كعين الديك عاورت صـاحبي
أباها وهيـانا لموقعهـا وكـرا

مشهرة لا يمكن الفحـل أمهـا
اذا نحن لم نمسك بأطرافها قسرا

أخوها أبوها ، والضوى لا يضرها
وسـاق أبيهـا أمهـا اعتقرت عقـرا

ويقصد بالسقط النار ، وبأبيها الزند ، وساق أبيها أمها أى أنهما من شجرة واحدة وفى عصر حازم ، وهو فى بداية عصـور الانحطاط ، أولع الناس بهذا الفن ، فنظم حازم أبياتا قليلة ، منها هذان البيتان اللذان أعجب بهما تلميذة أبو الفضـل التجـانى ، اذ قال : « أنشد أبو الحسن حازم لنفسه ملغزا فى الغزلة ، فقال :

يا من له فكر منير يهتدى بسراجه
ما جمع ان تأمر به أضحى كقولك حاجه

وهذا النوع هو الذى يسميه أهل الأدب الأحاجى وأول من ابتكرها ، فى علمى ، الحريرى ٠ ثم يقول : وقد أحسن أبو الحسن حازم فى بيته ، وبيـان ذلك أن اللفظ المنطوق به فى النظم هو حاجة ، والمطلوب لفظ يرادف حاجة يدل على معنيين أحدهما مفرد والآخر مركب موجز مرادف حاجه ووجدنا شريكا للفظ اللغز ، وهو الغزلة جماعة الغزلان ٠٠

ويكاد لا يأتى بصورة من صور التورية فى قصائده ، ولكنه

قد جاء بالقليل منها فى مقصورته التى هى معرض صوره ، ومحسناته البديعية ، من ذلك قوله :

ألوت بخفض العيش عنا أحرف نواصب جاءت لمعنى فى السرى

فهو يقصد من الخفيض رغد العيش ، ومن الأحرف الابل الضامرة ، النواصب المرهفة · واذا نحن استقرأنا مقصورة حازم·· وجدنا فيها كل ألوان البديع ، وقد أشار هو الى بعضها فى المقدمة التى صدر بها المقصورة اذ قال عن نفسه انه « قد أحكم صيغتها ومبناها ، وقسم صنعة لفظها ومعناها ، الى ما ينشط السامع ، ويقرط المسامع ، من تجنيس أنيس ، وتطبيق لبيق ، وتشبيه نبيه ، وتقسيم وسيم ، وتفصيل أصيل ، وتبليغ بليغ ، وتصوير بالحسن جدير وترديد ماله من نديد ، الى غير ذلك » · ولنذكر بعد ذلك نوعين استحدثهما حازم ، وهما : التسويم والتحجيل ، فحازم هو الذى استحدث هذين المصطلحين ·· وقد ذكر أن التحجيل يكثر فى شعر المتنبى ، وقد انتقل أثر ذلك الى حازم فظهر فى شعره ، كما سنوضح ذلك بالأمثلة :

٦ ـ التسويم :

لا أعرف أن أحدا من النقاد الذين تقدموا عصر حازم أو أحدا من معاصريه ·· تكلم عن التسويم بمثل ما تكلم عنه ·· والذى أعتقده أن حازما قد استفاد ذلك من الأدب اليونانى وبخاصة القصص اليونانى · وان لم يكن قد قرأ بعضا من هذه القصص ، فانه قد قرأ على الأقل شيئا مما كتبه عنه أرسطو فى اشاراته الكثيرة عن هذه القصص ·· فحازم يرى أن النفس الانسانية تمل «التمادى على حال واحدة ، وتؤثر الانتقال من حال الى حال ·· فلجأ حذاق

الشعراء الى أن يعرضوا قصائدهم فى معاريض مختلفة ، وعملوا على أن يقسموا الكلام فى قصائدهم الى فصول ينحى بكل فصل منها منحى من القصائد ، ليكون للنفس فى قسمة الكلام الى تلك الفصول ، والميل بالأقاويل فيها الى جهات شتى من المقاصد ، وأنحاء شتى من المآخذ ـ استراحة واستجداد نشاط ، بانتقالها من بعض الفصول الى بعض ·· » · وكما يراعى فصول الرواية أو المسرحية فى العصر الحديث ، من حيث العمل ، أن تكون بداية كل فصل جذابة مشوقة ·· سواء بما يبدأ به الفصل من حوار أو ما يصاحبه من عوامل تأثيرية ، كالموسيقى أو الديكور ـ دعا حازم الى الاهتمام ببداية كل فصل أو جزء من أجزاء القصيدة ·· فنجده يقول عن حذاق الشعراء كالمتنبى ، الذى يستشهد بقصيدة له فى هـــذا الغرض : « واعتنوا باستفتاحات الفصول وجهدوا فى أن يهيئوها بهيئات تحسن فى مواقعها من النفوس ، وتوقظ نشاطها ، لتلقى ما يتبعها ويتصل بها ، وصدورها بالأقاويل الدالة على الهيئات التى من شأن النفوس أن تتهيأ بها عند الانفعالات ، والتأثرات لأمور سارة أو فاجعة أو شاجية أو معجبة ، بحسب ما يليق بغرض الكلام من ذلك ·· » · ويعترف حازم بأنه هو الذى أطلق على هذا الصنيع اسم « التسويم » لأنه يكون « لفواتح الفصول بذلك بهاء وشهرة وازديان ، حتى كأنها بذلك ذوات غرر ، فرأيت أن اسمى ذلك بالتسويم ، وهو أن يعلم على الشيء ، وتجعل له سيما يتميز بها ·» ويتبع حازم قصيدة المتنبى :

اغالب فيك الشوق ، والشوق أغلب
واعجب من ذا الهجر ، والوصل اعجب

فيبين ما فيها من تسويم ·· فهو قد ضمن البيت المذكور « من الفصل الأول تعجبا من الهجر الذى لا يعقبه وصل ، ثم أكدالتعجب

فى البيت الثانى الذى هو تتمة الفصل الأول ، ثم ذكر من لجاج الأيام فى بعد الأحباء وقرب الأعداء ، وكان ذلك مناسبا لما ذكر فى الهجر ، ثم افتتح الفصل الثانى بالتعجب من وشك بينه ، وسرعة سيره ، فقال :

وللّه سيرى ما أقل تئية عشية شرقى الحدالى ، وغرب

فكان هـذا الاستفتاح مناسـبا للبيتين المتقدمين من جهـة التعجب ، وذكر الرحيل ، ثم بين حاله ، وحال من ودعه عند الوداع ، ثم استفتح الفصل الثالث بذكر العهود السارة وتعديدها فقال :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر ان المانوية تكذب »

وبعد أن يأخذ فى بيان ما فى هذا البيت من تشويق وحسن ، يتحدث عن افتتاحية الفصول : الرابع والخامس والسادس من القصيدة .. ويبين حازم : أن المتنبى بالرغم من تقسيمه القصيدة الى فصول ، فانه لم يخل بالوحدة بين تلك الأجزاء ، اذ أنه .. انتقل فى جميع ذلك من الشىء الى ما يناسبه ، والى ما هو منـه بسبب ، ويجمعه واياه غرض ، فكان الكلام فى ذلك مرتبا احسن ترتيب ، ومفصلا أحسن تفصيل ، وموضوعا بعضـه من بعض احكم وضع .. » .

لقد راعى حازم « التسويم » فى شعره وبخاصة فى المقصورة ، وفى قصـائده المركبة ، وهى التى تشتمل على أكثر من غرض (التسويم) الى جانب عنايته بسائر أبيات القصيدة .. وقد وفق فى صقلها واحكام نسج الأبيات ، ومزج الفصول بعضها ببعض ، مزجا يعجز معه الناقد أن يتبين أين يبدأ الفصل منها ، وأين ينتهى

.. ربما نستطيع معرفته فى المقصورة بسهولة لأنه عمـل مطول من الصعب أن يحكم احكام القصائد التى لا تصل فى طولها الى

ما وصلت اليه المقصورة من طول ·· ولنذكر بعض هذه الأبيات التى افتتح بها فصول مقصورته ، فهو يبدأ المقصورة بقوله :

لله ما قد هجت يا يوم النوى   على فؤادى من تباريح الجوى

فتعجب من يوم الفراق ، وما أهاجه فى نفسه من ذكريات ·· مخاطبا النوى كانسان عاقل وموجها اليه هذا التعجب ، وبهذا يبدأ حازم الفصل الأول من المقصورة ·· وبعد أن يتحدث عن كيد الوشاة، وعن ألم الرحيل والفراق ، والنجب التى حملت محبوبته وآلها ·· يأخذ فى الغزل ·· وذكر ما يثيره هديل الحمام فى نفسه ، ونفوس الشعراء السابقين من ذكريات ··· حتى اذا فرغ من كل ذلك بدأ الفصل الثاني ، حيث يأخذ فى المـــدح متخلصا تخلصا موفقا·· اذ يقول :

ضنت بمنزور القرى من الكرى   كى لا أرى طيفا لها اذا سرى
فلو تجود قدر ما ضنت حكت   جـــود امـير المؤمنين المرتجى

فنجده في البيت الأول من الفصـــل الثـاني يأتى بترصيع موسيقي جذاب ·· ممهدا بذلك للبيت الثاني الذى تخلص به من الغزل الى المدح ·· واصفا محبوبته بالبخل ، وممدوحه بالكرم الذى لا يزيد عليه · ويبدو أن حازما قد قسم المدح الى فصول قصيرة : منها فصل عن أصله ووراثته المجد ، ثم آخر عن وصفه لما استحدثه من منشآت ومبان ، فى مقدمتها الحدائق التى أنشأهـا ، والقنوات وأنابيب المياه التى مدها ، وجددها ، وهو يفتح هذا الفصل ببيت رائع ·· هو :

ملك حكى ملك سـليمان الذى
لم يتجـه لغـيره ولا انبـغى

حضرته ام البلاد .. كلهـــا
وقطب ما منها دنا ، وما قصـــا

ان ذكرت مدن الدنى فهى التي
يختتم الفخر بها ، ويبتـــــدا

كجنة الخـلد تسر من رأى
فيزدرى الخلد ، وسر من رأى

والحق أن هذا الفصل لما يشتمله عليه من وصف للطبيعـــة التونسية الجميلة .. قد جاء جميلا رائعا ، فحازم شأنه شـــأن الشعراء الأندلسيين .. يجيـد فى فن الوصف اجادة عظيمة . ثم يأخذ فى نظم أبيات الفصل الثالث ، حيث يأخذ فى الحديث عن ذكرياته بالأندلس ، فيتخلص تخلصا رائعا .. اذ يقول :

طابت به الأيام لى حتى لقـد
ذكرت فيما قد خلا عيشـا حـلا

فيا خليـلى اسقيانى اكؤسـا
تسكر من خمر الصـبا من قد صحا

بلغت آراب المنى فى دولـة
اولت يـدى أسـنى الأيادى ، واللها

فخليا فكـرى يقضى اربـا
من ذكر ما قد انقضى ، وما خـلا

اين الزمـان الناضر الطلق الذى
كم قر فيه ناظـرى .. بما راى

لقد ذكرت هذه الأبيات جميعا .. لأن حازما لا يتخلص ببيت واحد ، وانما ليمزج بين الفصول ، والأغراض ـ نجده يمهد لتخلصه

بعدة أبيات ·· ينقل بها المتلقى ، سامعا أو قارئا ، من جو الفصل الاول الى جو الفصل الثانى ·· ولا يحب أن يباغته مباغتة بهذه النقلة النفسية فيحدث في نفسه انصداعا ، وانشطارا ، وفى كل هذه الأبيات نلاحظ عناية حازم بتجويده النظم ، واحكام النسج ، وتشويق القارىء وجذبه ، يظهر ذلك فى البيت الأخير الذى يبدأ به الفصل الثالث بداية حقيقية ، اذ نجده يتساءل باستغراب فيقول : « أين الزمان النضر ·· » واصفا الزمان بالنضارة فكساه بذلك خضرة ، وحيوية ، ثم يأتى « بكم » التكثيرية التى تخبر بما تمتع به فى الأندلس من مباهج ومسرات ·

ولنكتف بهذا الجزء الذى استدللنا به على أن حازما قد طبق نظريته عن التسويم · على شعره ·· فاهتم بافتتاحيات فصول قصائده ليشد اليه انتباه المتلقى ، ويدفع عنه أصابع الملل ·

٧ ـ التحجيل :

التحجيل عند حازم أن « نذيل أواخر الفصول بالأبيات الحكمية والاستدلالية ، وهو ما يزيد الفصول بهاء وحسنا ·· ويفهم من كلام حازم اشتراطه أن تأتى هذه الأحكام نابعة مما قبلها واستدلالا على ما سبقها ، فيكون فى ورود البيت الأخير الذى يتضمن حكما أو استدلالا على حكم أثر المعانى التى لأجلها بين ذلك الحكم أو الاستدلال عليه ·· انجاز للمعانى الأول ، واعانة لها على ما يراد من تأثير النفوس لمقتضاها ·· وينبغى فى أمثال هذه الأبيات الحكمية أن تأتى الألفاظ ، والتركيبات ، سهلة جزلة ، والقوافى متمكنة ، كما ينبغى ألا يسرف فى الاستكثار من هذا الفن فن الصنعة فانه مؤد الى التكلف وسآمة النفس ، ولكن يلمع بذلك فى بعض نهايات الفصول دون بعض ، بحسب ما يعن للخاطر من ذلك ، ويسنح من

غير استكراه ، ولا تكلف ٠٠ » وقد سبق الى هذا الفن زهير بن أبى سلمى من الجاهليين ، ومنه قوله :

فما بك من خـــير أتوه ، فانمـــا
توارثه آباء آبائهـــم قبـــل

وهل ينبت الخطى الا وشيجـــه
وتغرس الا فى منابتهـــــا النخل

« ثم جاء أبو الطيب في المولدين فولع بهذا الفن من الصنعة ، وأخذ خاطره به حتى برز فى ذلك وجلى ، وصار كلامه فى ذلك منتميا الى الطراز الأعلى ٠٠ » ٠

لقد تأثر حازم بالمتنبى تأثرا كبيرا بعد أن أطال النظر فى شعره ، ولقد احتذاه فى طريقته التى وصفها حازم بأنها « مزج بين التخييل والاقناع » ، كما سلك طريقه فى تسويم كلامه ، وفى تحجيله ٠ وسنورد بعض الأمثلة للتدليل على ما فى شـــعر حازم من تحجيلات متبعا فى سبيل ذلك سبيل زهير والمتنبى واضرابهما من ذلك تلك الحكمة التى يسوقها فى قصيدته الطائية معقبا بها على غزله ، ومستأنفا وصفه للنجوم ٠٠ فيقول :

وبت أظن الشهب مثلى لها هــوى
واغبطها فى طول الفتها غبطـــــا

على أنهـــــا مثـــلى عزيزة مطلب
« ومن ذا الذى ما شاء من هذه يعطى؟

ثم يأخذ بعد ايراده هـــذه الحكمة الموجزة فى الحديث عن النجوم ٠ ومن الأبيات الاستدلالية قوله فى مدح الخليفة بالكرم :

متى ما تقس جود الكـــرام بجوده
فبالبحر قايست الوقيعـة والرفطـا

ويعقب بصورة استدلالية .. على الأبيات التى يصف فيها اكرام الخليفة لأعدائه ، حتى اذا تمردوا عليه ، وعصوه أوقع بهم .. فيقول :

ولو قوبلت بالشكر جنة مارب
لما اعتاض منها أهلها الأثل والخمطـا

ويعقب على الأبيات التى يتحدث فيهـــا عن ترويع ممدوحه للأعداء بهذه الحكمة الرائعة :

متى يفرس الليث القنيص ، وينفلت
يرعه متى ما يلتفت اثر الفـــرص

وفى قصيدته الرائعة التى يمدح بها محمد بن سعيد نجده يقضى أبياته التى يتحدث فيها عن ذكرياته الحبيبة بالاندلس .. بهذا البيت الذى يجمع فيه ما سبق له أن وصفه مجزأ فيقول :

معاهد قد لبسن الأنس متصـــلا
فى غر أندية منها ، واســـــمار

وينهى شكواه من التغرب ، وتبدد الآمال بهذا البيت الحكمى :

ولـو تيقظ من اغفـــائه امـــل
ما واصل اليأس ايقاظى واســـهارى

وهو يتخذ من هذا البيت معبرا الى الأبيات التى يمدحه بها ، فيقـــول :

وليس يوقظ آمالى ســـوى يقظ
ينمى لمجد ابى اليقظـــان عمار

وبعد أن يمدحه بعدة أبيات ينهي مديحه بهذا المعنى الكلي :

مآثر ليس يبلى الدهر جدتها
ما دام منكم لها تجديد آثار

ويتحدث عن تعلق آماله بالممدوح ، وخوفه من الدهر الممزوج بالرجاء ·· فيصوغ ذلك في هذه الحكمة ·· فيقول :

وظلت آمله من حيث احذره
فالخير ، والشر ليسا غير ادوار

ان التحجيل عند حازم ، كما رأينا ، يخرج في صورة حكمة ، أو حكم عام يأتي نتيجة لما تقدمه من أوصاف ·

هذه بعض صور البديع التي أحبها حازم ، وأكثر منها ·· ولم نذكر كل الفنون البديعية التي طرقها أو التي تحدث عنها في منهاجه ·· كالابتداء ، الذي استغنينا عن ذكره بذكر التسويم، أو التخلص والاستطراد ، الذي أشرنا اليه في حديثنا عن الوحدة الفنية في « مقصورته » ، وفي « منهاجه » · كما لم نذكر بعض صور البديع التي مر بها في رفق ، مكتفيا بالألوان التي تشكل مظاهر متفشية في شعره ، والتي قد أشاد بها في كتابه « منهاج البلغاء ·· » · وهو بالرغم من اسرافه في تلوين مقصورته بألوان كثيرة من المحسنات البديعية الى حد التكلف وبخاصة الجناس ·· الا أنه في قصائده الأخرى ، وبهدى من فطرته النقية الصافية ، لم يطرق من فنون البديع الا كل ما يعين على اثارة الوجدان والشعور ، عن طريق التناسب المعنوي ، أو الايقاع اللفظي ·· والشعر ايحاء وتأثير ، قبل أن يكون معنى عظيما ، وفكرا دقيقا ·

الفصل السادس

الموسيقى ٠٠ فى شعر حازم

أطلقنا كلمة الموسيقى ـ كما درج على ذلك المعاصرون من النقاد ـ لتشمل الأوزان والبحور ، وتشمل أيضا تلك الموسيقى الداخلية التى يلجأ اليها الشاعر فى التعبير عن احساساته ومشاعره ٠٠ من ترصيع وتقطيع ، وطباق وجناس ، وألفاظ ذات رنين خاص ٠٠ وغير ذلك ٠

ولحازم آراء خاصة فى البحور والأوزان ، فهو يرى أن لكل غرض بحرا يناسبه « فاذا قصد الشاعر الفخر حاكى بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة ، واذا قصد فى موضع قصدا هزليا أو استخفافيا ، وقصد تحقير شيء أو العبث به ، حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء ، وكذلك فى كل مقصد ٠٠ » ٠ وهو فى ذلك متأثر بما نقله ابن سينا عن أرسطو ٠ فنجده ينقل عن « الشفاء » ما أورده ابن سينا ٠٠ من أن « الأمور التى تجعل القول مخيلا ؛ منها أمور تتعلق بزمان القول ، وعدد زمانه وهو الوزن » ٠ ويقول حازم « وكانت شعراء اليونانيين تلتزم لكل غرض وزنا يليق به ولا تتعداه فيه الى غيره .. » ٠ ويؤثر حازم البحور المتوسطة ، على البحور الطويلة ، والقصيرة ، لأن الطويل يحتاج الى الحشو ،

والقصير منها يضيق عن المعانى فيحتاج الى الاختصار ، والحذف « أما المتوسط فكثيرا ما تقع فيه عبارات المعانى مساوية لمقادير الأوزان ·· » · وهو يخلع على كل بحر بعض الصفات التى تجعله يلائم بعض الأغراض دون البعض : فالطويل عنده من البحور الفخمة الرصينة ، كما أن فيه بهاء ، وقوة تجعله يصلح للأغراض الجادة كالفخر ونحوه وفيه يميل اللفظ الى الجزالة ، ومثله « البسيط » الذى يشاركه فى تلك الصفة مع الميل الى السباطة ، والطلاوة ، وفى « الكامل » جزالة ، وحسن اطراد ، وفى « بحر الخفيف » رشاقة وجزالة ، وفى « المتقارب » ، سهولة ، وسباطة ، وفى « المديد » ، رقة ، ورشاقة ، ولين ، وفى « الرمل » لين ، وسهولة ، أما « المنسرح » ففيه أطراد الكلام مع بعض اضطراب، وتقلقل ، وان كان الكلام فيه جزلا ، وفى « السريع » و « الرجز » كزازة ، وفى « الهزج » سذاجة مع حدة زائدة ، وفى « المجتث » ، و « المقتضب » ، حلاوة قليلة ، مع طيش فيها ، « أما « المضارع » ففيه كل قبيحة ، ولا ينبغى أن يعد من أوزان العرب ، وانما وضع قياسا ، وهو قياس فاسد ، لأنه من الوضع المتنافر ·· »

وأعلى الأوزان درجة عند حازم « الطويل » ، و « البسيط » ، ثم « الوافر » و « الكامل » ، « ومجال الشعر فى الكامل أفسح منه فى غيره ، ويتلو الوافر والكامل عند بعض الناس « الخفيف » ، أما المديد والرمل ففيهما لين وضعف ، وقلما وقع كلام فيهما قوى الا للعرب ، وكلامهم مع ذلك فى غيرهما أقوى ·· »

وقد نبه على هذا فى المديد أبو الفضل ابن العميد · ولما كانت بعض الأوزان أرحب فى مجال النظم من البعض الآخر رفض حازم أن تقوم موازنة بين قصيدتين مختلفتين فى الوزن ، لأن الشاعر الضعيف قد يتفوق على الشاعر القوى اذا ما نظم قصيدته من بحر أوسع فى مجال النظم من البحر الذى نظم فيه الشاعر القوى ·

ويرجع حازم حلاوة الأوزان أو كزازتها الى صفات منهـــا : طول التفعيلة أو قصرها ، ومنها التنوع فى تفعيلات البيت أو اطرادها ٠ والتناسب بين التفعيلات من حيث الأسباب والأوتاد أو التضاد ، فمن التفعيلات المتناســـبة : فاعلن وفاعلاتن ، وفعولن ومفاعيلن « والتاليف من المتناسبات له حلاوة ، وما ائتلف من غير المتناسبات والمتماثلات فغير مستحلى ولا مســـتطاب » ٠ وهو يدعو الى تمكن القافية ، وخلوها من العيوب المعروفة ٠

وبالرجوع الى ديوان حازم المطبوع ، نجده قد نظم تسع عشرة قصيدة من البحر الكامل الذى وصفه بالجزالة وحسن الاطراد ، وأن مجال الشعر فيه أفسح من غيره ، منها أربع عشرة قصيدة فى المدح ، وهو من الأغراض الجادة التى تحتاج لجزالة اللفظ ، وقوته ، ومقطوعة فى وصف الصباح ، وما حمله فيه النسيم من أريج شـــذى ٠٠ واثنتان هما : القصيدة العاشرة والقصيدة الثلاثون فى الديوان فى وصف الخمر ، وواحدة فى مدح الرسول والتوسل اليه ، وواحدة فى الزهد ، ويظهر أن اتساع بحر الكامل لقول الشعر أغرى حازما بأن ينظم فيه قصائد مختلفة الأغراض ، بعضها فى المدح وبعضها فى الوصف ، وبالرغم من أننا لا نحب أن نضع القيود الصارمة على الشعراء فنحدد لهم الأغراض والبحور التى تناسبها والتى يجب عليهم ألا يتجاوزها ٠٠ فاننا اذ نحاسب حازما بمقتضى مقاييسه ، نجده قد اختار لقصيدته التى فى الزهد ، وأولها :

لم يدر من ظن الحيـــاة اقامة
أن الحيـــاة تنقل ، وترحـــل

البحر الكامل ، وكان أولى له أن يختار لها بعض الأوزان التى تتسم بالحنان والرقة ، لأن ذلك مما يناسب الشجو والاكتئاب ٠ وذلك نحو المديد والرمل « لأن المقصود بحسب هـــذا الغرض أن

تحاكي الحال الشاجية بما يناسبها من لفظ ، ونمط تأليف ووزن » لقد خالف حازم مقاييسه ، لأن هـــذه المقاييس تنطبق على الكثير الغالب من القصائد ، وقد يخرج عليها الشـــاعر أحيانا ، فالبحر الشعرى كالكأس التى يمكن أن يصب فيها أى سائل ، وذلك حين يوفق الشاعر في التعبير عن وجدانه بالألفاظ والصور والتعبيرات ، والايقاعات الخفية المناسبة ·

كما نظم حازم اثنتى عشرة قصيدة من بحـــر « الطـــويل » وهو من البحور العالية الدرجة فى الشعر ، وهى كلها فى المديح ، ما عدا القصيدة السادسة والعشرين لقد نظمها فى وصف وردة ·· يلى هذين البحرين ـ الكامل والطويل ـ بحر البسيط ، فقد نظم فيه اثنتى عشرة قصيدة نصفها في المدح ، وواحدة فى وصـــف « نور اللوز » ، وتسبيحتان ، وقصـــيدته الفريدة فى الغزل ، وقصيدته النحوية ·· ولقد وفق حين نظم تسبيحته وغزليته من هذا البحر لأنه الى جانب بهائه واتساعه ·· فانه يتصف بالطلاوة والجمال · هذه هى الأوزان الأخرى فلم ينظم فيها الا القليل ، اذ نجد له فى الوافر قصيدتين ، ومثلهـــا فى المديد ، ومخلع البسيط ، والمنسرح ، والرجز الذى يصفه بالكزازة ، وقصيدة فى المقتضب ، ومجزوء الرمل ، والخفيف الذى وصفه بالرشاقة والجزالة ·

وعلى الرغم من أنه يؤثر فى منهاجه الأوزان المتوسطة ، الا أن أغلب شعره قد جاء من الأوزان الطويلة التى تحتاج الى حشو ·· ذلك لأن الأوزان الطويلة والقصيرة لا يعجز عن النظم فيها الا الضعاف من الشعراء ، أما حازم فهو شاعر مقتدر ، يضع نفسه ، ويضعه نقاد عصره مع الفحول ، فلا يتردد فى أن يسلك دروبهم الوعرة ، ومسالكهم التى لم تطرقها أقدام الضعاف من الشعراء · ، فلا غرابة ـ وقد وجدناه ينظم شعره فى البحور التى تتسم بالجزالة كالكامل

والطويل والبسيط ـ أن يوصف شعره بالجزالة ، كما نقل ذلك تلميذه ابن رشيد عن بعض معاصريه ٠٠ أما قوافيه فقــد جاءت متمكنة ، ولم يتردد فى الضرورات المحظورة الا ما ندر ، مما عثرنا له عليه فى مقصورته ، وقد ذكرناه فى حينه ٠

بقي بعــد ذلك أن نعيد ما سبق أن قلناه من أن حازما كان يلجأ الى ضروب من فنون البديع ليحقق بها الجو الموسيقى الذى يوحى بحالته النفسية ، فيصرع فى مبادى قصائده ، ويرصع ، ويجانس ، ويطابق ، كما يقطع الجمل ، أو يأتى بالتقسيمات والتفصيلات . ويختار الألفاظ المناسبة ٠٠ والصور الموحية التى تتفاعل وتتعاون فى خلق الجــو النفسى الــذى كان يعيش فيه الشـــاعر ابان نظم قصيدته ٠

التلميحات الأسطورية ، والاشارات التاريخية
فى الأدب العربى

لقد أفرد بعض الباحثين القدامى بابا فى الأدب والبلاغة ، عنونوا له « بالتلميح » ، وقد عرفه صاحب معاهد التنصيص بقوله : « هو أن يشير الشاعر فى فحوى الكلام الى قصة أو شعر أو مثل سائر .. » كما يعرفه صاحب الطراز بما لا يخرج عن التعريف السابق فيقول : « هو أن يشير المتكلم فى أثناء كلامه ، ومعاطف شعره أو خطبه الى مثل سائر أو شعر نادر أو قصة مشهورة .. » . كما أفردوا بابا خاصا للتضمين « الذى يكون ببيت فما فوقه أو بمصراع فما دونه ، والأحسن فيه صرفه عن معناه الأول » كما فعل حازم فى تضمينه لأعجاز لامية امرىء القيس .. وقد يضمن الشاعر أو الناثر بعض الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية أو الأمثال العربية أو الحكم . والفرق واضح بين التضمين والتلميح ، فالتلميح مجرد اشارة يلمح بها الشاعر أو الكاتب الى قصة مشهورة غالبا .. ويشترط حازم الشهرة لدى الأدباء والشعراء والمثقفين وهى من الأساليب التى ارتفعت عن العامة ، وأصبح العلم بها مقصورا على الخاصة . ويرى أن ذكرها مما يحسن

فى الشعر ، يقول : « وملاحظات الشعراء الأقاصيص والأخبار المستطرفة فى أشعارهم ، ومناسبتهم بين المعانى المتقدمة ، والمعانى المقاربة لزمان وجودهم ، والكائنة فيها التى يبنون عليها أشعارهم مما يحسن فى صناعة الشعر ٠٠ » ٠ ويوضح حازم طريقة استعمال الشاعر لهذه الاشارات ، فهى تأتى : على طريق التشبيه أو التنظير أو المثل ؟؟ وأثرها عميق فى النفس لما تحدثه من تعجيب ، لما فيها من طرافة ٠ لكن حازما يرفض الاشارات العلمية لأنه لا يستجيب لها الا أصحاب تلك الصناعة خاصة ، ومن قبيل ذلك الذى ينكره ٠٠ قول أبى تمام :

مودة ذهب ، أثمارها شبه
وهمة جوهر ، معروفها عرض

لأن الجوهر والعرض من ألفاظ المتكلمين الخاصة بصناعتهم ٠٠ » وحازم يدعو الشعراء الى عرض الاشارات فى أثواب جذابة جميلة ، لأن هدف الشعر جذب النفس ، أو قبضها ، ولا يتأتى ذلك الا بالعرض فى أثواب جميلة من التعبير ، والأساليب العلمية لا تحقق ذلك ٠ وحازم يرى أن مثل هذه الاشارات والتلميحات قد تحدث بعض الغموض فى الكلام ، وعلى الشاعر أن يمهد لها بأن يلقى عليها بعض الأشعة الكاشفة ، وهو يرى أن الاحالات الى الأحداث التاريخية تحسن فى شعر الحرب » ٠

ولقد اهتدى حازم الى حسن التلميحات والاشارات عن طريق حاسته الفنية وثقافته الواسعة ، وبخاصة الماه بكتاب الشعر لأرسطو ، فلقد ذكر حازم فرقا بين الشعر العربى ، والشعر اليونانى ، بأن « مدار أشعار اليونانيين على خرافات كانوا يضعونها يعرضون فيها وجود أشياء ، وصورا لم تقع فى الوجود ، يجعلون أحاديثها أمثالا وأمثلة لما وقع فى الوجود ، وكانت لهم أيضا فى أمثال

أشياء موجودة ، نحوا من أمثال كليلة ودمنة ، ونحوا مما ذكره النابغة من حديث الحية وصاحبها ٠٠ » ٠ وقد ذكر صاحب معاهد التنصيص أمثلة لهذه التلميحات ٠٠ منها قول أبى تمام :

فوالله مـا أدرى أأحـــلام نائم
ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع

ولقد أغرى أبو تمام الشعراء الذين جاءوا بعده بذكر هـــذا الرمز ، فقال الرصافى البلنسى يخاطب من اسمه موسى

وعشية لبست رداء شحوبها ... والجو بالغيم الرقيق مقنـع
بلغت بنا أمد السرور تألقا ... والليل نحو فراقنا يتطلع
فابلل بها زمن الغبوق فقد أتى ... من دون قرص الشمس مايتوقع
سقطت ، ولم يملك نديمك ردها ... فوددت ياموسى لو أنك يوشع

وقال « ابن مرج كحل » مثل ذلك ، وأشار الى أبيات الرصافى :

طفل المساء ، وللنسيم تضـوع ... والأنس ينظم شملنا ويجمـع
والزهر يضحك عن بكاء غمامة ... ريعت لشيم سيوف برق تلمع
فانعم أبا عمران . واله بروضة ... حسن المصيف بها وطاب المربع
ياشادن البان الذى دون النقا ... حيث التقى وادى الحمى والأجرع
الشمس يغرب نورها ولربمـا ... كسفت ، ونورك كل حين يسطع
أفلت ، فناب سناك عن اشراقها ... وجلا من الظلمـــاء ما يتوقـع
فأمنت ياموسى الغروب، ولم أقل ... فوددت ياموسى لو أنك يوشع

وواضح أن ابن مرج كحل يستدرك على ما قاله الرصافى ٠٠ وهو يشبه الى حد ما نقض اليوت ٠٠ لأبيات جولد سميث عن عفة المرأة ٠٠ اذ يسخر اليوت مصورا الجنس فى العصر الحاضر على أنه أمر آلى منفصل عن الخلق والذات ٠٠ فيقول :

اذ تنحنى المــرأة الجميلة للحمــاقة
وتجول فى غرفتها مرة أخرى ·· وحيدة
تتحســـس شــعرها بيــد آليــة
وتضــــع اســطوانة عــلى الحــاكى

ويشير المعرى الى قصة يوشع ·· فيقول :

فلو صح التناسخ كنت موسى وكان أبوك اسـحاق الذبيحـا
ويوشــع رد يوحا بعض يــوم وأنت متى سفرت رددت يوحا

وقد ألمح اليها حازم فى مقصورته فقال :

والشمس ما ردت لغير يوشــع لمـــا غـزا ، ولعلى اذ غفـــا

لقد استغل حازم قصة اسلامية أخرى هى : أن الرسول كان يوحى اليه وراسه فى حجر على رضى الله عنه ، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس ، فقال رسول الله : أصليت يا على ؟ ــ قال : لا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ان كان فى طاعتك ، وطاعة رسول الله فاردد عليه الشمس · قالت أسماء : فرأيتها طلعت بعد ما غربت ، ووقفت على الجبال والأرض ·

ويلمح ابن المعتز الى ما ورد فى القرآن الكريم بشأن صاع العزيز ، فيقول :

اترى الجيرة الذين تداعــوا عند سير الحبيب ، وقت الزوال
علموا أننى مقيم ، وقلــبى راحل فيهم امام الجمــال
مثل صاع العزيز فى أرحــل القوم لا يعلمون ما فى الــرحال
ما اعز المعشوق ، ما اهون العاشــق ، ما اقتل الهــوى للرجال

ومن التلميح ما ذكره أبو بكر بن الأبار فى تحفة القادم من أن

أبا بكر الشبلى جلس يوما على نهر شـــبل بالجسر فتعرضته بعض الجوارى للجواز ، فلما أبصرته رجعت بوجهها ، وسترت ما قد ظهر له من محاسنها فقال :

وعقيلة لاحت بشــاطئ نهرها كالشمس طالعة لــدى آفاقهــا
فكأنها بلقيس وافت صرحهـــا لو أنها كشفت لنا عن ساقها
حــورية ، قمـــرية ، بدويــة ليس الجفا ، والصد من اخلاقها

ومن التلميح بالحديث على جهة التورية قول بعضهم :

يا بــدر أهلك جاروا وعلمـــوك التجرى
وقبحوا لك وصــلى وحسنوا لك هجرى
فليفعلوا ما يشــاءوا فانهم أهــل بــدر

يشير الى قول الرسول عليه السلام لعمر حين سأله قتل حاطب : « لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وكما يكون التلميح الى شـــخص أسطورى أو تاريخى .. اشتهر بصفة أو عمل ما ، قد يلمح الشاعر الى حديث ، كما رأينا ، أو ببيت شعر مشهور ، كقول أبى تمام :

لعمرو على الرمضاء والنار تلتظى
ارق واجفى منك في ساعة الكرب

فهو يشير الى البيت المشهور :

المستجير بعمرو عنـد كربتـه
كالمستجير من الرمضاء بالنار

ومن هذا القبيل تلميح بشار الى قول امرئ القيس . حين بلغه قتل أبيه ، وهو يشارك صحبه الشراب :

اليـــوم خمر وغـــدا أمـــر ،

فقال بشـــار :

اليـــوم خمر ، وفى غد خبر
والدهر ما بين انعـــام وابآس

هذه نماذج قليلة مما ذكره الشعراء من تلميحات الى أشخاص أو أحداث أو كلمات مأثورة . وقد شارك النثر فى ذلك بســـهم وافر .. فرسالتا ابن زيدون مزدحمتان بهذه الاشارات والتلميحات، وما أظن أننا فى حاجة الى عرض نماذج منها .. فهما فى متناول كل قارىء ، أو دارس ، وعلى كل فهذه النماذج القليلة تدل على أن النقاد العرب كانوا يعضدون ثقافة الشاعر ، ويحبذونها ، كما أن الشعراء قد اهتدوا برهافة أذواقهم ، واحساساتهم الى ما فى هذا النوع من التعبير التلميحى من جمال .. اذ يفتح أمام المتذوق نافذة يطل منها على عالمين : عالم الحاضر للشاعر الذى يتحدث فيه عن تجربته الآتية ، وعالم من الماضى أسطوريا كان أم تاريخيا .. يتمثل فيه الماضى حيا .. يراه المتلقى بعين بصيرته وخياله ، مقارنا بينه وبين العالم الذى يتحدث عنه الشاعر ، والتلميحات نوع من الرمزية الأسلوبية .. وهى كما يقول الدكتور درويش الجندى : فى الأدب العربى وسيلة الى جانب الاعلان عن ثقافة الأديب أو الشاعر لرد اعتبار الأساليب المبتذلة ، وجذبها من دائرة الابتذال ، ومباشرة التعبير الى دائرة الجدة ، وغير المباشرة ووجازة التعبير اللتين هما دعامتا الرمز فى الأدب العربى كما عرفنا ابن رشيق .. وهـــذا النوع من الرمزية تتوفر نماذجه فى الشعر العربى ، أما النـــوع الثانى وهو الرمزية الموضوعية ، وهى التى يهمل فيها الشاعر ذكر المشبه .. ويجعل حديثه كله يدور حول المشبه به ، فله أمثلة فى الشعر الجاهلى ، كقصة الحية عند النابغة ، وسنجد له أمثلة عند

حازم القرطاجنى أيضا ، وفيه يطيل الشاعر الحديث عن المشبه به » وكأنه نسى أنه انما كان وسيلة لتوضيح المشبه ، بموازنته به ٠٠ وقد لاحظ هذا العلامة جب ، ورأى فيه اقترابا من الذوق الغربى ٠٠ » ٠

ونضيف نحن الى ما قاله الدكتور درويش « من أن أسلوب التلميح هو جذب للمبتذل وانتشال له من نهر المألوف المعتاد الى حيز المبتكر الجديد » ، وفى هذا الأسلوب الرمزى ايحاء وغنى وجدانى ، وفكرى ٠ الى جانب ما يثيره فى النفس من تعجب واستغراب ، وطرافة ، والطرافة والاتيان بالعجيب من الصور أو الأخيلة هما سر ما فى الفن من جمال ٠٠ كما يرى حازم ، ونحن نؤيده فى ذلك ٠

امثلة من تلميحات حازم ورموزه الشعرية :

لست مبالغا اذا قلت ان حازما فى مقدمة شعراء اللغة العربية الذين احتفلوا بالرموز والاشارات التاريخية والتضمينات ٠٠ أو التلميحات الى التراث العربى ٠٠ بل ان الذى لفت نظرى اليه فاخترته . هو تلك الخاصية التى تفرد بها فى أسلوبه ، ويمكن ارجاع ذلك الى اتساع ثقافته ، والمامه الواسع بالتراث الأدبى ، بل وبأهم ما فى التراث العلمى من حكمة وفلسفة ، وفقه ونحو ، وسوى ذلك من علوم عصره ٠٠ ، كما أن تمثله لكتاب أرسطو « فى الشعر » ومحاولته الرائدة فى تطبيقه على الشعر العربى ، ونقل أهم أسسه ، ومقاييسه النقدية والبلاغية الى البلاغة العربية ٠٠ كان عاملا من عوامل احتفاله بالتراث الأدبى ٠٠ واذا كنا وافقنا الدكتور درويش الجندى فى تقسيم الرمزية الى نوعين : رمزية فى الأسلوب ، ورمزية فى الموضوع ٠٠ فان لحازم نوعين من الاستعمال الشعرى لتلك الرموز والاشارات يتطابقان مع هذا التقسيم ٠٠

نوع يكتفى فيه بذكر تلك الاشارات على سبيل التشبيه ، ونوع يهمل فيه المشبه وينصرف عنه الى المشبه به ، فيطيل عنه الحديث ، وهو يقترب فى النوع الثانى الى الاستعمال الحديث الذى يجعل فيه الشاعر من الأسطورة وعاء يصب فيه التجربة ، أو الفكرة التى يريد التعبير عنها ٠٠ متخذا من الأسطورة رمزا يوحى أو ينقل ما يريد الكاتب أن ينقله الى القارىء ٠

واعتماد حازم فى الغالب على التراث العربى ، يستمد منه رموزه ، وتلميحاته ، فهو قد يشير الى بعض الآيات القرآنية كقوله :

هم رحماء للمطيع ، وهم ذوو
قلوب على العاصى غلاظ أشداء

وهو من قوله تعالى « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » ٠ ولقد أدى هذا التلميح غرضين ٠٠ وهو ما يؤديه الرمز عادة ، فهو قد عرض بعض صفات الممدوحين ٠٠ كما أنه نقلنا الى جو دينى هو جو صفات أصحاب النبى ، وبذلك أوحى الينا الشاعر بأن فى ممدوحيه بعض صفات المسلمين الأوائل من أصحاب الرسول عليه السلام ، ومن المعروف أن الحفصيين وهم امتداد للدولة الموحدية التى أنشأها المهدى بن تومرت كانو يرون فى أنفسهم ، وفى أتباعهم ، هذه الصفة ، كما يرون أنهم قد جاءوا لتجديد الاسلام وتخليصه من البدع الطارئة التى جلبها المجسمون٠

يقول حازم فى هذه القصيدة فى وصف ممدوحه :

امام هدى ، عدل ، به الله نوره ۔ اتم وأبدى سره بعد اخفاء

ويبالغ حازم فى مدح الخليفة أبى زكرياء ، فيكاد يلحقه بالأنبياء ، حين يقول :

من الجانب الشرقى نودى كل من
على الأرض من دان سعيد ، ومن ناء

كما أسعد الله ابن عمران اذ سرى
الى الجانب الغربى من طور سينـاء

هو النـــور نور الله متحد ، وان
تعدد فى شتى عصـــور ، وأنحـــاء

فالناس قد سعدوا حين نودوا لرؤية الخليفة ، واستقباله ، سعادة موسى بنداء ربه ، وفى البيت الثالث ما يشير الى أن الممدوح، وموسى النبى ٠٠ كليهما من نور الله ٠٠ ففى عصر مضى تجســد نور الله فى موسى وفى عصر الشاعر تجسد فى ممدوحه ، ويشـبه هذا ما يقول به من يؤمنون بوحدة الوجود ٠٠ وشبيه به ما يعتنقه الشـيعة والفاطميون ٠٠ والذى يهمنا هو تلك الاشـــارة الى الآية القرآنية « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى انى أنا الله رب العالمين ٠ » وقوله تعالى « وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين » ٠

ومن الاشارات الى آيات قرآنية ، وهى تؤدى ما أداه سالفها من خلع لون من القداسة على الممدوح قوله :

وأبت ٠٠ ونور الله يسعى امامكم
فيهـدى ضـياء يملأ العين ثاقبـــة

اشارة الى قوله تعالى « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » ٠

وهو يستعير الكثير من التعبيرات القرآنية ، أو يسلك المسالك القرآنية فى التعبير كقوله :

تجرى بها الأنهـار : من ماء ، ومن
خمر ، ومن رسل ، وأرى قد صـفا

فهو اتبع فى ذلك قوله تعالى « فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ٠٠ » مع تغيير فى بعض الألفاظ لمقتضيات الوزن ٠٠

ولحازم أيضا بعض التلميحات الى الأحاديث النبوية ، ولكن ذلك قليل ـ ومن هذا القليل قوله :

كأنما الدهر اسـتدار فأرى من جرى ذاك الماء ماكان ارى

فهو اقتباس من قول الرسول عليه السلام : « ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ٠٠ » وقوله : « جيش جيوش الرعب من قدامه » ٠

فهو ينظر الى قول الرسول عليه السلام : « نصرت بالرعب مسيرة شهر ٠٠ » وقد سبقه الى هذا أبو تمام فى قوله :

لم يغز جيشـا ، ولم ينهد الى بلد
الا تقـدمه جيش من الرعب

هذه نماذج من اشاراته الى بعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية . أما اشارته الى الأمثال العربية فهى قليلة ، نذكر منها قوله :

ان اجتلب شـعرا اليـه فاننى
الى هجر ، تمرا ـ كما قيل ـ جالب

فقد ضمن المثل العربى القديم « كجالب تمرا الى هجر ٠٠ »
وقد تكلف حازم وتعسف فى صياغته ، حيث قدم المفعول على اسم الفاعل الذى نصبه ٠ وأقحم « كما قيل » ليستقيم وزن البيت ٠٠ فما أغناه عن كل هذا العناء ، ولكنه فى البيت الآتى من مقصورته قد ضمن مثلين متشابهين دون تعسف ، وذلك فى قوله :

يا زمنا حفا المنى من بعد ما قد كان والى البر منه ،واحتفى
قد بلغ الحزام طبييه وقــد أفرط حتى بلغ السـيل الزبى

وقد ضمن مثلا آخر هو قولهم « فما عدا عما بدا ٠٠ » وهو يضرب للرجل اذا فعل أمرا ثم عدل عنه فقال حازم :

أنأيت ـ يا دهر ـ المنى من بعد ما
أذنيتهــا ، فمــا عــدا عما بــدا

واشارات حازم وتلميحاته الى الأشخاص التاريخيين الذين دنوا بصفاتهم الى أن يصيروا أشخاصا أسطوريين ٠٠ كثيرة فى شعره ، وهو لم يكتف بذكر أشخاص من العرب ، وانما ذكر بعض الأشخاص من غيرهم ، وان كان ذلك قليلا : فممن ذكرهم من غير العرب كسرى ، وقصته مع حابس بن زرارة ، وقومه ، وقد اقترب برمزه هذا الى أن يكون رمزا موضوعيا ، اذ انصرف جل حديثــه الى المشبه به وهو كسرى الذى أشار اليه ، والى حاجب ، وقومه ، والنار التى كانت تعبد فى بلاد الفرس فى عهده ، يقول حازم فى وصف جمال حاجب محبوبه :

ادنى الجمال منه قوس حاجب وضمن الطاعة عن أهل الهوى
كأنه كسرى على كرســــيه وحاجب بالقوس منـه قد دنا
ملكه الحسن القلوب ، واعتنى من بسطة الملك له بما اعتنى
وسامها أن تعبد النار التى لهيبها من فوق خديه احتمى
فهو بما قد سام أرباب الهوى حذو ملوك فارس قد احتذى

لقد مزج حازم بين الحديث عن محبوبه ، وما تمتع به من جمال وحسـن ، وبين الحديث عن كسرى ، وما له من صـولة وصولجان ، كما أشار الى ما حدث لحاجب بن زرارة مع كسرى ـ من أنه وفد على كسرى عـام جدب ، أصاب مضر بسبب دعوة الرسول عليهم حيث قال : اللهم أشدد وطأتك على مضر ، وابعث عليهم سنين كسنى يوسف ، فأتى حاجب كسرى يطلب منه أن يبيح لهم الرعى فى ريف العراق ، بعد أن منع تميما منه لاعتدائها على قوافله ، فأباح له ذلك اذا قدم له حاجب ضمانا بأن قومه لن يفسدوا البلاد ، أو يتعرضوا للقوافل ، فقدم له حاجب « قوسه » ضمانا ٠٠ ولما قدمها ضحك الحاضرون ٠٠ ولكن كسرى قال لهم : ما كان ليسلمها فى شىء أبدا ، وأخذها منه ، وأذن لهم بالرعى فى الريف ، واستردها ابنه « عطارد » بعد موت والده ، وقد ظلت بنوتميم تفخر بقوس حاجب مدة طويلة ٠٠ قال أبو تمام فى ذلك مادحا أبادلف العجلى :

اذا افتخرت يوما تميم بقوسها
فخارا على ما وطدت من مناقب

فانتم بذى قار امالت سيوفكم
عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

لا شك أن قارىء أبيات حازم ستثير فى نفسه الى جـانب جمال حاجب محبوبته ٠٠ قصة حاجب بن زرارة مع كسرى ، بل ربما تنقله عن ذلك الجو الغزلى ، الى أعماق التاريخ ليرى من شرفاته « حاجبا » فى مجلس كسرى الذى أحاط به أتباعه ـ وهو يقدم قوسه ضـمانا لكسرى ٠٠ كما يلمح نظرة وزراء كسرى المزدرية لما فعله حاجب ٠ ورد كسرى عليهم ٠٠ واقناعهم بعظم مـا يفعله حاجب سـيد قومه ، وأحد أشراف العرب ، كل ذلك يثيره الرمز

رغم أن المشابهة بين طرفى التشبيه من قبيل الشبه الحسى ٠٠ أو الاستدعاء اللفظى ٠٠ فكلمة حاجب ٠٠ استدعت حاجب بن زرارة ، وباستدعاء اسم حاجب تم استدعاء سائر قصته مع كسرى٠

كما أشار حازم الى القائد الفارسى رستم فقال :

جياد اعادت رسم رستم دارسا

أما الرموز العربية فهى كثيرة ٠٠ بعضها مستمد من التراث الاسلامى الدينى ، وبعضها من التاريخ وأيام العرب ٠٠ فمما استمد من التراث الدينى الاشارة الى قصة موسى ٠٠ فلقد أولع حازم بموسى وقصته كما فى القرآن الكريم ٠٠ فتناولها من زوايا مختلفة ، فحينا يشبه سعادة الشعب بلقاء ممدوحه بسعادة موسى بلقاء ربه ، وحينا يشبه ما منحه ممدوحه من رصانة فى القول وبلاغة ، بما منحه من موسى من معجزة العصا التى أبطلت ما أتى به السحرة ٠٠ كما فى قوله :

وكم حكمة غراء منك قضت لنا
بابطال ما ابدى البيان من السحر

فهل آيتا موسى الكليم لديكم
بما حزت من حكم ، ومن نائل غمر

ومن أجمل صوره تلك الصورة التى يرسمها لممدوحه ، وقد غزا بلاد الأندلس مخترقا جبال الفتح من شاطىء سبتة :

بحيث التقى بالخضر موسى، وطارق
وموسى ، به رحلا لغزو العدى حطا

وسعيك ينسى ذكر سعيهما بها
ويوسع سعى المشركين بها حبطا

فقد استطاع حازم بما منحه من فكر ناقد ، وخيال مجنح ٠٠ أن يجمع بين شيئين متباعدين وحديثين لا تجمعهما رابطة ، وهذه احدى قيم الفن الرائع ، أن يجمع بين المتباعدين ، ويوجد بين النقيضين ما لا يدرك من علاقات ، هما حدث التقـــاء موسى ، والخضر ، على الشاطىء ٠٠ والتقاء موسى بن نصير وطارق بن زياد عند اجتياز هذا الممر المائى الذى يفصل ما بين المغرب والأندلس ٠

ومن الرموز الدينية التي استغلها حازم شخصية سليمان ، وملكه الواسع :

تظل جنود الطير تقفو جنوده كأن سليمانا كتائبه يهـدى

أو :

وملكت ما ملك ابن داود الذى كل الأنام لأمـره قد سـخرا

ويشير الى أيوب وما اشتهر به من صبر ، وداود وما عرف عنه من قدرة على اذابة الحديد ، وصنع الأسلحة منه ، فيقول فى وصف ما أنشأه المستنصر من بساتين :

وكم قد سطرتم حولهـا من كتيبـة
كما نسق الأسطار فىالصحف كاتب

فتعزى الى ايوب أو فى دروعهـم
ولم يعزهـــا يوما لداود ناسب

ومن التـــاريخ العربى العام أى الذى يشـــمل العدنانيين والقحطانيين ، والمنازرة والغساسنة فى القديم أو الحديث بالنسبة لعصره ٠٠ نجده يذكر زرقاء اليمامة التى اشتهرت بقوة البصر ٠٠ وقصتها فى ذلك مشهورة ، وقد صاغ قصتها النابغة الذبيانى ٠٠ كما صاغها الأعشى فى أبياته التى يقول فيها :

ما نظرت ذات أشــفار كنظرتهــا
يوما ولا نظر الذئبى اذ شجعــا

قالت ارى رجلا فى كفـه كتف
أو يخصــف النعل لهفا اية صنعا

فكذبوها بما قالت ٠٠ فصــبحهم
ذو آل حسان يزجى السهم والسلعا

وقد ذكر حازم زرقاء اليمامة فى أكثر من موضع ، من ذلك قوله فى الحديث عن ممدوحه الذى يهتدى الى مقاتل الأعداء بعين كعين زرقاء اليمامة :

يرى كل خافى مقتل من سنانه
بعــين كزرقاء اليمــامة زرقــاء

ويذكرها مرة ثانية ذاكرا معها قبيلتها حجرا التى قصدهــا الأعداء ، فحذرتهم الزرقاء منهم ولكنهم لم يصغوا لكلامها فيقول:

لو يممت حجرا عدا عن أن ترى
تلك الكتائب نقعها زرقاءهــا

لقد أشرنا فى أكثر من موضع الى أن حازما يكره أن يكرر نفسه ٠٠ فاذا ذكر صورة أكثر من مرة أدخل على الصــورة الثانية ما يجعلها تخالف الأولى ٠٠ ولو ببعض المخالفة ، كأن يزيد فيها كما فى الصورة السابقة ، وقد نظم القصة كلهــا فى المقصورة ، وهذا كما ذكرنا من قبيل الرمزية الموضوعية ٠٠ فقال :

ورب رأى حسن قد اغتدى مقبحا عند الجهــول مزدرى
قد كذب الزرقاء قوم حســبوا مقالها الصادق زورا مفترى

سمت بعينيها الى الجيش الذى تدرع الأشـجار كيدا واكتسى
قالت ، ولم تكذب أرى مقبلة اليكم يا قوم اشـجار الفلا
وابصرت ما لم تحقق عينهـا صورته فى كف شخص قد نأى
قالت أراه خاصـفا أو آكلا لكتف لهفى على ما قـد اتى
فصبحت ديـار من كذبها بجحفل قد عاث فيهـا ، وعثا

كما ذكر عروة وعفراء ، وبنى ثعل الذين اشتهروا بقدرتهم على الرمى ، واصابة الهدف البعيد ، وسد مأرب الذى ذكره مرتين، مرة من حيث انه قد كان ملكا لمأرب : وذلك فى صدر حديثه عن تلك القنوات المائية التى أجراها الخليفة المستنصر الى تونس :

لكل امرىء فيها من الماء قسـمة
وشـرب كما كانت لقحطان مـأرب

ومرة أخرى لبيان كيف أن الثـائرين على الخليفة بدلوا من النعمة تنكيلا كأهل جنة مأرب :

ولو قوبلت بالشـكر جنة مأرب
لما اعتاض منها أهلها الأثل والخمطا

ومن رموز حازم المسـتمدة من التراث العربى : حاتم الذى اشتهر بالكرم ، وتبع وأذواء اليمن وما كان لهم من ملك واسـع ، وحسان بن ثابت وأيام شبابه التي قضاها فى امارة الغساسنة .

وبكيت أيام الشباب كما بكى حسان أياما حسـن بخلق

ويضمن أجزاء من أبيات لعنترة بن شداد .. منها مع تغيير فى المعنى ، وصرفه عن وجهه :

عاطى الصفاح مدامة ، ابريقهـا
بسـبائب الكتـان غير مفـدم

فترى الذباب بها يغنى في الطل
« هزجا كفعل الشـــارب المترنـم »

مــاجت به لجج الحديد ـ محيــطة
« فتركن كل حديقـــة كالدرهم »

ويذكر « غيلانا » وما اشتهر به من حب ، « ومعنا » وجوده ، و « أحيحة » الذى اشتهر بما يلبسه من أكسية الحديد حين يلاقى الأعـــداء · « ويزيد » وما عرف عنه من حزم ، و « عرابة » الذى قيل عنه :

اذا ما راية رفعت لمجـــد تلقاهـــا عرابـة باليمين

وقبيلة غسان ويوم السـباسب ، والأبلق الفرد ذلك القصر الذى أنشأه الغساسنة وأخذ شهرة وصيتا · ومن أجمل صوره ، تلك الصورة التى يتخيل فيها الصحراء المقفرة ، وقد ضمت حمول محبوبته وصواحبها ، دار ابن ذى يزن :

ظننت الفلا دار ابن ذى يزن بهـــا
وخلت المحاريب الهوادج والغبطـــا

فكم دمية للحسن فيها ، وصـورة
تروق ، وتمثال من الحسن قد خطا

ولحازم في مقصورته خاصة عدد من القصص الشـعرى ·· الذى أفاض فى صوغه ، وتتبع فيه كل خطوط الحدث ·· وجزئياته ·· وقد ذكرنا واحدة منها هى قصة زرقاء اليمـــامة ·· وهو يذكر هذا القصص فى مقام الاســـتدلال على ما يقول : وتأييده ببعض أحداث التاريخ ، فحين يذكر ما أثاره الحمام فى وجدانه من شجون يستطرد الى ذكر كل من حدث لهم ذلك ، فيذكر قيس بن الملوح ،

والنجدى الذى سمع سجع الحمام ، وهو فى بستان ابراهيم ابن المهدى ، فاشتاق الى وطنه ، وعوف بن محلم ، وتوبة بن الحمير، وذا الرمة غيلان ، وحميد بن ثور ، واللص جحدو ، وجرير بن الخطفا وهو في ذكره لهؤلاء ٠٠ يذكر بعض تعبيرات تومىء الى ما قالوه من شعر ٠٠ كما ينقل لنا الجو الذى جرى فيه ذلك ، فحين يقول :

واضرمت من لوعة النجدى فى
بستان ابراهيم ما كان خبا

واذكرت عوفا بدار غربة
زغبا صغارا مثل افراخ القطا ٠٠

فانه يذكرنا بأبيات هذا النجدى التى يقول فيها :

وفى بستان ابراهيم غنت حمائم بينها فنن رطيب
فقلت لها وقيت سهام رام ورقط العيش مطعمها الحبوب
كما هيجت ذا شجن غريبا على أشجانه فبكى الغريب

وينقل الى بؤرة وجداننا ، ما قاله عوف بن محلم الذى حن الى أطفاله ، وهو فى ضيافة عبد الله بن طاهر فقال :

وارقنى بالرى نوح حمامة فنحتوذو الشجو الغريبينوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون افراخى مهامه فيح

ان ما فعله حازم من ذكر بعض الألفاظ والتعبيرات التى تسهم فى توضيح معالم الحدث ٠٠ الى جوار ذكر اسم الشخص ٠٠ لا أظن أن شاعرا قد صنعه من قبل ٠

ويصوغ حازم عددا من هذا القصص الشعرى ٠٠ ليبرهن به على الفكرة المجردة التى سبق له أن ذكرها ، فحين يقول ان دون الغايات العظيمة مصاعب جمة ٠٠ يسوق للبرهنة على ذلك

بعض القصص لمن لاقوا المتاعب ، وعانوا المشاق فى سبيل ذلك ؛ من أمثال كعب بن مامة :

فقد تصـدى للردى بجـــوده
كعب الى ان مات من فرط الصـدى

ولم يغث مهجتـــه بالرى بل
أروى أخـــاه النمرى ، وســـقى

وربيعة بن مكرم الذى حمى الظعن حيا ، وميتا ، فقدهـــا به أعداؤه وهو مستند على رمحه ميتا ، ودريد بن الصمة الذى طاعن الخيل عن أبى زفافة أخيه .

وحين يدعو حازم الى الاحتياط والحزم .. يدعم رأيه بأمثـلة لأشخاص أضاعوا الحزم فأصيبوا بما أصيبوا به ، من أمثال جذيمة الأبرش الذى لم يصغ لنصيحة قصير ، ووضاح اليمن الذى شـبب بأم البنين فقتله الوليد بن عبد الملك ، وعمرو بن سعيد الذى قتله عبد الله بن مروان خوفا من ثورته ، ورغم أن أخته كانت زوجا للوليد ابن عبد الملك ، والنعمان بن المنذر الذى قتل عدى بن زيد فكاد له ابنه عند كسرى حتى قتله .

وعبد الله أخى دريد الذى أصر على التوقف فى الطريـــق لينتفع ، ويربع ، فحذره دريد من ذلك فلم ينته ، ولما نحر وثارت الدواخن اهتدى اليه أعداؤه من عبس وفزازة وأشجع فقاتلوه حتى قتـــل .

وحين يذكر حازم أن الرأى الحسن قد يرفض ، ولا يعمل به عند من يجهله ، يدلل على رأيه بقصة زرقاء اليمامة التى كذبهـا قومها فهلكوا ، والزبراء الكاهنة التى نبأت بانهيار السد ، ولندع حازما يحدثنا عنها :

واطرفت طريفة فيما حكت — من نبا السد،وما منه انهوى
فاهت بقول معتز للصدق فى — تمزيق قحطان على الأرض عزى
فما نجا غير امرىء صدقها — وأهلك الباقين سيل قد طفى
وسرح السد عنان جامح — يجيش مثل البحر من كل عنا

ويفعل مثل ذلك حين يعضد رأيه فى أن من يظاهر عزمه بالحزم يحقق النجاح ـ فسيف بن ذى يزن حرر بلاده بعزمه وحزمه ،وكذلك فعل عمرو بن عدى ابن أخت جذيمة حين كاد للزباء وأعانه قصير فى كيده ·· ومحرق قد حرق مائة من بنى تميم بدهائه ، والجحاف الذى اختلق عهدا من عبد الملك بن مروان ليجمع بمقتضاه الصدقات من بكر وتغلب ، الذين قتلوا عم الحجاف ، وذلك ليخدعهم ، ويأخذهم على غرة ، وقد تحقق له ما أراد ·

ويسوق حازم قصصا كثيرة للتدليل على أن حياة الذل والهوان كالموت ، فأبو براء حين عصاه قومه دعا بالخمر فما زال يشربها الى أن مات ، وابن الأشعث الثائر على الحجاج ، حين وقع فى الأسر ، ووجد انشغالا من حراسه ، رمى بنفسه من عل فسقط ميتا ، وثار زيد بن على بن الحسين على الحجاج ، ومات ثائرا ··

ولأن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة ·· نجد بعض من أقبلت عليهم الحياة يتعرضون فى فترات أخرى من حياتهم للمكاره · فامرؤ القيس يموت من أثر السم ، وانتقض جرح صخر عليه فمات متأثرا به :

حتى لقالت عرسه ، باكية — ميت يبكى او صحيح يرتجى
وكادت الخنساء تقضى نحبها — من اسف عليه لما أن قضى
وأبنته بمراث ·· يحتذى — مثالها اخرى الليالى من رثى

ولأن الاغتراب كالهلاك ، « وقلما بان امرؤ عن أرضه الا وبان

الصبر عنه ، ونأى » ، يسوق القصص والأمثلة لمن أمضهم الشوق الى أوطانهم ، فقد تشكى بن مضاض من شوقه الى الحجون والصفا ، وبرى الشوق جثمان بلال،وحن عمرو بن الوليد أبو قطيفة الى المدينة وسجل حنينه فى شعر باك ٠٠ جعل ابن الزبير الذى نفاه مع قومه من بنى أمية يعفو عنه ، وحن جميل الى وادى القرى حيث توجد منازل بثينة ، وترك أبو دهبل الجمحى كل ما كان يتمتع به من ملذات حين اشتاق الى زوجه وأولاده ٠

وبان عن أوطانه ابن طالب اذ ضل مطلوبا بدين مقتفى
وكم تمنى ورجا ان يشتفى بشربة من مائها فما اشتفى
والمرء يرجو ، والليـالى تارة تدنى ، وتنئى تارة ما قد رجا

وفى حديث حـازم عن يحيى بن طالب ٠٠ يشـير الى سبب اغترابه ، وهو الهرب من دين حل عليه كما أشـــار بقوله « اذ ظل مطلوبا بدين » الى قوله :

اريد هبوطـا نحوكم فيردنى اذا رمته دين على ثقيـل

ويشير بقوله : « كم تمنى ورجا ٠٠ » الى قول يحيى بن طالب :

فاشرب من ماء الحجيلاء شربة يداوى بها قبل الممات عليل

هذه هى الرموز والاشارات التاريخية والأدبية والعلمية التى تدل على اتساع ثقافة حازم ، بعضها قد صاغه فى صور سريعة جزئية من تشبيهات أو استعارات ، وبعضها قد صاغه فى صور سريعـة جزئية من تشبيهات أو استعارات ، وبعضها قد أخرجه فى صـــورة كلية تتناول كل جوانب القصة ٠٠ وبذلك يكون حازم قد طرق ما يطلق عليه حديثا الرمز الموضوعى الذى يهتم فيه بالمشبه به ، فينصرف كل الحديث اليه ٠٠ ، كما أن حازما كثيرا ما أومأ ببعض الكلمات والتعبيرات الى ما قيل من شعر فى هذه القصة أو تلك ، أو

ما قاله هذا البطل التاريخى أو الأسطورة من شعر ٠٠ وبهذا يجعل القارىء يتمثل كل جوانب القصة ، ويعيش بين أبعادها الحسية والوجدانية ، ويتنسم روائحها ، ويحيا فى مناخها ، وعلى أرضها وتربتها ، وليست كل القصص التى ألم اليها حازم فى مستوى فنى واحد ٠٠ بل نجد عنده أكثر من مستوى ، فحينا ينظم القصة نظما قريبا من التسجيل الواقعى بعبارات غير متوهجة ، وأحيانا ٠٠ ينظم القصة بأسلوب متوهج ، وصور موحية مشعة ، واغلب ما يكون ذلك حين تكون للقصة صلة بوجدان الشاعر ٠٠ فالقصص التى تسجل الشكوى من الاغتراب ، نلحظ فيها ذلك التوهج والاحساس ، لقربها من وجدان الشاعر ، وظروف حياته ، كما أن لتعبه ، أو راحته ، وقت النظم أثرا فى ذلك ٠

الباب الثالث

الملاحم وأثرها فى الشعر العربى

المطولات العربية

لقد حفظت لنا الذاكرة العربية بعض المطولات التى تحمل فى طواياها بعض ملامح الملحمة وفى مقدمتها المعلقات ، « فانك ترى فيها من سرد الحوادث ، وتفصيل الوقائع ، وتمثيل المشاهد ، وبداهة الفكر ما يعد فى أعلى طبقات الشعر القصصى ، وفيهن أيضا من بديع التصور والسذاجة ، وحسن التصرف البديهى ، واجادة الرصف وابداع الوصف ، واحكام التشبيه ، ما يسمو بها الى أرفع درجات الشعر الموسيقى على ما يراد به فى العرف ، منها معلقة الحارث بن حلزة لافاضته فى وقائع بكر وتغلب ، وتغنيه بفوز قومه ، ونكال عدوه ، ومفاخر عشيرته ، على ما يماثل تغنى هوميروس فى الالياذة . وتليها بهذا المعنى معلقة عمرو بن كلثوم ثم معلقة زهير . ويلحق بالمعلقات ، باعتبار أنها ملاحم عربية ، مجمهرة بشر بن أبى حازم وأمية بن الصلت ، ومنتقيات مهلهل ، ودريد بن الصمة ، والمنخل بن عويمر ، ومذهبة قيس بن الخطيم ، ومشوبة النابغة الجعدى ، وملحمات الفرزدق والكميت والطرماح .. » .

وللعرب « المعلقات والمجمهرات والمنتقيات ، والمراثى ، والمشوبات ، والملحمات ، فهذه تسع وأربعون منظومة لتسعة وأربعين شاعرا اذا تصفحتها تبينت لك فى كثير منها مزايا هذه الملاحم القصيرة المختصة بلغة العرب ، ولا سيما ما قيل منها فى الجاهلية ٠٠ » ٠

بل ان بعض الشعراء قد كان يزيد فى قصيدته ، كما كان يفعل بالالياذة وغيرها من الملاحم ٠ قال حماد الراوية « ما تمم ذو الرومة قصيدته التى يقول فيها :

ما بال عينك منها الماء ينسكب ... كأنه من كلى مغرية سرب

حتى مات ٠ كان يزيد فيها منذ قالها حتى توفى ٠٠ » ٠

وبعضها كان مما يزيد فيه الشعب حتى بعد موت الشاعر ، فقصيدة الشريف الرندى كانت تزاد فيها أبيات تسجل ما يجد من أحداث وما يسقط من مدن فى يد الأعداء ٠

وربما كانت القافية الموحدة هى احدى العوائق دون نظم ملاحم تسجل معارك العرب مع غيرهم ، وبالضرورة فانها كانت ستخلو من الأساطير الوثنية ، لأن الاسلام قد جب ذلك ، بل ربما استبدلوا بالآلهة ٠٠ الملائكة الذين يناصرونهم على أعدائهم ، كما فعل ابن هانىء فى قصيدته التى يصف فيها أسطول المعز :

اطاع لها أن الملائك خلفها ... كما وقفت خلف الصفوف ردود

وللعرب منذ جاهيلتهم الأولى بعض القصص الشعرى الذى يحمل بعض مقومات القصة ، من : حدث وعقدة وحل وسرد ، نجد كل ذلك متوفرا فى قصيدة الأعشى عن السموأل ، التى قال عنها بروكلمان : أما محاولة الأعشى انشاء شعر القصة واختراع أسلوب

الملحمة فى اشادته بوفاء السموأل فقد بقيت عملا فذا لم ينسج احد على منواله ... » .

وأول قصته :

كن كالسموأل اذ طاف الهمام بـــه
في جحفل كسواد الليـــل جـــرار

وفاته أن للعرب محاولات أخرى عاصرت هـــذه المحاولة أو سبقتها فلعدى بن زيد قصة عن الزباء وجذيمة وقصير ، وقصص يبدو فيها أثر الصنعة لأسية بن الصلت عن عاد وثمود وهود ، وأساطير عن آدم وابليس كالأبيات التى أوردها المسعودى على لسان آدم حين بلغه مصرع هابيل فقال :

تغيرت البلاد ومن عليهـــــا فوجه الأرض مغـــبر قبيـــح

فرد الشيطان قائلا :

تنح عن البـــلاد وساكنيهـــــا
فقد ـ فى الأرض ـ ضاق بك الفسيح

فما زالت مكائد لى ، ومكـــرى
الى ان فاتـك الثمـــن الربيـــح

وقصيدة الأعرابى والضبع ٠ التى تدير فى تسعة مقاطع مختلفة القوافى حوارا بين أعرابى وضبع أكلت شاته ٠ نورد منها ٠

قال الأعرابى :

ما انا يا جعار من خطـــابك على دق العصل من أنيابـــك
على حذا جحرك لن اهـــابك ما صنعت شاتى التى أكلـــت
ملأت منها البطن ثم جلـــت وخنـــتنى ، وبئس ما فعلـــت

فقالت الضبع :

قالت له لازلت تلقى الهما وأرسل الله عليك الحمى
لقد رأيت رجلا مغتما

قال الأعرابى :

قال لها كذبت يا خبات قد طال ما أمسيت فى اكترات
أكلت شاة صبية غرات

قالت له :

قالت له والقول ذو شجون أسهبت فى قولك كالمجنون
اما ورب المرسل الأمين لأفجعن بعيرك السمين
وأمه وجحشه القرين حتى تكون عقلة العيون ٠٠ الخ

وقد كان للعرب تأثر بالديانات ، والثقافات ، وتاريخ ملوك الأمم التى حولهم ، فهذا أمية بن الصلت « يقرأ كتاب الله عز وجل الأول - كما يقول الأغانى ٠٠ فيأتى فى شعره بأشياء لا تعرفها العرب ٠٠ وكان قد لبس المسوح تعبدا ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية ، وحرم الخمر وشك فى الأوثان وطمع فى النبوة ٠٠ ويزعم أنه يعرف ما قالته الشاة لسخلتها ٠٠ » ٠

وقال يحيى بن متى راوية الأعشى وكان نصرانيا عباديا : « كان الأعشى قدريا وكان لبيد مثبتا ٠٠٠ (قلت والقائل رجل من بنى أبان بن تغلب) فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ، قال من قبل العباديين نصارى الحيرة . كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقنوه ذلك ٠٠ » ٠
كما كان اتصال العرب بالفرس فى الحيرة داعيا الى معرفتهم لكثير من أخلاق الفرس وعاداتهم وقصصهم وآدابهم ٠ وكان النضر بن الحارث يعرف قصص ملوكهم وأبطالهم ويحدث العرب بها ليصرفهم

عن الاستماع الى محمد الذى يحدثهم بأحاديث عاد وثمود ·· » ·
ومن المؤسف أن عددا من الباحثين المتزمتين ينفون عن العرب أى تأثير بغيرهم ، كأن القول بالتأثر ينفى عنهم كل خلق وابتكار ، كما أن البعض الآخر يجرد العرب من كل فضيلة ، ويعزو كل ما لديهم من ابتكار الى سواهم من الأمم المجاورة ، والعرب كسواهم يؤثرون فى غيرهم ، ويتأثرون به ·

هذا ما كان فى العصر الجاهلى ·· فاذا ما انتقلنا عنه ، طاوين عصر صدر الاسلام وما فيه من شعر حماسى وفير ، يقف على قمته شاعر الرسول حسان بن ثابت الذى اكتملت شاعريته فى العصر الجاهلى ، وفى الجو المشحون بالصراع والصدام تكثر الأناشيد الوطنية القصيرة التى تلائم حاجات الحرب والقتال ·· لذلك فان القصيدة الحماسية فى صدر الاسلام لم تتجه نحو الشعر الملحمى ، وان كانت انتقلت بالشعر من غايته الضيقة وهى التغنى بانتصارات القبيلة الى تمجيد بطولة المسلمين عامة ، والغض من شأن المشركين ·

وفى دولة بنى أمية أصيب بانتكاسة على أيدى مشاهير الشعراء كالفرزدق والأخطل وجرير ، ساعد على حدوثها خلفاء بنى أمية أنفسهم ، اذ عاد الشعر سيرته الأولى يتغنى بالانتصارات القبلية ، باعثا لتلك النعرة العصبية التى حاربها الاسلام بكل ما أوتى من قوة ·· وبالرغم من ذلك فان ركب الحضارة قد أخذ فى التقدم ·· فاتسعت الفتوحات وأنشئت الأساطيل البحرية ، وزاد العرب اتصالا واختلاطا بأمم ذات حضارات قديمة كمصر وافريقيا ، وأسبانيا ، وغيرها ·· وبدأ الحكام يطامنون من كبريائهم العرقى ويهتمون بما للأمم الأخرى من ثقافات · فهذا معاوية « يستمع لقوم يقصون عليه كل ليلة أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها ·· » ·
« وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيبا شاعرا ، وفصيحا جامعا ،

وجيد الرأى كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء .. » .

كما أن الصراع الدامى بين طوائف ذلك العصر وأحزابه ، أذكى جذوة الشعر ، ودفع بالقصيدة العربية خطوات الى الأمام .. بل أخذت على أيدى بعض شعراء الشيعة تتجه نحو أسلوب الملحمة من حيث : الطول ، وتمجيد بطولة آل البيت ، ومزجها ببعض الأساطير .. يقول أبو محمد سفيان بن مصعب العبدى الكوفى المتوفى سنة ١٢٠ هـ وقيل بل عاش الى حدود سنة ١٧٨ هـ .. من قصيدة يرثى بها الحسين بن على بن أبى طالب : ويبدؤها بقوله :

هل فى سـؤالك رسم المنزل الخرب
برء لقلبـــك من داء الهوى الوصب

يقول فى ذكر مناقب الامام على رضى الله عنه ما يمكن أن نسلكه فى سلك الأساطير :

لك المناقب يعيـا الحاسبون لهـــا
عدا ، ويعجز عنهـــا كل مكتتـــب

كرجعة الشمس اذ رمت الصلاة وقد
راحت توارى عن الأبصـــار بالحجب

ردت عليك كأن الشمس ما انضحت
لناظر ، وكأن الشمس لم تغــــب

وبعد أن يمدحه بأنه أخو النبى الهادى ، وزوج فاطمة الزهراء ، وأبو أبنائها النجب ، ينتقل الى ذكر أبنائه . من هالك بالسم أو شهيد ، كما يتحدث عن العابد السجاد ، وباقر العلم ، وعن جعفر وابنه موسى ، والمهدى :

من يملأ الأرض عدلا بعد ما ملئـت
جورا ويقمع أهل الزيغ والشغـب

وعدد أبيات القصيدة نحو ثمانية وتسعين بيتا .

يقول الأستاذ جواد شبر « ان كلمة الحسين تعنى عند الشيعة مبدأ الفداء ، ونكران الذات ، وأن الحسين ما هو الا مظهر ومثال لهذا المبدأ فى أكمل معانيه وان أدباء الشيعة وبخاصة شعراءهم يرمزون باسم الحسين الى هذه الثورة (على الظلم والظالمين فى كل زمان ومكان) لأن الحسين أعلى مثال وأصدقه على ذلك ، كما يرمزون الى الفساد والطغيان بيزيد وبنى حرب ، وزياد وأمية وآل أبى سفيان ، لأنهم يمثلون الشر بشتى جهاته ، والفساد بجميع خصائصه على النقيض من الحسين » .

وفى العصر العباسى حيث تم الامتزاج بين العرب والفرس ، وانتشرت اللغة الفارسية وآدابها بل كادت أن تزاحم اللغة العربية ، فوجدنا من ينظمون الشعر أو يقصون باللسان الفارسى عن قدرة تماثل قدرتهم على ذلك باللسان العربى ، فهـذا موسى بن سـيار الأسوارى « وكان من أعاجيب الدنيا ـ كما يقول الجاحظ ـ كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين ». فأقبل الأدباء ينقلون من الآداب الفارسية ما يرونه صالحا للنقل ، كمـا تأثر الشـعراء والأدباء بالآثار الفارسية فى المعـانى واللغة والأخيلة . « وكان أكثر رجال العلم فى هذا العصر فارسيين حتى قال ابن خلدون : ان حملة العلم فى الاسلام أكثرهم من العجم » . وقد ترجم ابن المقفع عددا من الكتب عن اللغة الفارسية التى كان

يحسنها ، فى مقدمتها كتاب « كليلة ودمنة » الذى أحدث أثرا كبيرا فى الحركة الأدبية فى عصره ، اذ أقبل عدد من الشعراء والأدباء ينظمونه شعرا أو يكتبون قصصا على مثاله . فهذا أبان (ابن عبد الحميد اللاحقى) ينقله للبرامكة شعرا سهلا ، ويختار له بحر الرجز الذى يتسع لذلك كما يغاير بين القوافى ، فيعطيه يحيى بن خالد البرمكى عشرة آلاف دينار ، ويعطيه الفضل خمسة آلاف دينار ، ولم يعطه جعفر شيئا قائلا له « ألا يكفيك أن أحفظه فأكون راويتك » . ولا يلبث أبان أن ينظم قصيدته « ذات الحلل » التى يذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا ، وشيئا من المنطق ، ويظهر أن أبان كان يحفظ التوراة - كما يتهمه أبو عبيدة بذلك ليثبت أنه يهودى هو وقومه - وربما يكون الماهه بها هو الذى مال به الى هذا اللون من الشعر القصصى .

« كما نظم كتاب كليلة ودمنة ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤ هـ فى كتاب « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » ، ونظمه الأسعد بن مماتى سنة ٦٠٦ هـ لصلاح الدين الأيوبى ، كما نظمه الصاغانى من أهل القرن السابع ، وجلال الدين النقاش من أهل القرن التاسع . ومن الكتب التى ألفت على غراره كتاب « ثعلة وعفراء » لسهل بن هارون ، « والصادح والباغم » لابن الهبارية ، وكتاب « سلوان المطاع فى عدوان الطباع » لأبى القاسم .. وغير ذلك . وترجم البندارى الشاهنامه سنة ٦٢٠ هـ ، وقد اعتمد الفردوسى فى تأليفها على مراجع منها كتاب « خداى نامه » الذى ترجمه ابن المقفع .

ولم يكن اهتمام العرب بالثقافة اليونانية بأقل من اهتمامهم بالثقافة الفارسية . فقد دعا أبو جعفر المنصور التراجمة ليترجموا له الكتب اليونانية عن السريانية أو الرومانية مباشرة « كما أوفد

المأمون الرسل الى ملوك الروم فى استخراج علوم اليوناتيين وترجمتها ٠٠ » ٠ وسنتحدث عن أثر الفكر اليونانى فى الثقافة العربية فيما بعد ٠ ولم تكن لتقوم هذه النهضة العلمية والأدبية الشاملة لولا حب خلفاء العصر العباسى وبعض أهل البيوتات المعروفة كالبرامكة للعلم ٠ والجاحظ يحدثنا عن رأى المأمون فى كتبه فيقول : « ولما قرأ المأمون كتبى فى الامامة فوجدها على ما أمر به ، وصرت اليه ـ وقد كان أمر اليزيد بالنظر فيها ، ليخبره عنها ـ قال لى : قد كان بعض من نرتضى عقله ، ونصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب باحكام الصنعة ، وكثرة الفائدة ، فقلنا : قد تربى الصفة على العيان ، قلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة فلما فليتها ، أربى الفلى على العيان ، كما أربى العيان على الصفة ٠٠ ، وهذا كتاب لا يحتاج الى حضور صاحبه ، ولا يفتقر الى المحتجين عنه ، فقد جمع استقصاء المعانى ، واستيفاء جميع الحقوق ، مع اللفظ الجزل والمخرج السهل فهو سوقى ملوكى ، وعامى خاصى ٠٠ » ٠

فالنهضات الفكرية لا تقوم ، وتثمر الا فى ظلال حكام يعرفون قيمة العلم ، ويقدسون رسالة العلماء ٠ ولا يعرف قيمة العلم سوى الحاكم المحب له ، المقبل عليه رغم انشغاله بشئون الحكم ٠٠ وهكذا كان عدد كبير من خلفاء العصر العباسى ، بل والعصر الأموى الذى تقدمه ٠

ننتقل بعد ذلك الحديث شبه الاستطرادى الى أثر الفكر اليونانى فى الثقافة العربية فى بناء وتكوين القصيدة العربية ، وبخاصة فى تلك المطولات التى اتخذت شكلا ملحميا ، وان لم تتوفر لها كل عناصر الملحمة القديمة ، بل يمكننا أن نطلق عليها ملاحم عربية ، فى شكلها الخاص بها ٠٠ وقبل أن نتناولها بالبيان

نشير الى آراء بعض الباحثين ـ فى كثير من الايجاز ـ حول تأثير الفكر اليونانى على الأدب العربى · والبلاغة العربية ·

اليونانيون وأثرهم فى الأدب العربى :

من المتفق عليه أن العرب قد تأثروا تأثرا كبيرا بالفلسفة اليونانية ، وعلومهم التطبيقية من طبيعة وكيمياء ، وطب وزراعة · وقد اعتمد العلماء العرب على ما تركه اليونانيون من ثروة علمية كبيرة فى هذه العلوم · كما أضافوا اليها اضافات رائعة قامت على تجاربهم الخاصة ، بل ان النهضة الأوربية الحديثة مدينة للعرب بالكثير ، ولقد اعترف عدد من الباحثين الغربيين المنصفين بذلك ، فبالنثيا المفكر والباحث الأسبانى ، يحدثنا بافاضة عن أثر العرب على مفكرى الغرب ، يقول فى صدد الحديث عن ابن رشد « ٥٢٥ هـ ــ ٥٩٥ هـ : له كتاب الكليات الذى عرف عند الأوربيين فى العصور الوسطى باسم كوليجت Colliget وهو تحريف للفظ كليات ، وصاحب شروح مؤلفات أرسطو (وقد بقيت ترجمات كتبه الى اللاتينية ، والعبرية أما فى العربية فلم يبق منها الا القليل) ومن مؤلفاته تهافت التهافت وغيرها ، وقد أثرت فلسفته على القديس توما الأكوينى · ولآسين بلاثيوس مقال بعنوان « الرشدية اللاهوتية عند القديس توما الأكوينى » « وله مؤلفات فى الفقه والفلك والطب ·· » · ومن تلاميذ ابن رشد أبو الحجاج يوسف ابن محمد « بن طملوس » ٥٥٩ هـ ــ ٦٢٠ هـ) وكان له أثر كبير فى تاريخ الفكر الأوربى ، فقد أخذ اليهود شروحه وترجموها الى العبرية أو عملوا منها ملخصات فى هذه اللغة ·· « ووضع دانتى الشارح العظيم ابن رشد بين ذوى القدر العظيم من الرجال الذين لا يستطيعون النجاة بأنفسهم من عذاب جهنم بسبب عقيدتهم الدينية » ويقول بالنثيا نقلا عن آسين بلاثيوس : « ان الاسلام فى

عصر ابن عربى كان قد تمثل علوم اليونان جميعا ، وذلك بفضل الدراسات الفلسفية اللاهوتية التى قام بها ابن سينا والغزالى وابن حزم وابن رشد » . ويذكر بالنثيا عددا من العلماء الأندلسيين الذين أثروا فى الفكر الأوربى ، فابن سهيل الضرير — وله عناية بالكيمياء ، واختصاص فى الحيل (٤٨٩ هـ — ٥٧٠ هـ) كان يقصده الكثيرون من نصارى طليطلة ويهودها يغدون عليه فى بياسة ليأخذوا عنه الرياضة . وأبو اسحاق نور الدين البطروجى وكان من أهل النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى ، وقد ابتدع نظرية جديدة فى حركات النجوم ، ترجمها الى العبرية موسى بن طبيون فى عـــام ٦٥٧ — هـ ١٢٥٩ م ثم نقلهـــا الى اللاتينية فالينموس ابن داود سنة ٩٣٥ هـ — ١٥٢٩ م ، وطبع فى البندقيـــة بعد ذلك بسنتين ، وقد ذهب منذئذ أى بلايو « الى أن أجل خدماته للعلم أنه نقض نظرية بطليموس عن العالم من أساسها ، وعارضه فى أخص آرائه كقوله : بالحركة البيضاوية للكواكب ودورانها حول الشمس ، وحركات الأفلاك المتقابلة . وظهر فى القرن الثالث عشر الميلادى — أى فى ظل تقلص سلطان الاسلام عن الجزيرة تقلصا سريعا — ابن البناء الغرناطى الذى ولد فى مراكش عام ٦٥٣ هـ سنة ١٢٥٦ م ، وكان فيلسوفا لغويا صوفيا رياضيا ، وأبو بكر محمد بن أحمد الرقوطى (من أهل رقوطة من أعمال مرسية) وقد رأس أول مدرسة اسلامية أنشأها الفونسو العاشر فى مرسية سنة ٦٦٧ هـ — ١٢٦٩ م ، وتوافد على تلك المدرسة طلاب المسلمين والنصارى واليهود ، ليدرسوا على يديه ، ثم رحل الى غرناطة ودخل فى خدمة سلطانها محمد بن يوسف بن الأحمر ، فأنشأ له مدرسة تولى تدريس الرياضيات وغيرها من العلوم فيها حتى وفاته سنة ٧٤٤ هـ — ١٣٤٤ م .. » .

لقد اضطررت الى ذكر بعض الأمثلة القليلة لما أسهم به العرب والمسلمون عامة فى الحركة الفكرية ، لما أحس به من حيف واجحاف ينالهم على أيدى المتعصبين من الأوربيين ، ومن اقتفى أثرهم من الباحثين المعاصرين ، حيث يزعمون ، ويرددون كثيرا هذا الزعم . بأن العرب لم يكونوا سوى مجرد نقلة للفكر اليونانى ، وحراس حفظوه من الدمار .

فاذا تركنا هذا الجانب العلمى والفلسفى الى الجانب الأدبى ، وجدنا اختلافا بينا بين الباحثين العرب بخاصة . فالدكتور طه حسين « يقرر أن كتاب الشعر لأرسطو » لم يفهمه أحد على الاطلاق ، وصل الكلام ممن عنوا بدراسته من العرب ، ثم يعود فيقرر أن « ابن سينا قد فهم منه نظرية المحاكاة ، كما فهم أصولا عامة قد تنطبق على الأدب العربى من بعض الوجود » .

والدكتور شكرى عياد بعد أن يذكر الأخطاء الكثيرة ، وسوء فهم التعبيرات اليونانية التى فى ترجمة أبى بشر متى بن يونس — يرى أن جل فلاسفة المسلمين قد اعتمدوا على هذه الترجمة ، يقول عن الفارابى : « ويغلب على الظن أن الفارابى قد اعتمد على ترجمة معاصره متى ، واجتهد فى تفسيرها على نحو ما رأينا من استعماله كلمة التخييل بدلا من كلمة « المحاكاة » .. وابن سينا يتتبع فى ترتيب فصوله ترتيب كتاب الشعر كما نجده فى ترجمة متى » ، وكذلك ابن رشد « فالمقارنة النصية بين هذا التلخيص (تلخيص ما فى كتاب أرسطو طاليس فى الشعر من القوانين الكلية المشتركة لجميع الأمم ... الخ) وبين تلخيص ابن سينا ، وترجمة متى ، تدل على أنه اعتمد عليهما ، وجمع بينهما .. » . وقد تأثر أيضا بهذه الترجمة وتلخيصات الفلاسفة علماء البلاغة كقدامة بن جعفر وأبى هلال العسكرى ، وحازم القرطاجنى ، الذى كان أكثرهم تأثرا

به ، وتطبيقا لبعض ما فيه من نظرات بلاغية على الشعر العربى ، فالحق أن تأثير كتاب الشعر فى « منهاج البلغاء » عميق أشد العمق ، وأن حازما قد جهد أن ينتفع بهذا الكتاب أو بالصورة التى عرفها منه ·· أعظم الانتفاع » · أما الأستاذ أمين الخولى فهو يتتبع تأثير فلسفة أرسطو فى كتبه عن المنطق « اذ ان العرب قد ترجموا منطقه على أنه ثمانية كتب ، جعلوا منها الخطابة والشعر » فى البلاغة العربية ، وعلمائها · ناقلا من كلام قدامة وعبد القاهر ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ والسكاكى فى مفتاحه · ما يثبت تأثر البلاغيين والمتكلمين بذلك ·· » ·

ويكاد يوجد شبه اجماع من الباحثين على أن العرب لم يعرفوا المسرحيات والملاحم ويعلل الدكتور / محمد غنيمى هلال لذلك : بأن العرب لم يفهموا كتاب الشعر ، ذلك أن أرسطو كتب ذلك الكتاب يعالج فيه الشعر الموضوعى ـ شعر المسرحيات والملاحم ـ وهو ما لم يعرفه الشعر العربى القديم ·· ولذلك ترجم العرب « المأساة » بالمديح والمهزلة « بالهجاء » مما ضلل فى فهم الكتاب ونظرياته ·· » · ويؤيد ذلك الدكتور طه حسين فى مقدمته لالياذة هوميروس – ترجمة عنبرة سلام الخورى ـ بقوله : « وليس هنا موضع الحديث عن الأسباب التى حملت القدماء حين ترجموا آثار اليونان على اهمال الأدب اليونانى ، وآياته الرائعة ، وانما الحقيقة الواقعة هو أننا عرفنا فلسفة اليونان ، وعلومهم وفنونهم التطبيقية ، ولم نعرف من أدبهم وفنهم شيئا ذا خطر ·· » · ويرى « جوستاف جرونيباوم » أن الفرس قد نجحوا فيما أخفق فيه العرب ، فقد أوتوا تمكنا بارزا فى قصص الملاحم « على حين لم يحس العرب قط بدافع يدفعهم الى أن يصوغوا بالشعر عظمة فتوحهم وأمجادها ، ولا روعة ارتقائهم معارج التوحيد والسلطان ، حتى اذا قبلوا فى

النهاية التاريخ المصوغ شعرا ، كانت الصيغة التى استعملوها هى صيغة الدوبيت الفارسية ، وأغلب الظن أن الشكل المحتذى ، بل حتى الالهام نفسه ، يرجعان جميعا الى باعث أجنبى ، والأخبار الشعرية المنظومة التى تصف أحداثا تاريخية كوصف ابن المعتز لحكم المعتضد بالله ، ووصف ابن عبد ربه لمآثر الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الثالث ٩١٢ ـ ٩٦١ م ، والقصيدة تصل الى عام ٩٣٤ م على دقة عظيمة ، ولكن قيمتها الأدبية ضئيلة ٠٠ » ٠

العرب والملاحم الشعرية :

اذا كان العرب لم يترجموا الملاحم والمسرحيات اليونانية لأنها تتنافى مع معتقداتهم الدينية ، التى تنكر كل ما يذكرهم بتعدد الآلهة ، وعبادة الأوثان والأصنام ، واعتقادهم بأن العرب لا يجارون فى فن الشعر ٠ يقول الجاحظ فى الرد على الشعوبية ٠٠ ونحن أبقاك الله ـ اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة ، من القصيدة والأرجاز ومن المنثور ، والأسجاع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم فى البيان أن يقول فى مثل ذلك ٠٠ » ٠ فان ذلك لا ينفى علم المتخصصين فى الفلسفة ، والأدب به ٠ فى بغداد لعهد العباسيين ٠٠ « اذ كان يتناشد ديوان « هوميروس » الأدباء من نقلة الكتب المقربين من الخلفاء بأصله اليونانى ونقله السريانى ، والظاهر أن الالياذة كانت منتشرة بين الخاصة فى بلاد الفرس والكلدان فى زمن الدولة العباسية ، لأن ثاوفيلس الرهاوى الذى نظمها بالسريانية كان منجم المهدى ثالث خلفائهم ٠٠ قال ابن أبى أصيبعة فى كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، نقلا عن يوسف

ابن ابراهيم فى ترجمة « حنين بن اسحاق » أثناء تنكر حنين وهو عاكف على درس الطب : فتبنت « خرشى » (جارية الرشيد الرومية) ذلك الغلام (اسحاق المعروف بابن الخصى) وأدبته بآداب الروم ، وقرأته كتبهم ، فتعلم اللسان اليونانى علما كانت له فيه رئاسة ، فكنا نجتمع فى مجالس أهل الأدب كثيرا فوجب لذلك حقه وذمامه ، واعتل اسحاق بن الخصى علة فأتيته عائدا فانى لفى منزله اذ بصرت بانسان له شعرة قد جللته ، وقد ستروجهه عنى ببعضها ، وهو يتردد ، وينشد شعرا بالرومية لأوميروس رئيس شعراء الروم فشبهت نغمته بنغمة حنين ، وكان العهد قبل ذلك الوقت بأكثر من سنتين ، فقلت لاسحاق بن الخصى هذا حنين ، فأنكر ذلك انكارا يشبه الاقرار ، فهتفت بحنين فاستجاب لى ٠٠ » ٠ فيؤخذ مما تقدم أن اليونانية كانت معروفة لذلك العهد فى بغداد ، تقرأ وتدرس حتى فى بيوت الخلفاء ، وأن منظومات هوميروس كانت معروفة فيها بين المشتغلين بلغات الأجانب ، ومعظمهم اذ ذاك من النصارى ٠٠ كما تردد ذكر هوميروس على ألسنة كتاب العرب فى : عيون الأنباء ، وابن خلدون ، والشهرستانى ، والبهاء العاملى ، وابن العبرى فى تاريخه ٠ وخلاصة القول : أن هوميروس كان له شأن مذكور عند نقلة الكتب من بطانة الخلفاء ، ولكن المام أدباء العرب بأقواله كان الماما ناقصا ، بقى منحصرا فى أفراد معدودين من كبار الكلدان ٠ » ٠

والذى نكاد أن نؤكده أن معرفة الأدباء ، شعراء وكتابا وفلاسفة ، للملاحم اليونانية وغيرها ، لم يكن محصورا بين عدد قليل أو أفراد قليلين على حد تعبير البستانى :

أولا : فالعرب قد كانوا على معرفة بكتاب الشعر قبل حنين ابن اسحاق ، فللكندى المتوفى على الأرجح عام ٢٥٢ هـ ـ مختصر لكتاب الشعر ، ذكره ابن النديم فى الفهرست ٠ ويفهم من كلام

الجاحظ أن أرسطو قد ترجم فى عصره وقبيل عصره ، يقول الجاحظ : « ان الترجمان لا يؤدى أبدا ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته » • الى أن يقول : « فهل كان ـ رحمه الله ـ ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وأبو قـــرة وابن فهـر وابن وهيلى وابن المقفع مثل أرسطاطاليس •• » • ويعيب الجاحظ على مترجمى أرسطو من العرب فيقول : « لعله (أرسطو) أن لو وجد هذا المترجم أن يقيمه على المسطبة » يعنى يشهر به •• » •

ثانيا : ان القول بأن العرب لم يعرفوا كتاب الشعر الا عن طريق ترجمة متى بن يونس ، قول يجافى الحقيقة ، ويحتاج لمعاودة البحث • ذلك أنه من غير المعقول أن الأعداد الغفيرة من التراجمة الذين كانوا قبل الجاحظ أو الذين عاصروه أو جاءوا بعده ـ لم يقوموا بترجمة أو أكثر لكتاب الشعر ، ولكن لم تصل الينا لمالحقها من الضياع •

ثالثا : كما أن هؤلاء التراجمة كانوا يجالسون الأدباء ويهتمون بالأدب لتقوى قدرتهم على التعبير السليم •• وفى حديث يوسف ابن ابراهيم عن اسحاق المعروف بابن الخصى ما يفيد تردده على مجالس أهل الأدب كثيرا ، مما أوجب عليه عيادته أثناء مرضه • ومن غير المعقول ألا يتحدث ابن الخصى أو اسحاق بن حنين أوسواهما من التراجمة فى مجالس أهل الأدب عن هذا الشعر الذى استبد بنفوسهم حتى حفظوه بلغته الأصلية ، وخاصة أن أهل الأدب كانوا يعرفون عن هوميروس أنه أمير شعراء اليونان ، أو رئيس شعراء الروم على حد تعبير يوسف بن ابراهيم السابق• ويقول ابن خلدون : « قد كان فى الفرس شعراء ، وفى يونان كذلك ، وذكر منهم أرسطو فى كتابه المنطق أوميروس الشاعر وأثنى عليه •• » • ويشير حازم القرطاجنى كثيرا فى كتابه منهاج البلغاء - كما سنبين ذلك ـ الى

الشعر اليونانى ، واختلافه عن الشعر العربى ، من ذلك قوله : « ان أشعار اليونانية انما كانت أغراضا محدودة فى أوزان مخصوصة ، ومدارج أشعارهم على خرافات كانوا يصنعونها .. » . ويقول : « وكان شعراء اليونان يختلقون أشياء يبنون عليها تخاييلهم الشعرية » .

ولابن سينا تلخيص واف لكتاب الشعر تحدث فيه عن أنواع الشعر اليونانى « وقد بذل ابن رشد وسعه فى التماس أوجه الشبه بين ما يورده أرسطو عن الشعر اليونانى وبين ما عسى أن يناظره فى الشعر العربى ، فأكثر من الشواهد .. » . وللفارابى أيضا بحوث فى الشعر .. استفاد منها حازم فى منهاجه ، والذى نرجحه أن الفارابى قد كان على علم واسع باللغة اليونانية ـ مخالفين فى ذلك الدكتور شكرى عياد الذى يرى أنه اعتمد على ترجمة بشر ابن متى وغيره ـ فقد جاء فى كتاب الوافى : « قيل انه ما أخذ الفلسفة الا من اللغة اليونانية لأنه كان بها وبغيرها من اللغات عارفا .. » . وينقل عنه أنه قال لسيف الدولة بن حمدان « أحسن أكثر من سبعين لسانا .. » . وسئل أأنت أعلم بهذا اللسان أم أرسطو ؟ فقال : لو أدركته لكنت أكبر تلامذته .. ومن تأليفاته « كتاب فى الشعر والقوافى » . ولقد توفى أبو نصر الفارابى سنة ٣٣٩ هـ .

رابعا : والذى يرجح المام الشعراء بفن الملاحم ، أن ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ، أى قبل وفاة حازم بسبعة وأربعين عاما ـ يلوم العرب على تقصيرهم فى نظم الملاحم عن العجم ، يقول فى ذلك : « فانى وجدت العجم يفضلون العرب فى هذه النكتة (أى اطالة القصائد) المشار اليها ، فان شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله الى آخره شعرا ، وهو يشرح قصصا وأحوالا .. ويكون مع ذلك

فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف بشاه نامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر . يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر ٠٠ » ٠

والآلاف من العرب – ان لم أقل الملايين – كانوا على علم تام باللغة الفارسية وآدابها ٠ لذلك نقرر أن الشعراء قد حاولوا نظم بعض الملاحم الشعرية باللغة العربية ، وباللغة الدارجة فيما اصطلح على تسميته بالأدب الشعبى ٠٠ نظموها شعرا كما كتبوها نثرا ٠٠٠ وان لم تكن على النمط الاغريقى أو الفارسى ٠٠ من حيث الاغراق فى سرد الأساطير الخارقة ، أو ذكر الآلهة ومشاركتها للبشر ، وتحيزها مع فريق دون فريق ، كما نرى ذلك فى الالياذة والأوديسة ٠٠ وان كان حاول بعضهم استغلال بعض الأساطير الدينية القريبة من الواقع ٠٠ كذكرهم لمعجزات الرسول الخارقة ، كقصة الجمل ، والغزالة ، وغير ذلك مما يشبه أن يكون أسطوريا ، وان كان بعض الناس يرون فيه حقائق واقعة ٠ وقد تمثلت هذه الملاحم العربية فى أنواع ثلاثة ، لكل منها بعض سماته التى ينفرد بها عن النوعين الآخرين :

١ – النوع الأول ، هو القصائد التاريخية ، كقصيدة ابن المعتز فى الخليفة المكتفى ٠

٢ – والنوع الثانى : القصائد الدينية ، كالبردة ٠

٣ – والنوع الثالث ، هو القصائد المقصورات ٠

وسنشير الى كل نوع منها بكلمة تكشف عن أهم صفاته الملحمية ٠ ومدى اقتراب العرب من هذا الفن الملحمى الذى نعى عليهم ابن الأثير تقصيرهم فيه ٠

القصائد المقصورات

قلنا في أكثر من موضع - رغم اصرار النقاد والشعراء التقليديين على نكران ذلك - أن القافية الموحدة كانت عقبة كأداء في الطريق نحو القصيدة العربية ، واطالتها بالرغم مما لها من موسيقى ورنين عذب ، ان أحسن اختيارها ، وبخاصة فى القصائد الغنائية القصار - لذلك حين أحس العرب بضرورة نظم قصائد طويلة لمقتضيات ظروف العصر ، وما فيه من أحداث كبار ، أخذوا فى البحث عن منفذ للتخلص من هذا السجن الصخرى العتيد ، سجن القافية الموحدة ٠٠ فالتمسوه ٠٠ بأيد مرتعشة ٠٠ خوفا من ثورة التقليديين ٠٠ فوجدوه حينا فى الأراجيز المتغيرة القوافى كما فى أرجوزة ابن المعتز ، وابن عبد ربه ، وأبى طالب بن عبد الجبار ، والملزوزى وسواهم ٠ ووجدوه حينا آخر فى الألف المقصورة ، فالكلمات المقصورة كثيرة متوفرة فى اللغة العربية ، وان حاول بعض التقليديين وضع قيد عليها ليحرموا الشعراء من هذه الرخصة ، قال الاسنوى : اذا كانت الألف أصلا ، أو بدلا من أصل أو للتأنيث ، أو للالحاق ، فالأحسن جعلها وصلا ، ويجوز أن تكون رويا ومنه مقصورة ابن دريد المعروفة ٠٠ ووجه تسمية هذه القصائد بالمقصورات كون رويها خاليا عن الحركة والمد ، والمقصور عندهم ما كان آخره ألف لازمة قبلها فتحة ٠٠ » ٠

واذا تتبعنا نشأة المقصورات ، وجدنا أن القصائد التي جاءت على الألف المقصورة قليلة نادرة ، يرجع بعضها الى العصر الجاهلي ، كما في البيتين اللذين يرويهما أبو الفرج الأصفهاني ، وينسبهما لغريض اليهودي وهو السموأل بن عادياء ، وقيل لغيره « كما يروى عشرة أبيات أخرى منها البيتان السابقان ، وينسبها كلها الى ورقة ابن نوفل ، وأبيات مقصورة أخرى لحنظلة بن عفراء ، وقصيدة قصيرة لليلى العفيفة مطلعها :

ليت للبراق عينا فترى ما الاقى من بلاء . وعنا

ويورد التبريزى خلال شرحه لمقصورة ابن دريد أبياتا ينسبها لخالد بن الوليد قالها حين رأى الناس الماء في الصحراء أثناء مسيره الى العراق وهي :

لله در رافع أنى اهتدى فوز من قراقر الى سوى
خمسا اذا سار بها الجبس بكى ما سارها من قبله انسى يرى
عند الصباح يحمد القوم السرى وتنجلى عنهم غيابات الكرى

ولزيد الخيل الطائي تسعة أبيات مقصورة أولها :

افى كل عام ماتم تبعثونه
على محمر عود اثيب ومارضا

تجدون خمشا بعد خمش كانه
على فاجع من خير قومكم نعى

ويركب يوم الروع فيه فوارس
بصيرون فى طعن الأباهر والكلى الخ

وليس من همنا استقصاء ذلك ، وانما الاكتفاء بهذه الشواهد . وقد ظلت القصائد التي تنظم على روى الألف المقصورة قليلة العدد

نادرة ، ذلك لأن الأذن العربيــة التى تعودت على ترجيع الحرف وترديده ٠٠ لم تستسغ مثل هذه القافية المطفأة التى لا صدى لها ، ولا رنين ٠٠ بل قــد تحس الأذن التى ألفت تلك الموســيقى الواضحة ـ نشازا فى الانتقال من بيت الى بيت آخر يخالفه فى قافيته ٠ فالألف المقصورة غير منطوقة ولا صوت لها ، وانما الصوت فى الحرف السابق عليها ، فكأنه هو الروى لا الألف ، فمثلا حين نقرأ هذه الأبيات :

ومهما يكن ريب الزمان ، فاننــــى
ارى قمر الليل المغرب كالفتــــى

تقارب يخبو ضــــوءه ، وشعـــاعه
ويمصح حتى يستسر فـــلا يـــرى

كذلك زيد الأمر ثم انتقاصــــــه
وتكراره فى دهره بعد ما مضـــى

نجد أن الروى هو ما قبل الألف من تاء فراء فضاد الخ ٠٠٠ فلم يستسغ العرب الاسلاميون ذلك ٠ ولكنهم فقط تجاوزوا عن هذا الايقاع المحبب الى نفوسهم من تكرار حرف الروى ـ حـين اضطرهم لذلك طول القصيدة ، وتركيبها ، وما تحتوى عليه من موضوعات وأفكار شتى ٠٠ تعجز القصيدة ذات القافية الموحدة عن استيعابها ، والتعبير عنها ، وبهذا نخالف ما رآه الدكتور مهدى علام « من أن العرب الاسلاميين قد ألفوا القافية المقصورة ، لأن ما جاء من آيات قرآنية كثيرة مقصورة الفواصل جعل آذانهم تألفها وتستسيغها ٠٠ » ٠ واذا تصفحنا أى ديوان كديوان أبى العتاهية مثلا فلا نجد فيه سوى مقطوعة صغيرة ، جاء فيها :

ساعات ليلك ، والنهـــار كلاهمـــا
رسل اليك ، وهن يسرعن الخطـــا

أين الأولى شادوا الحصـــون وجندوا
فيهـــا الجنــــود تعـــززا - أين الأول
الخ

نشاة المقصورات :

المقصورة هى قصيدة طويلة جاءت على روى الألف المقصورة ٠ وهى تشتمل على عدة أغراض ٠٠ أو بعبارة أدق ، تنتقل من موضوع الى موضوع مما اصطلح النقاد على تسميته غرضا ، وقد ينجح الشاعر فى مزج الأغراض بعضها ببعض مزجا يحقق لها الوحدة الفنية ، كما يمزج فيها بين ما هو ذاتى خاص ، وما هو موضوعى عام ٠٠ نلمس ذلك فى مقصورتى ابن دريد ، وحازم القرطاجنى ، وقد يشيد فيها ببعض المواقف البطولية كما فى مقصورة حازم ، فيقترب بعمله أكثر الى الشعر الملحمى ٠ وكثيرا ما تأتى هـــذه المقصورات من بحر الرجز لسهولة النظم فيه ٠٠ ، ومن أشهر هذه المقصـــورات مقصـــورة ابن دريد التى حققت لهذا اللون شـــهرة وذيوعا ٠٠ والتى عارضها أكثر من واحد ، فلقد عارضه فيها أبو القاسم على بن محمد بن داود بن فهم التنوخى الأنطاكى الذى كان يعيش فى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة بالبصرة فى جملة البريديين - كما يقول صاحب مروج الذهب بمقصورة يمدح فيها تنوخ ، وقومه من قضاعة ، وأول مقصورته :

لولا انتهائى لم أطع نهى النهـــى
أى مدى يطلب من جاز المـــــدى

ومقلـة ان مقلت أهـل الغضـــــا
اغضت ، وفى اجفانها جمر الغضـــا

وكم ظبــاء رعيهـــا الحاظهـــا
أسرع فى الأنفس من حـــد الظبـــا

أسرع من حرف الى جـــر ومـــن
حب الى حبـــة قلب ، وحشـــا

قضـاعة بن مالك بـــن حمـــير
ما بعـــده للمرتقـــين مرتقـــى

وقد سبق ابن دريد الى هذا الفن أبو المقاتل نصر بن نصير الحلوانى فى محمد بن زيد الداعى الحسنى بطبرستان ، وأولها :

قفا خليل على تلـــك الربـــــا
وسائلاهـــا أين هاتيـــك الدمى

أين اللواتى ربعـــت ربوعهـــا
عليك باستنجادهـــا تشفى الجـــوى

ولابن مقاتل قصيدة طويلة على روى النون فى ابن زيد الداعى العلوى الذى نظم فيه المقصورة ، أولها :

لا تقل بشرى ، وقل لى بشريـــان
غرة الداعى ، ويـــوم المهرجـــان

وقد أثبت الدكتور مهدى علام أن أبا المقاتل الحلواني قد سبق ابن دريد ، لأن الخليفة المتقى المتوفى سنة ٣٣٣ هـ سأل اخباريا هل يحفظ شعر أبى المقاتل فى محمد بن زيد الحسنى الداعى ٠٠ » ٠ مما يدل على أنه عاش قبل هذا التاريخ ٠ كما سبقه ـ كما يفهم من كلام صاحب مروج الذهب ـ ابن ورقاء بمقصورته التى يقول فيها :

ما شئت قل هى المها ، هى القنـــا
جواهر بكـــين أعطـــاف اللمـــى

وبالرغم من أن ابن دريد مسبوق الى هذا الفن ، الا أن مقصورته هى التى أرست دعائم هذا اللون من الشعر ، وجعلت كثيرا من الشعراء يعارضونه سائرين على نهجه ، وقد حظيت قصيدته هذه بشهرة واسعة ، فعارضها العديد من الشعراء منهم : التنوخى الأنطاكى الذى مر ذكر اسمه آنفا ، والعمانى ، وحازم القرطاجنى ، وابن جابر الأندلسى المتوفى سنة ٧٨٠ هـ · كما خمسها أكثر من واحـد ، وشرحهـا ابن خالويه ، والتبريزى وعيسى بن اسماعيل الحنفى من خراسان ، والزمخشرى ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد ابن هشام السبتى المغربى المتوفى سنة ٥٧٠ هـ ، وسمى شرحه « الفوائد المحصورة فى شرح المقصورة ، وشرحها الامام أبو عبد الله محمد بن جعفر المعروف بالقزاز » · وغـيرهم ، وترجمـت الى اللاتينية منـــذ القرن الثامن عشر كمـا اهتم بهـــا عـــدد من المستشرقين · وسنستعرض أهم الأفكار التى تناولتها ، والظروف التى نظمت فيها ، تمهيدا لعقد موازنة بينها وبين مقصورة حازم ، لمعرفة مدى ما استفاده حازم منه ، وما جوانب التفوق فى كل من المقصورتين ·· كما سنتحدث فى ايجاز عن مقصورتى ابن جابر الأندلسى ، والمكودى · لما فيهما من تعريض بمقصورتى ابن دريد ، وحازم ، ان تلميحا أو تصريحا · وننهى هذا الفصل بعرض سريع لمقصورة معاصرة هى مقصورة « رشيد رضـــا ·· » · ونبرز خلال كل ذلك ما فى هذه المقصورات من جوانب ملحمية ·

مقصورة حازم القرطاجنى

يعترف حازم فى مقدمة مقصورته أنه قد عارض بها ابن دريد، فهو بعد أن يتحدث عنها حديث المعجب بعمله ، والمقدر لجهده ، يقول : « وما هذه القلادة المنظومة ، والروضة الممطورة الا قصيدة من الرجز غير مشطورة ، عارضت بها قصيدة أبى بكر بن دريد المقصورة .. » .

ولا ينكر أحد فضل ابن دريد ، وأسبقيته ، والقيمة العظيمة لمقصورته ، مما جعل الأدباء يشرحونها حتى بلغت شروحها خمسة وثلاثين شرحا ، وقد عارضها أكثر من واحد ، وفى مقدمة هذه المعارضات وأكثرها أهمية مقصورة « حازم » ، التى تجاوز عدد أبياتها ألف بيت ، والتى اشتهر بها حازم أكثر من اشتهاره ببقية شعره ، الذى لم يصلنا منه الا القليل ، ولذلك سنعتمد عليها كثيرا فى الحديث عن شاعريته ، والأغراض التى تناولها .

ولقد أشاد بمقصورة حازم أكثر من واحد فى القديم والحديث ، فقد أثنى عليها الامام القاضى أبو القاسم محمد بن أحمد

الغرناطي ، الذي تصدى لشرحها ، وتجلية ما فيها من محاسن ، وأسرار ، فقال في مقدمة شرحه « رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة » : لما تأملت مقصورة الامام الأوحد أبى الحسن حازم ابن محمد بن حسن بن حازم الأنصارى القرطاجنى ألفيتها تجمع ضروبا من الاحسان ، وتشتمل على أفانين من البيان ، وتتضمن فوائد جمة من علم اللسان ، وتشهد لمنشئها بما انتظمته من غرائب الأنواع ، واتسمت من عجائب الابداع ، فانه سابق الميدان ، وحائز خصل الرهان ، لا جرم انها بما أورد من الفوائد ، وقيد من الأوابد ووصف من المعاهد ، وضرب من المثل الشارد ، وأوما اليه من الوقائع والمشاهد ، وانتحاه من المنازع البيانية والمقاصد – ديوان من دواوين العرب ، أودعه كثيرا من تواريخها ، وجمع فيه من المعارف ما يعترف لقدمه برسوخها ·· » وينقل اعجاب شيخه الامام أبى القاسم بن عبد الله الشاط الأنصارى بشعر حازم ومقصورته الألفية ، كما ينقل عن شيخ الجماعة أبى مالك بن المرحل أنه قال : « لا أقول ان هذا شعر ، ولكننى أقول هو ديوان علم » · وكان الشيخ أبو عبد الله ابن خميس التلمسانى – وهو ما هو فى البلاغة والعلم بالشعر كثيرا ما يفتخر بلقاء أبى الحسن حازم فيقول : لقيت حازما وما أدراك ما حازم · يردد ذلك فى أكثر أوقاته كما قام الدكتور محمد مهدى علام بتحقيق هذه المقصورة مع كتابة مقدمة اضافية عن نشأة فن المقصورات ، وأشاد بحازم ·· فقال عن مقصورته بعد أن بين أهم خصائص المقصورات : « هذه هى أهم خصائص المقصورات تجدها جميعا محققة فى مقصورة القرطاجنى ، بل انه قد بلغ بمعظمها ما لم يبلغه قبله ولا بعده شاعر من الشعراء المقصوريين ·· » ·

وقد شرحها المحبى شرحا لم يصل الينا ٠

ومن المعروف أن حازما قد أنشأها فى مدح الخليفة أبى عبد الله محمد المستنصر ابن الأمير أبى زكريا يحيى بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر ، يشيد بأفضاله عليه ، ويمجد دفاعه عن الاسلام ، والمسلمين ، كما يدعوه الى استرداد البلاد التى اغتصبها الأعداء ٠ وسنرى من خلال تحليلنا لهذه المقصورة أن الشاعر قد تناول فيها الكثير من الأغراض الشعرية المعروفة ٠ وقد نجح فى مزج بعضها بالبعض ، مما حقق لهذا العمل الوحدة رغم امتداده ، فما الأغراض التى تناولها ، وما أسلوبه فى ذلك :

اغراض المقصورة

لقد قدم حازم لمقصورته بمقدمة نثرية أثنى فيها على الخليفة المستنصر ، بل ضمنها قصيدة راقصة من شعره يمدحه بها أيضا ، ويشيد بأعماله ٠ ثم حدد ما اشتملت عليه مقصورته من أغراض وفنون فقال : « وانقسم ما اشتملت عليه من الأغراض والفنون الى : مديح ، وغزل ، وحكمة ، ومثل ، ووصف معالم ، ومجاهل ، ومنازل ، ومناهل ، ورياض وأزهار وحياض ، وأنهار ، وأزمان وأعصار ، ومدن ، وأمصار ، وجواز فى قفار ، وجوار فى بحار ، وصيد ، وقنص ، ووعظ وقصص ، ومواقف تعجب واعتبار ، ومواطن تبسم ، واستعبار ، الى غير ذلك من ضروب المقاصد ٠٠ » ٠ ويصرح بأنه قد حشدها بأنواع البديع لينشط السامع « ويقرط المسامع من تجنيس أنيس ، وتطبيق لبيق ، وتشبيه نبيه ، وتقسيم وسيم ، وتفصيل أصيل ، وتبليغ

بليغ ، وتصدير بالحسن جدير ، وترديد ماله من نديد الى غير ذلك مما أجرى من الصياغة البديعة ، والصناعة الرقيقة على نحو هذه المسالك ،فالآذان بأقراطها خالية والأذهان من أسماطها غير خالية ٠٠ » ٠ لقد وضع حازم يدنا على نظرة معاصريه الى المحسنات البديعية ، التى كانت نظرة اعجاب فى المشرق والمغرب العربيين ، كما بين لنا سر اعجاب الناس به ، فهو « ينشط السامع ، ويقرط المسامع ٠٠ » ، أى أن له غايتين : الأولى ، تجديد نشاط السامع ، اذ يدعوه الى شىء من التفكير كما فى التورية أو الجناس ، والاعجاب حين يوازن بين الأضداد كما فى الطباق والمقابلة ٠ والثانية ، ما يتميز به هذا الفن من ايقاع موسيقى ينشأ من التكرار ، كرد الصدر على العجز ، أو الجناس ، أو ما يسمى بالموسيقى الخفية كما فى المقابلة أو التقسيم والتفصيل ، وغير ذلك ٠ فكيف بدأ الشاعر قصيدته ، وهل وفق فى تناول كل غرض من هذه الأغراض ، وما مدى توفيقه فى ذلك ؟ ٠ هذه أسئلة سنجيب عنها خلال عرضنا لهذه الأغراض ، مرتبة كما فى النص :

١ ـ الغزل :

يبدأ حازم مقصورته بالغزل على عادة شعراء العرب فى ذلك ، ليشدوا اليهم انتباه السامع ، ويشحذوا همته ونشاطه ، فتخيل أن محبوبته قد رحلت عن الديار فى وقت الضحى ، فأظلم النهار برحيلها اذ كانت شمس الحسن فى حياته التى تحيل الظلام الى نور ، حتى ان الرقيب اذا رآها امترى وشك فلا يستطيع أن يعرف هل هى محبوبة الشاعر أم الشمس المعهودة ، بل يظن أحيانا حين يراها أن الشمس قد عادت بعد غروبها :

والشمس ما ردت لغـــير يوشـــع
لمـــا غـــزا ولعـــلى اذ غفـــا

ثم يدعو على الوشاة الذين يذيعون أسرار المحبين ، والحداة الذين يحدون الابل الظاعنة حاملة معها قلوب العشاق ، نافيا أن يلحق اللوم بالغراب أو الابل كما فعل بعض الشعراء ، وانما يقع اللوم على الحداة وحدهم ، متمنيا الهلاك للابل التى فرقت ما بين القلوب العاشقة ، وهو يصف محبوبته بأنها ممنوعة ، يحميها فرسان قومها من الأعين الراغبة ، فاذا سارت الابل بالهوادج نظرت اليه محبوبته وصواحبها من كوى الهودج ، والشاعر يتبعهن بنظراته ، وسراب الصحراء يرفع الظعن فتبدو بما عليها من ألوان البرود كالنخل وقد تلون ما على عذوقها من بسر ، لقد ذهبت الابل الضوامر بما تحمله من أسباب السعادة للشاعر ٠

وفتاته حوراء العينين تسحر القلوب بلحظها الذى يتحكم فى النفوس تحكم كسرى فى شعبه ٠٠ فللحظ مملكته التى من رعاياها قلوب العشاق ، وله ناره المعبودة وهى ما على خده من حمرة وتورد ٠

وجهها مشرق كالبدر ، قد أسر قلبه ، وأفقده صحوه ، وكلما حاول أن يتناسى أيام الوصل التى طواها الزمن ، شده الى حرقـة الذكرى ما يراه أو يسمعه ، من ذلك : تلك الحمامة التى أهدت اليه الأسى كما هاجت لوعة قيس بدوران ، وأضرمت الشوق فى قلبالاعرابى حين كان ببستان ابراهيم بن‌المهدى فاشتاق الى وطنه. وأذكرت عوف بن محلم بأطفاله الصغار « كمثل أفراخ القطا » وقد كان فى ضيافة عبد الله بن طاهر ٠٠ فقال :

وأرقنى بالبـين نـوح حمـــامة
فنحت وذو الشجو الغريب ينـــوح

على أنها ناحت ولم تذر عبـرة
ونحت وأسراب الدموع سـفوح

وناحت ، وفرخاها بحيث تراهما
ومن دون أفراخي مهامه فيـح

عسى جود عبد الله أن يعكس النوى
فتضحى عصا التسيار وهي طريح

فان الغنى يدنى الفتى من صديقه
وعـدم الغنى بالمقتـرين نـزوح

فرق له عبد الله بن طاهر وجعل صلته عشر آلاف درهم فى السنة تصله فى داره .

كما أطربت توبة بن الحمير الخفاجى صاحب ليلى الأخيلية ، وزادت من سكر غيلان الذى لم يصح من سكر الهوى ، واشجت حميد بن ثور ، وشاقت حجدرا ، وكان بين جدران السجن ، الى زوجته أم عمرو .. وأبكت جريرا حين سمع هتافها .

ثم يعود الشاعر الى نفسه بعد رحلته الباكية مع الشعراء الذين أرقهم هديل الحمائم ـ مسترجعا فى خاطره ذكرى اللحظات السعيدة ، لحظات اللقاء حين كان يقسم وقته بين سعادة الوصل، ومتعة الصيد ، ومطفئا أوار الحب بما يرشفه من رضاب من يحب، مقارنا بينها وبين ما خلفه الفراق فى نفسه .. فقد أصبح ظامئا الى معاودة الارتشاف ، والالتقاء بتلك المحبوبة القاسية ، فبالرغم مما يبدو من لين عطفيها ، قد حرمته النوم كى لا يرى طيفها الحبيب ولم تبق له سوى التعلل بالآمال ، ولو جادت عليه بقدر ما ضنت حكت ... جود أمير المؤمنين المرتجى .. » .

وبهذا يحسن التخلص من الغزل الى المدح .

ومن هذا العرض السريع ، يتضح لنا أن غزله فى هـــذا الجزء غزل تقليدى مألوف ، لم يعتمد فيه الشاعر على عاطفـــة غنية ثرة يمنح منهـــا دون أن تســـتنفد ، وانما يلجأ الى قراءاته الكثيرة ، والى عقله الذكى الحصيف ، فى استنباط الصور ، وتأليف المعانى ، وكثيرا ما يأخذ فى تشقيق المعنى الواحد وتفريعه ومطه ، كما يفعل ابن الرومى من القدامى ، والعقاد من المعاصرين . لذلك نراه يقع على هذا المعنى المتداول ، وهو أن محبوبته كالشمس التى لا يستطيع الدجى اخفاءها ، والذى سبقه اليه أبو الطيب المتنبى فقال :

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء
اذ حيث كنت من الظلام ضـــياء

فصاغه فى عشرة أبيات ، مفرعا المعنى ، ومكررا له .. ، بل ويكرر المعنى الجزئى الواحد كما فى قوله :

فيالها من آيــة مبصـــرة أبصرها طرف الرقيب فامترى
واعتورته شبهة فضـــل عن تحقيق ما أبصره وما اهتـدى

فالبيت الثـــانى تكرار لمعنى البيت الأول ، كما يكرر معنى البيت العاشر وهو :

وكم حدا بالقلب عنى حدوهم فى اثر كل أرحبى قد خدا

فى البيت التاسع عشر منها فيقول :

نجائب قد حملت حمولهـــا قلبى فيما حملته من نجـا

مع بعض الاختلاف اليسير فى المعنى ، والاختلاف فى الألفاظ فقط .

ولأن غزله غزل عقلى ·· نجد الشاعر يستقصى المعنى ، ويتتبع جزئياته ، ويصوغ كل ذلك صوغا محكما ، ينسينا فقدان الأبيات للتأجج العاطفى ، ويثير اعجابنا باتقان الصنعة ، وغزارة المعرفة ، كتصـــويره للحظ وقوس الحاجب والخد ، بكسرى الجالس على عرشه ، وقد دنا منه حاجب بن زرارة بقوسه ، التى قيل انه رهنها لكسرى حتى يفى بما وعده به من أن بنى تميم لن يعيثوا فسادا فى ريف العراق ، اذا ما سمح لهم بانتجاعه ، والشعب يقـــدم صلواته للنار بين يديه ، يقول حازم فى ذلك :

قد ادعى رق القلوب لحظـة — وشهد السحر له فيما ادعى
أدنى الجمال منه قوس حاجب — وضمن الطاعة عن أهل الهوى
كأنه كسرى على كرســـيه — وحاجب بالقـوس منه قد دنا
ملكه الحسن القلوب واعتنى — من بسطة الملك له بما اعتنى
وسامها أن تعبد النار التى — لهيبها من فوق خديه احتمى
فهو بما قد سام ارباب الهوى — حلو ملوك فارس قد احتـذى

ان الصنعة المتقنة ، قد لا تقل روعة عن الفن الذى يجىء وليد الفطرة والعفوية ·· وعلى شاعر الصنعة فى مثل هذا أن يكون يقظا وأن يتتبع عمله بالتهذيب والاصلاح ، والا اضطر الى التردى فى بعض الصياغات المضطربة ، كما يبدو ذلك فى هذين البيتين من غزله :

وعزنى وجـدى بجـود غرنى — عطف لها لان بقلب قد قســا
ضنت بمنزور القرى من الكرى — كى لا أرى طيفا لها اذا سرى

فالى جانب الصنعة البديعية المتكلفة ، نجده يلجأ الى الصياغة المتهافتة فيقول : عطف لها ، وطيف لها ، وكان فى امكانه بشىء من التأنى أن يقول « عطفها وطيفها » ·

وسنرى ، فيما بعد ، أن حازما كلما جانبته العاطفة ، والاحساس أو التجاوب النفسى مع موضوعه ـ لجأ الى الصنعة ، والتوشيـــة ، والزخرفة ، التى كثيرا ما تأتى ثقيلة على النفس المتذوقة ، فنجده فى هذا الجزء الغزلى الذى استغرق اثنين وخمسين بيتا من مقصورته ـ يلوذ بالتوريات المستمدة من مبادىء علم النحو : كالخفض والنصب وقول النحاة « حرف جاء لمعنى » فيقول عن النجائب التى حملت محبوبته :

الوت بخفض العيش عنا أحرف نواصب جاءت لمعنى فى السرى

وقد كان أبو العلاء المعرى أكثر توفيقا ، وأقل منه تكلفا حين قال :

حروف سرى جاءت لمعنى أردته برتنى أسماء لهن وأفعال

فهو أكثر وضوحا ، وعلوقا بالنفس من بيت حازم السابق .

ولسنا فى حاجة الى تكرار ما قلناه من أن هذه المعانى والصور مستمدة من قراءات الشاعر ، ومن محفوظه ، أكثر مما هى صادرة عن تجربة خاصة ، وعاطفة صادقة . وبالرجوع الى شرح الغرناطى نجد أن كل هذه الصور قد سبقه اليها غيره من الشعراء .

ولكن حازما يعود للغزل مرة ثانية فى صلب مقصورته ، ويبـدو أنه أكثر صدقا فى غزله ذاك عن غزله الذى بدأ به قصيدته . وان كان غزله ليس من قبيل الحب العذرى الملتهب ، وانما هو نوع من الحب الحضارى ، والاعجاب بالجمال عامة .. فهو لم يذكر لنا واحدة بعينها قد نظم فيها ما نظم .. كما أن الملامح التى رسمها لمحبوبته هى من قبيل النموذج العام للجمال عند العرب ، بل يصرح لنا فى أحد أبيات المقصورة أنه تردد على أكثر من جميلة تنطبق عليها هـــذه الصفات الجمالية :

كم زرت فى تلك المعانى الغر من
غانية تنظر عن عينى رشا

ومع ذلك ، فقد تركت كل جميلة منهن أثرها فى نفسه ، وان لم يصل الى حد البكاء .. كما يزعم ، مقلدا فى ذلك العذريين من الشعراء . وعلى كل فهو يمنح نفسه الحرية فى وصف كل أعضاء جسمها ، ابتداء من عنقها الى قدميها .. فجيدها المشرئب تزينه عقود الدر ، وشعرها الأثيث يميس من سكر الشباب نشوانا ، وجبينها المشرق قد شب نار الحب بقلب الشاعر ، وهو يختلس النظرات الى نضرة خديها ، حتى اذا نظرت اليه بعينيها الرائعتين كف عن النظر ، كما تمتاز بجمال الأنف ، وشممه . وتقويس الحاجبين ، « ومبسم يزدحم البرق به » ، وعنق كعنق الغزال اذا التفت ، وصدر نبتت به رمانتا حسن ، وبطن منطوطى الملاء ، ومعصم ريان ممتلىء يشكو السوار من ريه . كما تشتكى الخلاخيل رى الساقين ، وعطفان لينان ، وخصر ذابل ظامىء ، وردف مرتو بماء الشباب .. ناعم ، وفخذان أخذا فوق ما لهما من الكمال والتمام ، يكاد ينخذل خصرها من ردفه اذا مشت فى تثن ودلال ، وقدمان احتذتا ما زانهما من الحسن والجمال ، يجمع خداها بين ماء الشباب ، وتلألؤ صفاء البشرة ، فينعكس عليها شحوب الشاعر حين ينظر الى جمالها ، أذلت القلوب بحسنها ، فهى غزال قد أوقع الأسود فى شباكه . ويحذر الشاعر أهل مودته من أسلحة الحسن التى دونها كل سلاح ، كما يدعو من سلبت قلبه أن تعيده اليه ، وأن تبقى على مودته .

والشاعر فى هذه الأبيات يسترجع بعض صور الماضى ، حين كان شابا يلهو ويمرح بين أصدقائه ولداته ، متفيئا ظلال مسارح اللهو فى ضواحى قرطاجنة ، ولكن قد ذهب كل ذلك .. ولم يخلف له سوى الحسرة والندامة :

كأن الصـــبا ظلالنـا ، مـد الى
ان قلص الظل المـديد ، وازى

قد كان عيشي ناعمـا ذا جـدة
دهرا فاضـحى ذابلا ٠٠ وذا بلى

ولكن الأبيات رغم أنها تكرار لما قاله الشـــعراء من قبل ٠٠ لا تخلو من صور جميلة مبتكرة كقوله :

طلا ، كان لـون سـقمي كلمـا
قابله ـ كسـاه ردعـا ، وطلى

فهو قد استطاع فى البيت الواحد أن يصف شحوب وجهه ، وصفاء بشرة محبوبته ، وكيف أن صفرته تبدو كالزعفران اذ تنعكس على بشرتها النقية الصافية ، وبذلك أضاف جديدا الى صورة أبى عمر ابن عبد ربه الذى طرق هذا المعنى قبله ، فقال :

واذا نظرت الى محاسن وجهـه
ابصرت وجهك فى سناه غريقا

وان كان البيت الثانى أكثر رقة ، وصفاء ،لتجنبه تلك المحسنات التى يثقل بها حازم أشعاره ٠ ومن صوره الجميلة أيضا « قد ماس من سكر الشباب وانثنى ٠٠ » وقوله : ومبسم يزدحم البرق به » وقوله :

يراع طرفى حين يرنـو طـرفه
فليس يـرعى ، واذا اخلى ارتعى

وفخـــذان آخذان فـــوق مـا
تمــابه من النعيـــم المغتـذى

واذا كان ابن دريد قد أتى بتصغير حسن فى موقعه حين قال:

يا هؤليا هل نشدتن لنا
ناقبة البرقع عن عينى طلا

فان حازما يأتى بعدد من الكلمات المصغرة فى هـذا الجزء الغزلى ، كأنه يريد أن يتفوق على ابن دريد ، حتى فى هذا التصغير ، فيقول فى مقصورته :

« سلوا أريشاء الصريم »
« وان رايتم باللوى اظيبيا » ،

« وحاذروا تلك الأطيلاء » .

واذا كان ابن دريد يلوم من عرضته للحب بعد أن تجاوز الشباب ، كما يلوم نفسه ويحذرها من الانزلاق فى الحب بعد أن غزا الشيب رأسه ، فيقول :

استحى بيضا بين افوادك ان
يقتادك البيض اقتياد المهتدى

فان صاحبنا حازما .. يرفض لوم اللائمين لأن قلبه ما زال شابا ، يقول فى صدد ذلك :

ولائم أنحى ، وأنحت بعده
لائمة ، لاحية فيمن لحا

ظنت بأن اللوم يثنى خاطرى
عن صبوة لسلوة فما انثنى

واستطرفت جريى بميدان الصبا
لما رأت طرف الشباب قد كبا

وبين جنبى فـؤاد لـم يـرع
جنابه شيب بفـودى بـدا

ومن الواضح أن حازما يتتبع بعض معانى ابن دريد لينقضها وكثيرا ما تكون نظرات حازم أكثر دقة وعمقا من نظرات ابن دريد العالم اللغوى ، الذى لم ينل ما ناله حازم ، من اطلاع على بعض ما كتبه فلاسفة الاغريق أو المسلمين ·

فاذا كانت الفتاة التى ينشدها ابن دريد « ناقبة البرقع عن عينى طلا » فان فتاة حازم ترنو اليه من كوة « الهودج » :

ترنو الى من كوى وصاوص بأعـين مرقعـات للكـرى

واذا كان بيت حازم قد عبر عن شعورها نحوه ، وحرصها هى ورفيقاتها على رؤيته ، فان ابن دريد يمتاز بايجازه ، وبوصفه لعينيها الجميلتين حيث يقول : عن « عينى طلا » ، أى أن عينيهـا فى جمال عينى ولد الغزال · وابن دريد لم يتغزل فى « محبوبة » كانت له بها علاقة حب ، وانما يصف فتاة جميلة لو شاء استمتع بها :

ولو أشـاء مد قطـريه الصـبا
على فى ظل نعيـم وغـنى

ولا عبتنى غـادة وهنـانة
تضنى وفى ترشـافها برء الضنى

ولكن « حازما » يستعيد أيام لهوه ومتعته ، حين كان يحب ويعشق ، ويجرى مع الصبا طلق العنان ، فيقول :

كم زرت فى تلك المغـانى الغر من
غانيـة تنظر عن عينى رشـا

يلتقي حازم مع ابن دريد ، فكلاهما شبه « عين حبيبته » بالسيف القاطع ، ولا يستعصى على سحرها شيء حتى لو كان وعلا معتصما بالجبال ، كما عند ابن دريد ، أو أسدا فاتكا كما عند حازم .

وفي الفصل المعقود عن الموازنة بين المقصورتين سنبين ما فضل فيه أحدهما الآخر .

المديح :

لقد انتقل حازم من الغزل التمهيدى الى مدح الخليفة أبى عبد الله محمد المستنصر ، والمدح هو الغرض الأساسى من المقصورة . هذا المدح الذى يرجو منه استدرار مودة الخليفة حتى يمكنه أن يستظل بحماه ، ولكن ثمة أغراضا أخرى استحوذت على فكر الشاعر ووجدانه كوصفه لمعاهد أنسه فى الأندلس وما يتوفر فيها من جمال نادر ، وكحديثه عما أصاب أهل هذه الديار من تشتيت ، وتنكيل ، وتحريضه للخليفة لكى يسترجع هذه الديار ... وسوى ذلك من الأغراض التى أطنب الشاعر فى التعبير عنها .

والشاعر فى هذا الغرض ، وأعنى به المدح .. ينثر الحديث عن ممدوحه فى تضاعيف المقصورة ، مما يجعله غير مستثقل ، شأن كل ألوان المديح التى يبدو فيها التسلق والنفاق ، واستدرار العطاء .. ولنر الآن أهم ما وصف به ممدوحه ، وأسلوبه فى المدح:

لقد وفق فى التخلص من الغزل الى المدح حين وصف محبوبته بالبخل فى الوصل فقال :

فلو تجود قدر ما ضنت حكت جود أمير المؤمنين المرتجى

وبذلك انتقل الى المديح ، واصفا ممدوحه بالجود ، وبأنه خليفة الله المسمى خير الأسماء والمكتنى بخير الكنى أيضا ، يمتد نسبه الى عمر بن الخطاب ، لا تخلو شجرة نسبه من رجل يؤازر في رفع لواء الحق ، فكما كان عمر صاحبا للرسول ، وخليفة له ، كان جده أبو حفص عمر صاحبا للمهدى مؤسس دولة الموحدين ، ويأخذ الشاعر فى ذكر أجداده الذين جاءوا بعد أبى حفص .. فيذكر ابنه عبد الواحد الملقب بالهادى الذى أعلى من صرح الايمان والتوحيد ، ثم نجله الامام يحيى المرتضى ، الذى أنجب :

نجمهم ، بل بدرهم   بل شمسهم ذات السناء والسنا
محمد سليل يحيى بن أبى   محمد نجل أبى حفص الرضا
مستنصر بالله ، منصور به   مؤيد بعونه على العدا

وبهذا استطاع شاعرنا أن ينظم سلسلة نسبه ، وهو عمل ذهنى ـ ليحقق ما يسمى « الاطراد فى علم البديع ، وان كان لم يوفق فى ذلك كثيرا فوقع فى الاضطراب والضرورات ، فعدل عن ابن الى سليل ونجل ، وحذف التنوين ضرورة في «أبى حفص الرضا» ، « وذاك أبو حفص الذى الى علا سميه » ، وفصل بين المسمى وخير الأسامى بكلمة المكتنى ، فى قوله :

خليفة الله المسمى ، المكتنى   خير الأسامى الساميات والكنى

وفى ذلك ضعف عند أرباب النحو ، قال أبو الفتح بن جنى تقول : أكلت وشربت الماء والخبز فتجاور بالشرب الماء ليوافقه ، وتفصل بين أكلت والخبز فصلا واحدا ، ولو قلت أكلت وشربت الخبز والماء لفصلت بين الأكل والخبز والشرب والماء ، قال : ولذلك قال النحويون : أول الأوصاف لآخر الأسماء ، وآخر الأوصاف لأول الأسماء .. ولولا ذلك لكان داخلا فيما يستحسن » من

معادلة أول الكلام بآخره ، بأن يرجع الأول الى الأول والثانى الى الثانى ، على الترتيب حسبما ذكره البيانيون ، قال الله تعالى « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله .. » ولا نوافق العلامة الغرناطى فى دفاعه عن الشاعر « بأن مما يزيل القبح عن بيت الناظم كون الاسم يطلق على الكنية والكنية تطلق على الاسم ، لأن ذلك مخالف لما هو مألوف معروف .

والاطراد الحسن « أن يطرد للشاعر اسم الممدوح أو غيره مع أسماء آبائه فى النظم من غير كلفة ولا حشو ، فانها اذا اطردت دلت على قوة عارضة الشاعر وقلة كلفته ، كقول دريد بن الصمة :

قتلنا بعبد الله خير لداته ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب

ولما سمع عبد الملك بن مروان هذا البيت قال كالمتعجب « لولا القافية بلغ به آدم .. » . فاذا ما فرغ من نظم سلسلة نسبه عاد الى تمجيده ، فهو صاحب ملك واسع كملك سليمان ، يمتطى أسنمة العزم الى غاياته البعيدة ، وهو كالبدر الذى يجلو الدجى ، والجبل الذى يرسى قواعد الأرض ، صاحب الكلمة النافذة على الدهر ، يأمره فيأتمر ، وينهاه فينتهى ، يكرم العلماء والأدباء اكراما خاصا كما يعم عامة الشعب بنعمه وعطاياه ، ومن مفاخره أن تونس حضرة بلاده قد أصبحت أم البلاد فى عهده ، بما أدخله فيها من انشاءات واصلاحات . فالخصب يحف بأقطارها ، والأنهار تجوب أرجاءها ، فلقد أنفق الكثير فى سبيل مدها بالماء ، وشق القنوات ، فتدفقت اليها المياه من « طود زغوان » تدفق الفضة الذائبة . كما أنشأ القصور الشامخة ، كقصر أبى فهر الذى أشاد به كثير من الشعراء والأدباء .

قصر تراءى بين بحر سلسبل وسجسج من الظلال قد ضفا

تسح الآمال من يد هذا الممدوح كالسحب ، ويركن اليه الدين محتميا بقوته ، وعزته ، فكم سير الجيوش لمطاردة الأعداء ، وتأديب الخارجين ، فاستظل الجميع بظلال الأمن ، وطابت به أيام الشاعر حتى ذكرته بحلاوة أيامه الذاهبة ، فلقد بلغ فى ظل ملكه كل ما يتمنى :

طابت به الأيام لى حتى لقد ذكرت فيما قد خلا عيشا حلا
فيا خليلى اسقيانى أكؤسا تسكر من خمر الصبا من قد صحا
بلغت آراب المنى فى دولة أولت يدى أسنى الأيادى واللها

وللشاعر ـ كما أشرنا من قبل ـ هدف أسمى يريد الوصول اليه ، وهو اثارة النخوة فى هذا الخليفة الحفصى ليسترد الأندلس من يد الأعداء .. فيفرد قرابة خمسة وستين بيتا لِوصف الجيش، والخيل ، من الأبيات المائة والاثنين والعشرين التى مدحه بها فى صدر مقصورته ، ولا يكتفى بذلك بل يعود الى مدحه بعد سبعمائة بيت وتسع ، فيكرر ، ويعمق ما وصفه به من شجاعة ، حتى يتورط أحيانا فيقع فى بعض المبالغات ، التى يمكن أن تؤخذ عليه ، والتى نغتفرها له حين نعلم السبب الأسمى الذى دفعه الى ذلك ، ومن هذه المبالغات :

ساق الملوك بعصا سلطانه فكلهم صيره عبد العصا
فلو أراد سوق خاقان بها لانقاد فى طاعته وما عصى
ولو أراد سوق كسرى فارس بها ثناه وهو مكسور المطا

وكذلك يفعل مع قيصر ، وتبع والبلهرا ملك الهند . ويشيد مرة ثانية بجنده ؛ فهم عدته وعتاده فى الحرب ؛ ويمجد أجداده الذين قد جللوا أسلحتهم بدماء الأعداء .

فأمنوا الدنيا بترويع العدا بالعدوة الدنيا وفى أقصى العدا
قادوا الى أندلس كتائبا أمامها النصر العزيز قد قدى

ويشيد بموقعة الأرك التي دارت رحاها بأرض الأندلس ، وسجل فيها أبو يوسف يعقوب أشهر خلفاء بني عبد المؤمن نصرا ساحقا على الأعداء عام واحد وتسعين وخمسمائة ، وقتل من الأعداء نحو ثلاثين ألفا ، كما استخلص المنصور جملة من حصون النصارى، والذى بلغ من حب المسلمين له أنهم لم يصدقوا خبر وفاته حين نعى اليهم عشية يوم الخميس الثاني والعشرين لشهر ربيع الأول عام خمسة وتسعين ، فأشاعوا أنه حى يرابط ببلاد الأندلس ، كما أشاعوا أنه قد خرج زاهدا فى الملك فتوجه نحو البيت الحرام وجاور عند قبر الرسول حيث يخفى أمره ، « ولهم فى ذلك حكايات يقولونها حتى الآن » يقول حازم فى ذلك :

وصبحوا الأرك بجيش غط فى	آذيه أذفنش لما ان غطا
وخلفوا بالبيض قرص الشمس في	أرهاجه حتى رأوه قد صنعا
فوقب الغاسق فى يوم به	كيوم ذى قار ، ويوم الوقبى
بل كل يوم دون ذاك اليوم في	ما نص فى غر الفتوح وجلا
ما كان ما قد انجز الله لهم	من موعد النصر حديثا يفترى
فلم يدع جهادهم للشرك من	دار ، ولم يترك لهم من مدرى

وقد نسب الناظم هذه الوقيعة الى جدود ممدوحه ، وان لم يكن نسبه يتصل بالمنصور ، لأن أسلافه كانوا عظماء الموحدين ، وأكابر الدولة ، ولما كان لهم فى هذه الوقيعة من الغناء العظيم . وفى هذه الموقعة استشهد أبو يحيى بن أبى حفص جد الأمير المستنصر . ويأسى الشاعر لتمزق المسلمين ، وتفتت وحدتهم ، وأفول نجمهم بعد أن ضعفت الدولة الموحدية وتقسمت الى دويلات صغيرة ، فقد أصبحت الأندلس بعدهم لقمة سائغة للأعداء :

ثم دعــاهم ربهم فابتـــــدروا الى محل القرب منه والرضـــا
وأصبحت من بعدهم فريســة لمن بغــا وفرصـــة لمن بعـــا

وناسب ذلك أن ينتقل مباشرة الى بكاء هذه المعاهد التى دمرها الأعداء ـ مما سنتحدث عنه فيما بعد ـ وهو يعود مرة ثالثة لمدحه ، بل وتحريضه تحريضا مباشرا ، هذه المرة ، على أن يزحف بجيوشه الجرارة الى أرض الأندلس لاستردادها ، فان ألسن الحال تهتف به « حى على استفتاحها حى على » :

ولو سما خليفة اللـه لهـــا لافتكها بالسيف منهم وافتدى

ففتحها دين عليه ، ليصلح ما أفسده الأعداء ، فمتى :

يزجى اليها كل ريح زعـزع عاتية ، عاصـــفة بمن عتــا

تكشف عنها الأقذاء ، وتبكى أعين الأعداء ، تضم تلك الكتائب سادة المسلمين وفرسانهم ممن لورآهم ذو الأذعار ملك اليمن لولى مذعورا ، أو أبصرهم الرائش التبعى لعجز عن أن يريش سهامه ، ولو التقى بهم ذو جدن لأبدلت نون اسمه ثاء .

وينهى هذا الجزء الأخير من مديحه بوصفه بالكرم ، والمواساة ، والتقوى لذلك وجبت طاعته « لأن من أطاعه فقد أطاع الله » :

طاعته من طاعة اللـه فمـــن دعا الى هدى الى تلك دعـــا

هذا هو الفن الثانى من الفنون التى اشتملت عليها المقصورة ، ونعنى به فن المديح الذى استطاع « حازم » ـ وربما يكون قد انفرد بهذا العمل ـ أن ينثره خلال ملحمته الطويلة ، فيحقق به الوحدة لهذا العمل المترامى ، ويربط مـا بين أجزائه ، حتى لكأن هـــذه المقصورة رواية طويلة . ومن المعروف أن الرواية تطوير للملحمة القديمة ولكن تشتمل على فصول متعددة ، والمدح الذى يتخللهـــا

كالخيط الذي يشد بعض أجزائها الى بعض . ويبدو أن الشاعر كان محبا لممدوحه .. يظهر ذلك فى السلاسة والتدفق الذى يغلب على أبياته فى المديح ، كما نجد له بعض الصور البارعة التى لا شك ـ أنها صادرة عن عاطفة حب صادق ، من ذلك : « ملك سليمانية بسطته » فاستعماله لكلمة « سليمانية » وهو استعمال لم يسبق اليه فيما أعتقد ، وقوله : « ممتطيا أسنمة المجد » وقوله :

أروت أمير المؤمنين سحب ... من جودكم روض الأماني فارتوى
أو كأنما الدهر استدار ثأرى ... من جرى ذاك الماء ما كان جرى

وان كان قد استمد هذه الصورة من قول الرسول عليه السلام « ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » .

والحق أن حديثه عن النهر يمتاز بالرقة والطلاوة ، وبخاصة البيت السابق ، والأبيات التالية التى يقول فيها :

قد كان كالنائم حتى نبهت ... عين المعالى عينه من الكرى
اذا علاقسيه عوذ ما ... جن من النبت الجميم ورقى
ونفث الفضة ذوبا وغدا ... بخط ما كان الزمان قد محا
من صور للحسن ينسى ذكرها ... ما كان فى عهد الافاريق الأولى
كأن به قد ساح وسط تونس ... وصاح بالناس ردوا ماء الندى
وخر فيها ساجدا مسبحا ... لله فوق سبح من الحصا

أو قوله :

عاد به الدهر ربيعا كله ... وقام ميزان الزمان واستوى
كم بين بدء من ندى راحته ... وعوده سرح الأمانى قد ندا

أو « غالى بما أمهر أبكار العلا »

فالزمان استدار ، والنهر كان يغط فى الكرى ، فأيقظته عين المعالى ، فأخذ يرقى النبت ، ويعوذه من الحاسدين ، وهو ينفث الفضة فى طريقه فيعيد صور الحسن التى امحت ، والنهر يسيح صائحا : ردوا ماء ندى الممدوح ·· ويسجد لله مسبحا على مسبحة من الحصا · ويجعل الشاعر للزمان ميزانا اعتدل بعد ميل ، كما يجعل الأمانى سرحا يمرح بين بدء نداه وعوده الى الندى ـ ناعما مرتويا ·

وهو يحتال فى الجزء الأول من مديحه فيمزجه بالحديث عن المناظر الطبيعية الخلابة فى تونس ، وبخاصة بعد أن شق فيها القنوات ، وجدد القناطر الدائرة ، فاهتزت الأرض وربت : كما يصف المنشآت التى استجدت فى عصر الخليفة المستنصر ، وينتقل منها الى الاشادة بالجيش ، وما ضمه من أبطال صناديد ، كما يصف الخيول التى تحمل هؤلاء الفرسان · وفى الجزء الثانى يذكر بعض أسماء الملوك أو القادة الذين كان لهم شأن عظيم فى التاريخ » فيفضل ممدوحه عليهم ، وبهـذا يجدد نشاط القارىء ، ويشحذ قريحته الى التفكير ، كما يضيف الى ثقافتـه الجديد مما لم يكن يتوقعه · ولا شك أن هذا الجزء ـ بما فيه من وصف للخيول . واشادة بالفرسان ، وذكر للمعارك التى خاضها الممدوح أو أحـد أجداده كموقعة « الأرك ·· » ـ يقترب بمقصورته كثيرا من العمل الملحمى ، فيسبغ عليها صفة الملحمة ، وهذا ما لم يتوفر لمقصورة ابن دريد ، التى كانت تضرب جذورها فى أعمـاق « الذاتيـة » كثيرا ·· ولا نعفى شاعرنا الملحمى « حازما » من بعض الأخطـاء التى كان يمكنه تجنبها ، من ذلك اغراقه أحيـانا فى المحسـنات البديعية ، مما يجعله ينظم مثل هذين البيتين اللذين يخلوان من كل معنى أو هـدف ، سوى تحقيق ما يسـمى فى فن البديع « بالتفصيل » ، وهمـا :

صبح بدا ، بدر هـدى ، طـود عـلا
بحـر حـلا ، غيث همى ، ليث سـطا

نجم سرى ، سيف فرى ، ركن سـما
حصن حمى ، روض ذكا ، غصن زكـا

أو الانزلاق الى المبالغة التي تعدو المألوف ، وقد تثير عليه غيرة رجال الدين . كقوله عن ممدوحه :

ان أمـر الدهـر بنفع يأتمـر
وان نهى الدهـر عن الضر انتهى

يعطـى ويمطى والزمـان يقتفـى
آثـاره ممتثـلا فيمـا أتـى

أو قوله :

كجنـة الخلـد تسر من رأى
فيزدرى الخلـد ، وسـر مـن رأى

وهو يورى فى كلمة « الخلد » الثانية ، ومقصوده ، « قصر الخلد » الذى أنشأه أبو جعفر المنصور ولكنه يوقع فى الروع أن « الشاعر » لا يرعى حرمة لما جاء به الدين .

ومن المبالغات ما التمسنا له العذر فيه ، وهـو سوقه ملوك العالم بعصاه ، فلو أراد سوق كسرى أو قيصر أو تبعا أو البلهرا بعصاه لاستطاع ، ولا شك أن المعنى تافه مبتذل يجب ألا يسف اليه شاعر على حظ وافر من العلم والمعرفة كحازم .

وهو مولع بالزج ببعض المصطلحات النحوية ، وأحيانا ينساق

وراءها ، ويكرر المعنى الواحد أكثر من مرة ، لا لسبب سوى رصده لهذه الحروف أو الكلمات ، من ذلك قوله :

فاعمم بأوصاف العلا كماله — واستثن في وصف سواه بسوى
لا تجر نعت من عداه مطلقا — فى المجد بل مقيدا بما عدا
فمن يقرظ من عداه فليكن — مستثنيا بما عدا ، وما خلا

هذا بالاضافة الى لجوئه الى ضرورات كحذف التنوين أو قصر الممدود ، كما أن الكثير من صوره مستمد مما قاله الآخرون .

الوصف :

لقد أجاد شعراء وأدباء الأندلس بعامة فى وصف الطبيعة ، لما امتازت به الأندلس من موقع جغرافى ممتاز ، ولما منحتها الطبيعة من جمال ساحر خلاب ، فالأنهار والجداول كثيرة متدفقة ، والأرض خصبة تتشح بالخضرة دائما ، والربوات والتلال يكللها الندى بأكاليل خلابة رائعة .. وفيها ما يرضى كل ذوق وهوى . فمن مصائد فى البر ، ومصائد فى البحر ، ومن حدائق ورياض يؤمها طلاب اللهو والمتعة ، أو من يطلبون الراحة والجمال ، هذا الى جانب ما فيها من نساء فاتنات ، مختلفات الفتنة والجاذبية ، فمنهن العربية والبربرية ، والصقلية ، والرومية ، وغير ذلك من الأجناس الكثيرة التى ضمها هذا المجتمع المتعدد الأجناس ، وان كانت غالبيته من العرب والبربر، ثم ذلك الغنى ، وتلك الثروات الكثيرة ، التى يمتلكها سادة تلك البلاد ، مما ساعد فى انتشار مجالس اللهو والغناء ، فوجد الشعراء والأدباء مجالات القول ذات سعة . وحازم وان كان أحد متأخرى شعراء الأندلس الذين نشأوا فى ظل النكبات التى منيت بها على أيدى الأعداء ، فلم يتوفر لهم ما توفر للسابقين

من استقرار واستمتاع ، الا أننا نجده يتمتع بحاسة مرهفة لادراك أسرار ما فى الطبيعة من جمال ، فلا يكف عن وصفها كلما واتته الفرصة ، بل يمزجها بالأغراض الأخرى الجافة : كالمدح والشكوى ، والبكاء على الديار ، مزجا يخرجها من جفافها ؛ ولأننا لا نستطيع استقراء وتتبع كل ما وصف ، سنكتفى بالموضوعات العامة التى وصفها :

١ ـ من ذلك **وصفه للمباني والمنشآت** التى رآها ، سواء فى بلاده بقرطاجنة ، أو فى مهجره بتونس ، وقد عرضنا طرفا من وصفه لتونس حاضرة الدولة الحفصية ، فهى أم البلاد ، وقطبها وبها يبتدىء الفخر وينتهى :

حسن البلاد كلها مجتمع
ولها وكل الصيد فى جوف الفرا

أشرقت الدنيا بها اذ أشرفت
منها على مزدرع ، ومستمى

فأين من قصورها الرائعة قصر غمدان ، أو قصر الخلد ، وأين من روعتها مدينة « سر من رأى » ، وما فيها من جمال استهوى المعتصم العباسى فأقام بها لقد حسدت مياه الأرض ، ماحظيت به مياه تونس وأنهارها من تعمير وانشاء ، اذ أنفق المستنصر عليها الكثير من الفضة ، الجامدة ، ليجرى ذوب الفضة بأرضها المترامية، فاغتنى الناس ، كما امتلأت حقائب الجباة بالمال :

أجريت من عين ومن عين بها
نهرين قد عما البرايا والبرى

وطود زغوان دعوت ماءه
فلم يزغ عن طاعة ولا ولى

وانساب الماء الى قصر أبى فهر الذى أنشأه ملوك بنى حفص ، ولاتساع النهر تســـافر النواظر فيه من جانب الى جانب ، تلقى النسمات اليه بأزاهير الرياض ، فكأنه ملك يقدم له النسيم الجابى ما جباه ، كما قدم له كل غصن ما عليه من اتاوة ، ولما تجرأت الأغصان وأخذت تتمايل بظلالها على صفحته ، قيدها بقيـــود الفضة ، ولكنها :

ســـلاســـل ما اعتقل الغصن لها
مــن المـــراح معقـــل ولا اعتفـى

فاذا ما عاد بذاكرته أو بخياله ، الى عالم ذكرياته الغالية ـ وجدنا المجال يتسع أمامه اتساع الطبيعة الأندلسية ، حيث يقسم الشاعر أيامه بين « منظر ، ومسمع » ،

ومنعـــم بمطعـــم ، ومشرب
يرضى العيون والأنوف واللهـــا

ومـــركب لمـــأنس ومجلـــس
فى مدرس ، ومحضر فى منتـــدى

وملثـــم لمرشـــف ، ومهصـــر
لمعطف مـن أهيف طـاوى الحشـا

فالدهـر عيـــد والليـــالى عـــرس
والعيش أحـــلام كأحـــلام الـكرى

٢ ـ وصف منظر النجـــوم :

وفى جو الأنس الصافى يستمتع الشاعر بمنظر النجوم ، كما يشاهد الفجر وقد انبثق من ظلمة الليل كخيول شهباء غارت على

فلول النجم فروعتها « فالعقرب » أمت الغرب جادة فى النجاء . وركنت نجوم « الغفر » الصغار خائفة محتمية ببقية النجوم المجفلة ، والسماك ساق عرشه أمامه مخافة أن يحتوى منه ، ومد السماك الرامح رمحه الى « الليث » ، كما قرب « العواء » منه ليحميها وينقذها ، ولكن الليث عاقه عن أن يصل الى « النثرة » ، وأحد النظر اليه محاولا افتراسه ، والجوزاء قد خشيته فهربت من أمامه ، كما تقدم الحادى « الثريا » ومضى ، وأراد « الحمل » الهجوم على « الحوت » الذى عاقه عن « الدلو » ، و « سعد الأخبية » يضرب أخبيته فى الفضاء على غير عمد ، وظل يرعى « الماتح » وقد علق « بالفرغ الرشاء » ، وقد توفى « سعد الذابح » من خلفه الذى أوتر قوسه « للنعام » ، وشرع فى رميها .. ولنورد بعضا من هذه التخيلات المبتكرة ، التى تصور فيها الشاعر النجوم وقد داهمها الصبح بخيوله الشهباء تجد فى الفرار ، فمن هارب بنفسه ، ومن حامل لعرشه ، أو مدافع عن غيره .. يقول حازم فى ذلك :

كأن ضوء الصبح شهب غارة
تقاذف الحضر بهن وارتمى

اوجست العقرب منه نبأة
فأمت الغرب ، وجدت فى النجا

وركن الغفر الى الشهب التى
أجفلن جماء غفيرا وانضوى

وأصبح السماك يزجى عرشه
امامه مخافة أن يحتوى

ومد لليث أخوه رمحه
وقرب العواء منه واشتلى

وقــد عــداه الليث عــن نثرته
وحـدق الطــرف اليــه وداى
وفــرت الجـوزاء مــن أمــامه
وقدم الحادى الثريا ومضى ٠٠ الخ

لقـد أوجد الشــاعر الكثير من الحركة حين شخص هــذه النجوم ، وصنع منها منظرا دراميا رائعا ٠٠ نرى فيه النجوم وقد هاجمها الصبح بخيوله فتولى هاربة ، كما نجد معارك جانبية تدور بين بعض النجوم وبعض ، فالسماك الرامح يهدد الليث برمحه ، مستأثرا بالعــــواء دونه ، ولكن الليث يعوقه عن نثرته ، ويحدق اليه الطرف مهددا ٠

لقد استطاع الشاعر أن يسبغ على بعض أجزاء مقصورته ظلا أسطوريا كهذا ٠٠ عوضــه عن تلك الأساطير الاغريقية التى يحرمها الاسلام ، كالحديث عن الصراع بين الآلهة فى الأوليمب ٠٠ واذا كان الشاعر مسبوقا ببعض الشــــعراء كابن خفاجة ــ فى قصيدته التى أولها :

سلا ظبية الوعساء هل فقدت خشفا
فأنا لمحنا فى مراتعهــا ظلفــا

أو أبى القاسم بن هانىء الذى توسع فى تصــوير النجوم ، حيث يقول :

وقد فكت الظلماء بعض قيــودها
وقد قام جيش الليل للصبح واصطفا
وولــت نجــوم للثريا كأنهــا
خــواتم تبــدو فى بنــان يد تخفى
ومــر عــلى آثــارها دبرانهــا
كصــاحب ردء أكمنت خيله خلفــا

فأقبلت الشـــعرى العبـــور ملبـة
بمرزمها اليعبوب تجنبه ـ طـــرفا

كأن بنى نعش ، ونعشـــا مطافل
بوجرة قد أضللن فى مهمه خشـــفا

كأن ســـهيلا فى مطـــالع افقـــه
مفارق الف لـم يجـد بعده الفـــا

كأن ســـهاها عاشـــق بين عـــود
فآونـة يبـــدو ، وآونـة يخـــفى

كأن معـــلى قطبهـــا فارس لـــه
لواءان مركوزان قـد كره الزحفـــا

كأن قـدامى النسر والنسر واقـــع
قصصن فلم تسم الخوافى به ضعفا

كأن أخـــاه حـــين دوم طـــائرا
أتى دون نصف البدر فاختطف النصفا

كأن عمـود الصـــبح خاقان عسكر
من الترك نادى بالنجاشى فاستخفى

كأن لـــواء الصـــبح غـــرة جعفر
راى القرن فازدادت طلاقته ضـــعفا

وقد احتذى حازم حذوه فى قصيدة له طائية جاء فيها :

كأن الثريا كاعـــب أزمعـــت نوى
وامت باقصى الغرب منزلة شـــحطا

كأن رشـــاء الدلو رشـــوة خاطب
لها جعل الأشراط فى مهرها شرطا

كأن السها قـد دف من فرط شوقه
اليها كما قد دقق الكاتب النقطا الخ

ومن الواضح احتذاؤه ـ كما يقول شارح المقصورة الغرناطى لابن هانىء فى هذه القصيدة الطائية ، أما فى المقصورة ، فقد انفرد بأشياء جعلته غير محتذ ، من ذلك أن تشبيهات ابن هانىء كلها تشبيهات جزئية مستقلة ، الهدف منها خلق صور فنية جميلة ، فبنو نعش مطافل أضللن ظبيا صغيرا فهن يبحثن عنه ، والسها عاشق أضناه العشق ونجوم الثريا كخواتيم تبدو فى بنان فتاة جميلة ، كل هذه الصور جميلة ، ولكنها ليست لبنات فى صورة كلية ، كما فى قصيدة حازم « فصور النجــوم عند حازم كلها مشدودة بخيط عام يربط بعضها الى بعض ، وهـذا الخيط هـو الفزع ، والهروب من خيول الفجر الشهباء ٠

كما أن صور حازم أكثر حركة ، وشدا لانتباه المتذوق من صور ابن هانىء ، بل ان حازما يشخصها ويبعث فيها الحياة جازما ومؤكدا عن طريق الاستعارة ، موهما أن ما يراه المشاهد فى هذه اللوحة انما هو واقع فعلا ، لذلك نراه قد عدل عن أسلوب التشبيه وتكراره فى كل صورة ، كما فعل ابن هانىء الذى عـــزل بأداة التشبيه الصور بعضها عن بعض ٠ ولوحة حازم جزء من لوحته الواسعة التى يصف فيها جمال الطبيعة فى بلاده بالأندلس وليست وسيلة للمدح كما فعل ابن هانىء ٠

٣ ـ وصف رحلات الصيد :

وكما يصف النجوم ويطنب فى الوصف ، يصف لنا رحلاته

للصيد مع بعض من رفاقه الأدباء ، والشعراء ، وذوى الشأن :

من كـــل بحـــر للعلوم زاخـــر
وكـــل طـــود للحلوم قـــد رســـا

من كـــل من تلفيه نشـــوان اذا
يصـحو ، ويلفى صـاحيا اذا انتشى

يؤمون الرياض التى تبدد ما بأنفسهم من أشجان ، كما يمتطون الخيول يطلبون الصيد فى المرابىء العالية حيث تقطن الوعول ، والخمائل الملتفة حيث تعشش الطيور ، أو تأوى الى كنسها الظباء ، مستخدمين فى الصيد العقبان التى تهفو فتصطك قلوب الطير فزعا من أجنحتها المهيبة ، أو الخيول السريعة أو الكلاب المدلاة الآذان ، يستمتعون وهم يرون الصيد يسقط فى الحبالة ، أو يتردى عن رأس الجبل ، أو يتلوى من ســـهم ذابل قد أصـــابه ، وأحيانا ما يزعجون الطير الى البحر ، وتتبارى الفلك فى مطاردته :

وترتمى الفـــلك الى الصـــيد اذا
ما أزعجـــوه للبحـــار فارتمى

ولتبـــارى الســـابحات نحـــوه
كالسابحات حـــين تعـــلو المرطى

تلك الزوارق التى تعود الى الشاطىء محملة بألوان الصيد ، فاذا ما فرغوا من الصـــيد وامتلأت الحقائب ، أقاموا فى عرائش ممطورة موشاة ، ومد الطهاة الموائد ، وزينوها بالآس والريحان ، وأعد كل طاه الطعام الذى يجيده ، ومن ذلك :

هذا النوع من الخبز الذى يسميه أهل الأندلس « المرمدة » ويسميه المشارقة « المملوك » ، وهو طعام قد بين لنا حازم طريقة

اعداده ، وذلك بأن يلف فى سعف الدوم ثم يوضع على صفيحة توقد النار تحتها ، ويغطى الخبز بطبقة من الجمر ، فاذا ما نضج وكشف عنه · كان « كقرص الشمس » ·· ومن المؤكد أن الشاعر يريد أن ينقل الينا الكثير من خبراته فى الصيد ، واعداد بعض أنواع الأطعمة ، وبالرغم من أن الشعر يضيق أحيانا بسرد المعلومات ، الا أن حازما استطاع باجادته رسم الصور ، وحسن اختياره للكلمات الشعرية ـ أن يجعلنا نتجاوب مع ما يصف ، فنتعلم ونشعر فى وقت واحد ، ولنورد هذه الأبيات لنرى ذلك :

حتى اذا ما امتلأت حقائب
من الوحوش ، وخلا منها الملا

ملنا الى مولية ، موشية
قد حدب الغيث عليها وحنا

والآس والريحان قد صف وقد
ألقى عليه كل طاه ما طها

ولف كل خابز مملوكه
فى سعف الدوم ، وأصلاه لظى

من بعد ما أحمى الصفيح تحته
ثم حشا من فوقه جمر الغضا

كأن ما أجن منه ، وجلا
قرصة شمس حين اخفى ، وخفى

ومع ذلك فالجانب العلمى الذى يميل الى التفصيل يبدو فى هذه الأبيات ، كما يبدو فى شعره عامة ، وان كان ذلك لم ينتزعه من عداد الشعراء البارزين · كما يستعمل أساليب العلماء أحيانا

كما فى هذه الأبيات حيث يقول « من بعد ما أحمى » و « ثم » وهى فى هذا الموضع أقرب الى الأساليب العلمية منها الى أســـاليب الشعراء ، فالشعر رقص كما يقولون ـ بينما النثر مشى ، والشعر يقفز قفزا ، ويومىء ، ولا يفصل ويربط الأسباب بالمسببات ٠٠ مما سنتعرض له فيما بعد حين نتحدث عن أســـلوبه الشعرى ٠
ووصفه للصيد والطعام يكشف عن التقدم الحضارى فى الأندلس ، فأين ما قدمه طهاة حازم مما قدمه طهاة امرىء القيس فى الفلاة المقفرة ٠٠ فمائدة حازم حافلة بالشـــواء الذى « يفوح من طيب المراعى لحمه » أكثر مما يفوح مما عليه من أبزار وتوابل :

والأرى يـــدنى ، والثمـــار تجتنى
والرسل يمرى ، والقنيص يشتوى

ولم يشر الشاعر الى تعاطيهم الشراب فى مثل هذه المجالس ، وهو بالرغم من أنه سيصف فى موضعين الخمر ، ينفى عن نفسه فى أحدهما أنه قد شارك فيها ، ولا ينفى ذلك فى الموضع الآخر ، كما سنرى فيما بعد ٠٠ الا أن شاعرنا فى الحقيقة ـ يبدو أنه كان ملتزما بأخلاق العلماء ٠٠ ففى مواضع كثيرة من مقصورته يحث على التقوى ، ويمجد العدالة والأخلاق القويمة ٠ كما أنه يعيش فى ظل دولة قامت على مبادىء ومعتقدات دينية ٠٠ ولعل قوله :

عاطيتهم مـــن السرور أكؤســـا
يغنى عن الكـــأس بهـــا ، ويكتفى

يؤيد ذلك ٠

٤ ـ وصفه للمناظر الجميلة فى الأندلس :

ثم يصف الشاعر انتقالاته مع أصدقائه فى آفاق « قرطاجنة » وما حولها ، ففى الصيف يقصدون شواطىء الأنهار « بين قصور ،

وجسور ، وقرى » ، وفى الشتاء يقيمون على الشواطىء الدافئة ، وفى الربيع يؤمون المروج والربى ، وفى الخريف يستشفون بعيون الماء الحارة « المعدنية » التى تكثر فى بلاد الأندلس ، يتساقطون درر القول ، ملتقطين سقيط الزهر :

يهـــدى الينا كـــل جـــان مرتق
فى الدوح أحلى ما اجتنى وما اجتبى

وفى « المغانى الجبليات » كما يقول الشاعر ، التى أقام فيها الحسن ، وحول عيون الماء مجمع كل شادن وناشد للشعر ، يجتمع الناس ينعمون بالحب ، والشعر ، والغناء ، وهناك يلتقى العشاق ، كما يصطلى نار الرغبة الظمأى – من حرم من الحب :

وللربيـــع حـــولهم مجـــامر
تعطـــر الجو بهـــن ، واكتبى

وقطعـوا الليـــل بأحـــلى ســـمر
يجهـر فيـــه بالهـــوى ، وينتجى

فـــكم أغـــان كنظيم الـــدر فى
تلك المغـــانى قد وشـــاها من وشى

كـــم حـــديث كنثير الزهـــر فى
تلك المبـــانى قد حكاه من حـــكى

وما أروع تصويره لجانبى النهر اللذين حاولا الاعتناق متأثرين بما حولهما من جو الحب والعناق ، وحين عجزا عن ذلك الالتقاء بكيا نهرا من الدموع :

رامـا اعتنـــاقا ثم لم يمكنهمـــا
فبكيـــا نهـــرا لاخفـــاق المنى

نهـــر تلاقى الدوح والسروح بـــه
وســـبح الزهـــر عليه ، وطفـــا

ينعكس ظل البدر على أوجه هذه الأنهار المتعددة ، فكأنه عابد يسجد لله ، وتتمثل فيه النجوم ، وتلتقى التقاء الحجيج بمنى ، كمـــا :

ترى الدواليب عـــلى جســـوره
دائـرة بـــين فـــرادى ، وثنى

والصيادين ، وقد ألقوا شـــباكهم ثم رفعوها من الماء ملأى بالسمك : يســـمع للحوت بها خشخشة كخشخشة أوعية الطلع الجافة . واذا كان فيما سبق قد وصـــف الرياض وما فيها من مجالس الأنس ـ فانه لم يهمل ما فى تلك الرياض من أزهـــار ، وبخاصة البنفسج الذى ارتدى « زرقة السماء » والسوسن الكريم الذى ملأ يده بالتبر ، وفتح الأنامل من فرط سخائه :

وملأ الســـوسن بالتبـــر يـــدا
وفتـــح الأنمـــل من فرط السخا

ومنح الورد رائحته الذكية للنسيم ، فعل كل جواد كريم ، وشقائق النعمان ، عجزت عن أن تكون كريمة مثله ، فاكتسى وجهها بحمرة الخجل ، ونم « زهر النمام » « من أسراره تحت الدجى » ، وسحر النرجس ما حوله بأحداقه الفاتنة ، ويسخر الشاعر ـ كما فعل أبو نواس من قبل ـ من حياة البادية ، حيث تقل الميـــاه ، وتكثر الحيات والضباب .. فيقول :

ليست وأيـــم الله مثـــل بقعـــة
يجـــاور الأيـــم بهـــا ضب الكدى

وهو فى هذا ربما يعرض بابن دريد الذى مجد العـــرب فى مقصورته حين قال :

بل قسما بالشم من يعرب ، هـــل
لقســـم مــن بعــد هـــذا منتهى

هـم الأولى ان فخـــروا قال العـــلا
بفى امرىء فاخـــرهم عفـــر البرى

هـم الأولى أجـــروا ينابيع النـــدى
هامية لمـن عـــرا أو اعتفى .. الخ

٥ ـ وصف مجالس الشراب :

وكما وصف رحلات الصيد ، والمناظر الجميلة فى الأندلس ، وتونس ـ وصف مجالس الشرب ، ونكاد نقطع بأن حازما لم يكن محبا لمجالس الخمر ـ كما كان يحبها ويقبل عليها ابن دريد ، هذا الذى اشـــتهر بحبه للشراب والطرب ، قال أبو حفص عمر بن شاهين : « كنا ندخل على ابن دريد فنستحى لما نرى من العيدان المعلقة والشراب المصفى ، وقد كان جاوز التسعين » . وقد وصفها حازم هنا ، كما وصفها فى موضع آخر بدافع مجاراة الشعراء ، ولتستوفى المقصـورة جميع الأغراض التى طرقها ابن دريد فى مقصورته ، لذلك نجده لا يأتى بجديد فى وصفها ، فالصور كلها مستمدة من قراءاته فهى عجـوز لتقادم العهد عليها ، لكن أثرها قوى فى أنفس الشاربين ، تبدد الهموم العاتية ، وتعيد للشيخ الفانى شبابه .. والشاعر لا يتجاوز فى وصفها سوى أبيات أربعة يصرح عقبها بأنه قد استغنى عن معاقرتها بكئوس الأدب ، أو أكواب العسل المزوج باللبن :

غنيت عنهـــا بكئـــوس ادب
تسقى فيستشفى بهـــا . ويشتفى

وآثــرت نفسى عليهــا شربة
من ضرب يجنى ، ورســل يمترى

بل يأخذ فى وصف هذا العسل الشهى فيقول :

جسم مــن الأنوار قد اوهمنا
أن مــن الأنوار جســما يغتــذى

ويثنى على رفاقه فى مثل هذه المجالس ، فألفاظهم كالأزهار الذكية ، ان جادلوا أحدا انتصروا عليه :

متى تقس مبــرزا من غــيرهم
بهم تجـده دون من منهم شـدا

صــان اللسان عن ســوى الحـق فلم
يفــه بقــول باطــل ولا لغــا

ومن غير المعقول أن من يصونون الألسنة عن اللغو والباطل ، ويتمتعون بالقدرة على الجدل والنقاش ، يكونون من المستهترين ، والمستهلكين لحياتهم فى الشراب ، ويعاود الحديث عن الخمر فى موضع آخر فيصفها ، كما يصف الساقى المهفهف ٠٠ الذى « حلا بسقى مثلها من قد حلا ٠٠ » ، أو كما يقول أبو نواس فى معنى ما قاله حازم ٠

تســقيك من يدها خمرا ، ومن فمها
خمرا ، فما لك من سكرين من بد

فهى أم ولود للمنى ، تذهب بالضــيق ، وتبعث فى النفس السرور ٠٠ وكما هو واضح فان حازما لم يأت بجديد فى وصفه للخمر ، وأعتقد ان ابن دريد قد فاقه فى ذلك الغرض ٠

٦ ـ وصف الخيل والابل والصحراء :

وهو يصف الخيل فى أكثر من موضع ، يصفها حين يتحدث عن شجاعة ممدوحه ، وتسييره الجيوش لتأديب الخارجين ، أو لاسترجاع ما استلبه الروم من أرض الأندلس كما يصفها وقد اختار واحدة منها لتكون عتاده فى الصيد أو الغارة على الأعداء ٠ وفى وصفه للخيل ، أو الابل التى يدعى أنه قطع على ظهورها الفيافى المترامية يفعل ما فعله الشعراء قبله من الوصف التفصيلى لأعضاء الفرس أو الناقة ، فترى « حازما » يتزيا بغير زيه ويلبس أقبية البدو فيعالج وصف هذه الأشياء بنفس أسلوبهم ، فهو يقطع الصحراء « بعاديات ضمر » تفرق غدائر الليل ، ويتطاير الحصا تحت سنابك الخيل واخفاف الابل ـ وهم عادة يقطعون الصحراوات على الابل التى قد امتصها السير فأشبهت النخل اليابس ، تكاد عظامها عندما تزفر أن تحدث صفيرا ٠٠ تلتهب الرمال تحت أخفافها ، فيرى السائر فيها الأظلاف ناصلة من توهج الرمال ، لو مر بجوها طائر لانشوى ٠

والماء فيها ليس الا قدر ما
يخفى حصاة فى اناء يحتسى

وفرسه :

طويل ذيل وسبيب ، وطلا
قصير ظهر ، وعسيب ، ونسا

ونستطيع أن نجزم بأن حازما فى وصفه للبادية والخيل والابل ، بل وفى أحاديثه عن نفسه مفتخرا بأنه قد جاب كل هذه الآفاق ، وشاهد كل تلك المناظر التى لا ترى الا فى البادية ـ كان مقلدا لابن دريد ، مستمدا صوره وتعبيراته من شعراء البادية كذى الرمة والراعى النميرى وأضرابهما ٠٠ وهو عندما يعرض كل ذلك

انما يهدف الى اثبات القدرة على قوة احتماله ،وكثرة تجاربه ،وبأن الكوارث لم تنل من عزيمته ، أو تلن قناته ٠٠ وليس فى حاجة الى من يشد أزره :

وما عتادى حين أستعدى على
دهرى سوى ظمآن ريان الشبا

وصارم مصارم ٠٠٠ لغمده
مواصل ضرب الهوادى والطلى

تخلى جسوم الكوم من أرواحها
به ، وهامات الكماة تختلى

ومسرج على الزفير مشرج
ململم الصهوة ، ململوم وآوى

وأعيس مخيس يشرى اذا
ما وصل البيد ببيد ، ووصى

ولأنه قد تبدى فى هذا الجزء من مقصورته ـ ناسيا أو متناسيا ـ أنه عاش فى الأندلس ذات الأنهار الكثيرة ـ نجده يتمادى فى هذا التبدى ، فيختار الكلمات والعبارات الخشنة والغريبة الشاذة ، مما يتغاير تمام المغايرة مع أسلوبه السلس الجذاب الذى وصف به مناظر الطبيعة الحضرية ، لينقلنا الى جو البادية ، ومع ذلك فقد يرق أحيانا حين يخرج عن وصف الصحراء والخيل والابل ـ الى وصف منظر يحبه الشاعر ، كمنظر البرق ، فالبرق فى المدينة كالبرق فى البادية ٠٠ يبعث على الاعجاب ، فهو :

كثغر من أهواه أو ثغرته
اذا اكتسى بالزعفران ، وأطلى

والسحب :

حـــوامل حقائبـــا من لؤلـــؤ
رطب حثـا منـه النسـيم ما حشـا

وهى تمشى فى سلاسل من الذهب ، ترضع النبات ، وتعمم الربى الصلعاء بالخضرة والألوان الزاهية ، تتناغم فيها الظبـاء ، ويتناجى الذباب الحولى ٠٠ ويأخذ الشـــاعر فى وصف أسراب من البقر الوحشى التى ترعى النوار ، حتى اذا شرع فى مطاردتها برزت له « فتاة » كالشمس تقلدت من الدرارى ومن الدرحلى :

قد كان يأبى وصلهـــا الدهر الى
أن غض عنهـــا ناظريه وغضى

لما دنا فيها الحبيب ، وانتــهى
جنى المنى اشتد نواه واعتصى

واعقب التســـليم توديع بــه
غاب الهـــلال حين لاح ابن ذكا

امسكته وقد رسا الحلى له
من نبأ الصـبح المبين مارسـا

والصبح قد تمخضت به الدجا
حتى بدا مثـل الجنين المختفى

كانما ضـــوء الصباح جلوة
والليل زنجى عليها قد جذا

لقد ذكر هذا المشهد ليستكمل صورة البادية بما فيها من قصص الحب العذرى ٠

٧ ـ الشكوى والحنين :

وكما شكا ابن دريد من الدهر الذى ذهب بشبابه وقوته :

فاض روض اللهـــو يبسا ذاويا
من بعد ما قد كان مجـاج الثرى

وسلط تباريح الشوق تستهد بقلبه ، وجعله نهبا لمتــاعب الاغتراب فأبعده عن أحبابه ، وأصدقائه بالبصرة الذين يكن لهم كل ود ومحبة ٠٠ اما هربا بسبب استيلاء الزنج الثائرين على البصرة ، واما طلبا لحياة أرغد فى ظل أمير من أمراء عصره ، والدهر يضع العقبات أمامه ، ويبعثر الأشواك فى طريقه :

أرمق العيش على برض فــــان
رمت ارتشافا رمت صـعب المنتشى

ما زجا شكواه بالفخر بقوته وباسه ، معتبرا بما أصــــاب الآخرين قبله ممن سعوا فى سبيل تحقيق أمانيهم ، دون أن ينال ذلك من عزيمتهم ، يراوده الأمل أحيانا فيتذكر من وصلوا الى آمالهم متخطين كل العقاب ـ أقول : كما شكا ابن دريد شكـــا شاعرنا حازم القرطاجنى من دهره الذى كان قاسيا عليه ، فأبعده عن الوطن بعد أن شرد أهله وأحبابه ، فهاجر الكثيرون منهم الى بلاد المغرب بافريقيا أو الى بلاد المشرق العربى هربا من الاضطهاد الدينى والعنصرى ٠٠ فذاق مرارة الاغتراب ، واكتوى بناره ٠ ويصرح فى مقصورته ان الانسان حين يغترب عن أهله يذل بعـد عز ٠٠ بل يكون هدفا لاساءته والنيل من كرامته ٠٠ مما يفقـد معه الصبر ، فيصعد الزفرات ، ويكثر من الأنين والحنين ، وفى أحداث التاريخ عبر لمن يعتبر ، فأبن مضاض الجرهمى حن الى مكة بعد أن نفته عنها كنانة وخزاعة مع قومه الى اليمن ، فيهتف :

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سـامر

وكذلك كان يفعل بلال بعد هجرته ، اذ كثيرا ما رفع عقيرته وقد ألمت به الحمى فى المدينة ــ مرددا :

الا ليت شعرى هل أبيتن ليـلة
بواد ، وحولى اذخر وجليـل

وهل أردن يومـا مياه مجنـة
وهل يبدون لى شـامة وطفيل

ويرى حازم أنه لا فرق بين الغربة والهلاك .. ولكن لم ينقطع رجاؤه فى العودة بالرغم مما كان عليه حال المسلمين من تفرق وضعف :

والمرء يرجو والليـالى تـارة
تدنى وتنئى تارة ما قد رجـا

فايمانه بقدرة الله شـعاع .. يملأ جوانب نفسـه بالصبر والأمل :

وانما يقضى بانجـاح المنى
من قد قضى فى كل شيء ما قضى

فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله :

فأصـغر الأشـياء قد أثـر فى
أعظمها بالعون من رب العـلا

وشـواهد التاريخ على ذلك كثيرة ، فالأحباش قد أهلكهم الطير الأبابيل ، وخرب الفأر سد مارب .

وألقت النمروذ عن كرسيه
بعوضة عدت اليه اذ عدا

وايمانه يجعله يعتقد أن عاقبة الظلم وخيمة ، ونهاية الظالم وشيكة :

وقلما مد المدى لمن غدا
في الظلم ، والعدوان ممدود المدى

وقد تعهد الله البشرية ، فلم يخلها من نبي مرسل ، أو ملك عادل يرفع ما هوى ويرقع ما وهي ، وهو يهيب بالخليفة «المستنصر الحفصي » أن يحقق أمل الرعية فيه فيستعيد ما سلبه الأعداء ٠٠ ويمهد لذلك ــ بالحديث الطويل عن أمجاده العظيمة ، والانتصارات التي تحققت على أيدي أجداده ، كموقعة « الأرك » ٠

هذا هو أهم مصدر من مصادر شكواه ، وهو ليس بالمصدر الهين الذي يمكن نسيانه ، وكيف ينسى بلاده وكل ما حوله يذكره بها ، فيتذكر جمالها ، وما فيها من متع وملذات ٠٠ لذلك نجده يفرط في وصف أماكن لهوه ٠٠ كأنه يريد أن يستعيدها حية لا في وجدانه فقط ، وانما حية بكل ما في هذه الكلمة من معاني الحياة ٠٠ ، وهو يدعو لها بالنعيم ، والخصب ، والبقاء ٠ وثمة ظاهرة تصادفنا وهي الافراط في ذكر الأمكنة ، حتى لا يكاد يهمل مكانا ، أو جدولا صغيرا ، الا ذكره ٠٠ ، انه يعلم ــ رغم رجائه الذي لم ينقطع ــ أن كل هذه الأماكن ستدرس وتزول بعد أن طرد منها أهلها ، وسوف لا يبقى لها ذكر ٠٠ ، وهو لا يرضى لها ذلك ، بل يريد لها الخلود ، ويرغب أن يحفرها في ذاكرة الزمن ، فلا تستطيع يد النسيان أن تمحوها ، وقد صدق ظنه ، فلقد عفى الزمن على تلك المراتع الجميلة ، ولم يعد لها بقاء الا في قصائد الشعراء التي تغنت بما كان لها من عز وجمال ٠ وهو يشكو ــ

كابن دريد ، وككل كائن بشرى تتقلب به الأيام من سعادة الى شقاء ، ومن لين الى شدة ، ويكاد يصرخ هاتفا بالزمن ـ كما هتف به ابن دريد من قبل طالبا منه أن يرفه عنه ، فيقول حازم :

يا زمنا حفى المنى من بعد ما
قد كان والى البر منه واحتفى

قد بلغ الحزام طبييه وقد
أفرط حتى بلغ السيل الربا

ويشارك ابن دريد وغيره من الشعراء الشكوى من الشيب ، نادبا أيام الشباب الجميلة :

كان الصبا ظلا لنا مد الى
ان قلص الظل المديد وازى

قد كان عيشى ناعما ذا جدة
دهرا فاضحى ذابلا وذا بلى

كان الشباب كالكمى معلما
حتى اذا نازله الشيب انكمى

ونحن مع العلامة الغرناطى فى نقده لقوله :

ظل أمير المؤمنين عنده
انعم من ظل الشباب والصبا

وتفضيله للبيت الذى يقول :

لا تكذبن فما الدنيا بأجمعها
من الشباب بيوم واحد بدل

فبيت حازم « السابق » صورة لبعض مبالغاته التى تتعدى الصواب أحيانا فى سبيل التجديد فى المديح ، وابتكار الصور ٠

كذلك يشكو من هجران محبوبته ، ولا نستبعد أن يكون ذلك رمزا لهجران العرب والمسلمين لهذه الأماكن الغالية ٠٠ وقد كثر الشعر الرمزى فى عهده على أيدى شعراء الصوفية ، كابن عربى وسواه ٠

وهو يمزج شكواه بالفخر : الفخر بسيفه ، وفرسه ، وناقته، والفخر بقدرته على الصبر والتحمل وممارسته للأيام ، وتقلبه بين حلوها ومرها ، واصفا المناهل التى وردها ، والصحراوات التى قطعها ، والظلمات التى شقها ، والوحوش التى التقى بها ، والعناء الذى لاقاه فى قلب الصحراء المحرق ٠٠ وهو يقلد فى ذلك ابن دريد الذى يقلد هو أيضا شعراء البادية ٠

وقد ذكرنا الكثير مما قاله فى هذا الغرض من شعر حين تحدثنا عن « فن الوصف » عنده ٠

بكاء الديار :

هذا الغرض قديم تناوله الشعراء منذ الجاهلية الى عصر الشاعر ، وسنتحدث عنه بشيء من التفصيل حين نتحدث عن الأغراض الشعرية التى تعرض لها فى شعره ٠٠ وهو هنا جزء مكمل من أجزاء ملحمته ، يرتبط ارتباطا عضويا بأجزائها الأخرى ، وهو لا يفرد له جزءا خاصا به ، ولو فعل ذلك للمناه على ما فعل ، لأن مثل هذا العمل لا يفعله الا رجل يصنع الشعر صناعة ٠٠ ولا يتيح الفرصة لاحساسه أو لفكره الممتزج بعاطفته أن يعبر عن نفسه فى حرية وطلاقة ، وحازم يتحدث عن مراتع صباه ، ومسارح لهوه في أكثر من موضع ، بل ربما لأدني ملابسة ، فهديل الحمام

في صدر المقصورة ـ يذكره بهواه في تلك الجنة الذاهبة ، واغداق نعم الخليفة الحفصي عليه يشب في نفسه نيران الذكرى :

طابت به الأيــام لى حتى لقــد
ذكرت فيما قد خلا عيشـا حلا

أين الزمان الناضر الطلق الذى
كم قر فيه ناظرى بمـا راى

أملأ سـمعي ويدى من كل مـا
تهـواه نفسي من غنـاء وغنى

فى بقعة كجنة الخلد التى
يرى بها كل فـؤاد ما اشـتهى

وتشده الذكريات الجميلة اليها ، فيترك ما كان فيه من مديح ، ليسبح في العالم الجميل الذى ودعه ممسـكا بلحظاته الضائعة في حبالة الشعر ، باعثـا لأيامه المنطوية فى صـوره الشعرية الزاهية ، فتحس كأن الشاعر يعيش تلك الحياة مـرة ثانية ، فهو يلهو ، ويمرح ، ويصوغ كلماته الراقصة في عبارات تنبض بالفرحة والحياة ، ليصف كل شيء مضى : سهراته مع الأصدقاء الشعراء ، ورحلاته في طلب الصـيد ، وأنواع الأطعمة التى تقدم له ولأصدقائه ، والمتعة التى يقضيها وهو يستمع للغناء أو انشاء القصيد ، معددا الأماكن ، مسرفا فى تعدادها ، مصورا لما يختص به كل مكان من ألوان المتعـة والجمـال .. ، تزدحم الخواطر فى نفسه ، فنشعر بلهاثه وهو يجرى خلفها ليختار منها ما يشاء ، ولازدحامها عليه نجد التعبير « بكم » التى تفيد الكثرة ـ يشيع فى حديثه عنها :

فكم اغان كنظيم الدر فى
تلك المغانى قد وشاها من وشى

وكم حديث كنثير الزهر فى
تلك المبانى قد حكاه من حكى

« وكم بدت لى بمنير أوجه »
«وكم يحصن الفرج السامى لنا من فرج»

وهو حين يذكرها يدعو لها أن تظل زاهية ناضرة ، تواليها السحب بالتهطال ، ولا تدع موضعا الا مطرته ٠

لا ظمىء الورد الذى كنا به
نروض أفراس الصبا ولا ضحا

سقا المنار فديار ديرة
فالدير فالشطور هطال الحيا

ووالت السحب بعين توبة
بمثل عينى توبة طول البكا

ويدعو لوحوشها ألا تعدم الماء الصافى ، والظل الضافى ، وهو بالرغم من أنه يسترجع صور الماضى فى موضوعية خالصة ٠٠ الا أن احساسه الحزين لا يلبث أن يكشف عن نفسه ، كما تطفر الدمعة من عينى المتجلد الحزين ٠٠ من ذلك وصفه للسحابة المارة على مرسية حيث نشأ ــ بأنها تضحك وتبكى ، تضحك لتشييع النضارة فى خمائلها ، وتبكى حين تراها قد خلت من الأحباب الذين شردهم الأعداء :

حتى اذا ما ضاحكت مرسية
بكت على رسم حبيب قد خلا

وندبت معــاهدا أنحى العـــدا
فيها على رســم الهدى حتى عفا

ويكتفي بهذه اللاعجة السريعة حتى لا يعكر على ممدوحه صفو اسعاده ، بهذه الصور الضاحكة للحياة الأندلسية ، التى كانت فى الماضى ، ويواصل عرض تلك الصور • وبعد عدة أبيات نلتقى بهذه الصورة للسحاب أيضا حيث يقول :

واغرورقت عــلى الخليج عينـــــه
واختلج البــارق منـــه ونــزا

فنلتقط من التعبير دمعة أخرى عجز الشاعر عن كتمانها •

واذا كانت الفرصة غير مواتية لرثاء وطنه فى الجزء الكبير من وصفه لطبيعة هذا الوطن السخية الرائعة •• فانه لم يتركها تفلت من يده ، وقد واتته سهلة طيعة حين أخذ فى تعداد انتصارات أجداد ممدوحه ، ذاكرا ما آل اليه أمر الأندلس بعدهم من تفتت وضعف واضمحلال :

بل يكاد يبكى وهو ينلهف متحسرا على دياره التى غصت بالروم بعد أن كانت مسرحا للظباء ، وامتلأت بأمهات السباع والوحوش من الأعداء بعد أن كانت موطنا للغزلان ، وأخلاها الله من ألافها بعد أن نموا فيها وتكاثروا ، فكأن غراب البين قد نعب عليها بالخراب : فمحقت قرطبة ، ودمرت تدميرا ، وخربت اشبيلية ، وبدلت وحشة بعد أنس وعمرتها الأشباح والهوام التى تصيح فى الليل طالبة الثأر • والحزن يخيم بشبحه الكئيب على كل شىء ، حتى الأنهـــار أخذت تبكى ذلك المجد الداثر والعز العافى ، والحضارة التى أضاعها أصحابها بانغماسهم فى الترف ، وانقســـامهم على أنفسهم ، ولم يدركوا أن البيت الذى ينقسم على نفسه يصيبه الدمار :

فيالهـــا من درر تخـــرمت
بالغر من در السـلوك تفتـــدى

أضحت على أيدى العدا منثـورة
وأرخص الاشـــراك منها ما غلا

واحتـــويت ذخائـر الدين التى
قد طال ما اعيى العدا ان تحتوى

ثم يأخذ فى تحريض الخليفة على استعادتها :

فقد أشـــادت ألسن الحـــال بـه
حى على استفتاحهـــا ، حى عـلى

الفخر بصلابته وقوته والمبادىء التى تقوم عليها اخلاقه :

يتجلى الجانب الذاتى أكثر ما يتجلى فى الحديث عن نفسه ، والافتخار بأخلاقه ، وان كان الجانب التقليدى فى فخره الذى يجارى فيه ابن دريد يكاد يحجب عنا الرؤية الواضحة لما هو من أخلاقه . وما يمكن أن يكون دخيلا عليها . فمما هو دخيل فى رأينا ـ الافتخار بكثرة أسفاره البعيدة ، ومواجهته لمصاعب الترحال بعزيمة صلبة ، وارادة قوية ، وأنه لا يعتمد على غير سيفه وفرسه ، كل ذلك نرى له نظائر فى مقصورة ابن دريد .. فاذا قال ابن دريد :

وصاحبى صـــارم فى متنـــه
مثل مدب النمل يعلو فى الربـا

أبيـــض كالملح اذا انتضـــيته
لم يلق شـــيئا حده الا فـرى

ومشرف الأقطار خـاظ نحضـــه
حابى القصير ،جرشع عرد النسا..الخ

نجد حازما يقول :

وما عتادى حين استعدى على
دهرى سوى ظمآن ريان الشبا

ومسرج على الزفير ، مشرج
ململم الصهوة ، ملموم ، وآى

وان كان ابن دريد يبالغ فى وصف شجاعته ، وقوته ، ويزعم انه لو رؤيت نار حرب مشبوبة فى أى مكان فهى ناره وحروبه، ممجدا قتلى الحروب الذين يبذلون دماءهم رخيصة فى سبيل العلا ـ الا أنهما يلتقيان فى بعض الصفات مع صدق كل منهما ٠٠ من ذلك الشكوى من قسوة الحياة ٠ وحازم قد تعرض للمتاعب أكثر مما تعرض لها ابن دريد ، لذلك نشك فى أن شكواه صادرة عن نفس متألمة ، وقلب يطفح بالمرارة من قسوة الزمن ، كما يشارك حازم ابن دريد فى وصف « معاملته للناس » ، فهو سهل لين مع ذوى الطباع السمحة اللينة ، شديد قاس مع ذوى النفوس الماكرة ، والطباع الخبيثة نسمع ذلك من ابن دريد حين يقول :

لى التواء ان معادى التوى
ولى استواء ان موالى استوى

طعمى شرى للعدو تارة
والراح والأرى لمن ودى ابتغى

كما ينفى عن نفسه الطمع ، ويصف نفسه بالحلم ، فى المواطن التى تطيش فيها أحلام العقلاء المجربين ٠٠ ونسمع ذلك من حازم حيث يقول فى هذا المعنى :

ولى فؤاد منصف فى حكمه
متصف بالعدل فيما قد قضى

كم دمث الخلق لمن في خلقــه

دماثة ، وكم جسـا لمن جســا

لم يسـتمل نفسي حرص مطب

اذا سـتمال النــاس حرص واطبى

ومن الصفات التي ينفرد بها حازم الرضا والقناعة · لقــد عاش الشاعر في عصر كله فتن ، وقلاقل وأبصر العديد من العلماء والشعراء الذين شردوا أو عذبوا ، ونكل بهم من جراء الافراط في الطموح ، ولقد شاهد صديقه ، ورفيقه في الأدب والفن ، والاستظلال بظل الخليفة المستنصر الحفصي - وأعنى به « ابن الأبار » الذى يعد من أعلام الأدب الأندلسى بعامة - وكيف قتل ، وأحرقت كتبه، كما أنه قرأ عن ابن رشد وما أصـــابه من سجن وتنكيل · ومن المؤسف أن الحكم الاستبدادى الذى منى به العالم الاسلامى فيفترات كثيرة ، سواء في المشرق أو المغرب قد خنق الفكر ، وعرقل مسيرته عن التقدم ، حاشا عدد قليل من الحكام المتفتحى البصر والبصيرة، كالمأمون في المشرق ، وعبد الرحمن الناصر في المغرب · لذلك رضى شاعرنا حازم بواقعه ، وانصرف الى العلم والأدب ، قانعا بما يناله من أجر أو عطاء قليل ·· فلا غرابة أن نسـمعه يحث الناس على القناعة في أكثر من موضع ، كقوله :

من أقنع الحـظ القليــل نفسـه

أضحى عن الحظ الكثير ذا غنى

وان أغنى الناس عنـــدى عاقل

أبدى اقتناعا بالقليل واكتفى

وقد مكن في نفسه لهذه الصـــفة ، ايمانه العميق الذى هو

الصفة الثانية من صفاته الأصيلة ، فهو يرى أن كل شيء بقضاء الله وقدره ، والانسان لا يحصل على غير ما قدره الله له ، والشقي هو من يطلب مالم يقدر له ·

من ابتغى من لم يقدر كونه
له ، فان مستحيلا ما ابتغى
وشر خلق الله من لا يتقى
الهه ، ويزدرى اهل التقى

وقد وجدناه فيما سبق يمدح الخليفة المستنصر بالتقوى ، والسعي فى اعلاء كلمة الحق · ومن الحكم التى نثرها فى مقصورته نستشف تقديره لبعض الأخلاق ، كاعانة الانسان لأخيه الانسان ، واستهجانه لمن يسمع مذمة صديقه فلا يدافع عنه ، وعدم توقع الخير من الرجل الذى يخشى ضرره · ويحث على البعد عمن لا يفيدك قربه . أو من تتوقع أذاه · والانسان عبد الاحسان ، وعلى المرء أن يستبصر بعقله ، ويدعو الناس الى ادخار الثناء والذكر الطيب ، كما يدعوهم الى الاقتداء بأهل المروءة والسماح · وقناعته التى أشرنا اليها ليست من قبيل التواكل ، بل هى قناعة بما قدر الله مع مواصلة الدأب والبحث ، واستسهال كل صعب :

فان لقيت شدة دون العلا — فالشهد يلقى دونه حد الحمى
لو نيلت العليا بلا مشقة — كان طلاب المجد ادنى مبتغى
ولم يكن بين الورى تفاوت — فى شيم الباس وأخلاق الندى

الحكمة فى المقصورة :

لقد عقب ابن دريد على الحديث عن تجاربه بحشد كبير من الحكم ، لم تنبثق من تجربته الخاصة ، سوى الحكمة الأولى التى جعلها منطلقه فهو يفتخر بأنه يصون عرضه من أن يدنس :

وصون عرض المرء أن يبذل ما
ضن به مما حواه ، وانتصى

ثم يأخذ فى سرد الحكم التى لا يربط بينها رابط مثل

والحمد خير ما اتخذت عدة
وأنفس الادخار من بعد التقى

ويليه :

وكل قرن ناجم فى زمن
فهو شبيه زمن فيه .. بدا

بل يلخص بعض الحكم الجاهلية التى قد تخلى عنها العرب فى عصر ابن دريد ، كقوله :

من ظلم الناس تحاموا ظلمه
وعز عنهم جانباه واحتمى

وهم لمن لان لهم جانبه
أظلم من حيات أنباث السفا

عبيد ذى المال وان لم يطمعوا
من غمره فى جرعة تشفى الصدى

ولحازم نوعان من الحكم . أصدقهما تلك التى يعقب بها على حدث ، أو يصدر فيها عن تجربة خاصة به ، وهى قليلة فى شعره وان كانت أكثر مما لابن دريد فى هذا الصدد ، من ذلك تعقيبه على ذكر بعض أعلام التاريخ ممن ذهبوا ضحية طموحهم بقوله :

والدهر لا يبقى على نفسي ، ولا يبقى على علق نفيس مقتنى
ما هـذه الأعمار الا طـرق رواحل الأجسام فيها تمتطى
من تخمل الأيام بعد حظـوة يخمل،ومن تخطه دنياه اختطى

ويعقب على حديثه عن الطغاة ومصيرهم بقوله :

وقلما مد المدى لمن غـدا في الظلم والعدوان ممدود المدى

وقد يقدم الحكمة فى صدر الحديث ثم يورد ما بعدها كالبرهنة على صحة هذه الحكمة من ذلك قوله :

من ظاهر العزم بحزم ظهرت نتائج النجح له فيما نـوى
ومن نحا أمرا بعزم نافـذ من غير حزم لم يصب فيما نحا

ويبرهن على ذلك بقوله :

لم يخل سيف عزمه من حزمه اذ سل سيف الجد قدما وانتضى
سما لكسرى بعد قصد قيصر ولم يقصر فى السرى ، ولا ألى

أما النوع الآخر الذى هو محاكاة لابن دريد ومن سبقه ، كأبى العتاهية ، أو صالح بن عبد القدوس ـ فهو كثير ، ويغلب عليـه تصنيف الحكم وتبويبها ، فالحكم التى تلخص أفكارا متقاربة يجعلها فى مكان واحد من المقصورة ، كما يبرز حكمه فى ثوب من النصيحة التى يغلب عليها الطـابع الدينى ، كنهيه عن الاغترار بالدنيا فى خاتمة مقصورته ، أو حديثه عن قصر الدنيا . وتقلبات الأيام ، وحب الناس للحياة رغم ما فيها من قسوة :

والعيش محبوب الى كل امرىء لا فرق بين الشيخ فيه والفتى
والدهر رام ، أبدا مبق لما اشوى،وان أصمى امرءا فلاشوى
وليس الانسان فى عيشـته نفع اذا صبغ الصبا عنه نضا
ان هو لم يقعد من الضعف جثا وهنا وان لم يحب في المشي اعتصى

ومن البديهي أن الحكم التي تنبثق من تجربة الشاعر « والتي ترتبط بالقصيدة ارتباطا عضويا وثيقا تدل على خصوبة في الفكر ، وعمق في الاحساس ·· وهذا النوع يرحب به الشعر بل يدعو اليه ·· أما تلك الحكم التي هي خلاصة تجارب الآخرين ، والتي هي من قبيل النظرات المألوفة المعتادة ·· والتي يعرفها الخاصة والعامة ·· فهي لا تدل على تفرد الشاعر وعمق تكوينه الشعري ·· وتكون مجافية لروح الشعر حين تنظم نظما عقليا ، لا ماء فيه ولا رواء ، اذ يعجز الشاعر عن مزجها بوجدانه وتغليفها باحساسه، كما كان يفعل صالح بن عبد القدوس في بعض حكمه التي هي مجرد نظم لخبرات معروفة · يقول جان ماري جويو : لا شيء أبعد عن مهمة الشاعر من أن يكون مترجما أو جامعا ملفقا ولكي تصبح الحقائق العلمية شعرية لابد من توفر شرط أساسي : وهي أن تمازج نفس الشاعر ، ونفس قرائه ، وتصبح مألوفة لديهم بحيث تتخذ صورة الشعور والحدس ··· يجب على الشاعر أن يوحي لا أن يعلم · قال شيرب : اذا اضطر الشاعر أن يعلم قراءه مقدما الأمور التي يريد أن يفصح عنها بلغة الخيال ، فسيجد نفسه مضطرا الى أن يصبح باردا خاليا من الشعر ·· » ·

هذه هي مقصورة حازم التي اشتهرت بطولها ، وغناها ، كما توفرت لها الوحدة الفنية رغم اشتمالها على كثير من الأغراض · ولقد حقق الشاعر هذه الوحدة بمزجه الأغراض بعضها ببعض ، والانتقال من غرض الى غرض انتقالا تلقائيا ، بل شبيها بما يسمى حديثا «بالتداعي الحر» في بعض المواضع ، أو شبيها بما يسمى تداعي « الألفاظ » في البعض الآخر ·· نرى النوع الأول في انتقاله من مدح الخليفة المستنصر ، الى وصف الآثار والمنشآت التي شيدها هو أو أجداده في تونس ، فالطبيعة الجميلة ، فوصف الفرسان الذين يقاتلون معه ، فالخيول التي تحملهم ، والأفضال التي غمر بها

الشاعر ، مما ذكره بالسعادة التى نعم بها فى الأندلس ، جاعــلا هذا البيت :

طابت به الأيام لى حتى لقــــد ذكرت فيما قد خلا عيشا حـلا

مجازا أو معبرا الى عالم ذكرياته الجميل ، واصفا أماكن لهوه ، ومراتع صباه ، مصورا ما فيها من روعة وجمال .

ومن تداعى الألفاظ ؛ هــذا الافراط فى الجناس ، فالكلمة تستدعى كلمة تماثلها فى الايقاع اللفظى ، وهذا كثير فى المقصورة ، كقـــوله :

مجمع كل شادن وناشــــد عند عيون العين قلبــا مستبى

أو المقابلة بين المتضادين كقوله :

ونعمت اعين ابنـــاء الهـــوى وعذبت افئدة منهـــم هــوا

أثر مقصورة حازم فيما بعدها

لقد كان لمقصورة ابن دريد الأثر الكبير الذى رأينا ٠٠ أما مقصورة حازم فلم يكن لها مثل هذا الأثر ٠٠ رغم ما تمتاز به من طول ، وما طرقته من فنون ، وما احتشدت له من أنواع البديع ٠٠ ولكن ثمة مقصورتان من المقصورات التى نظمت بعدها تشيران الى معارضتهما لمقصورة ابن دريد ومقصورة حازم . وواحدة منهما هى مقصورة المكودى تصرح بذلك بل وتسخر منها ٠٠ والثانية وان لم تصرح ففيها تلميح يشى بذلك ٠٠ ولقد سلكت المقصورتان الطريق الذى سلكته مقصورتا ابن دريد وحازم من حيث الأغراض ، واستعارت منهما بعض التعبيرات والصور ، وان كانا قد صرفا ما فيهما من مدح الى الرسول عليه السلام ٠

فالأولى مقصورة محمد بن أحمد بن على بن جابر الأندلسى الضرير ، المولود بالمرية سنة ثمان وتسعين وستمائة والمتوفى سنة ٧٨٠ من الهجرة بالبيرة ، وقد نظم « الحلة السيرا ، فى مدح خير الورى » على قافية الميم ، بديعية على طريقة صفى الدين الحلى ٠ ونظم فصيح ثعلب ، وكفاية المتحفظ ، وغير ذلك وكان كثير النظم

عالما » . وقد التزم فى كل عشرة أبيات من المقصورة حرفا من حروف المعجم قبل الروى من الهمزة الى الياء وعدد أبياتها ثلاثمائة بيت ، يبدؤها بقوله :

بادر قلبى للهوى وما ارتـــأى   لما رأى من حسنها من قد رأى

وهو يبدؤها بالغزل كما فعل حازم ، ثم ينتقل الى الحديث عن الرسول الكريم الذى ينظم فيه مقصورته ويتحـــدث عن نفســـه مفتخرا بعفتـــه :

لا أسأل النذل ولو أنى بـــه   املك ما حاز النهار والدجـــى

حسبى بنو عبد مناف ، بهـم   يغنى من استغنى ، وينجو من نجا

ويصف سيره فى الهجير كما فعل ابن دريد وحازم ، ويقسم بالبيت ومن طاف مثلما فعل ابن دريد ، ويتحدث عن زهو حاسديه بما لهم عليه . ويشكو من حال الأيام التى عدت على نفس عدى ، وسقت ابن حجر كأس السم . (والتعبير بالسم من تعبيرات حازم الذى يقول عن امرىء القيس : قد خلع العيس بســم مكتسى وأبو الجبــر هيض بســـم محتسى) ، واستلبت من بنى ساسان ملكهم وأمكنت من آل مروان يدى ذى وحر (أى مسلم مولى بنى العباس) فعاث فيهما فتكا ، ولم يأمن المأمون غوائلها ، وغالت الأيام جعفرا والفضل ، والزباء ، وجرعت مهلهلا كأس البلى ، وأزالت النعمة عن سبأ وأهلكت عادا ، وجرهما ، وزودت منها تميما بالصلا . وهو تعبير من تعبيرات ابن دريد التى انفرد بها فهو يقول :

ثم ابن هنـــد باشرت نيرانـــه   يوم أوارات تميما بالصـــلا

« وأولجت ذا نواس فى لجة » ، والاشارة الى اغراق ذى يزن

نفسه مخافة الذل بعد أن منى بالهزيمة ، مما انفرد بذكره حازم ، فهو يقول فى ذلك :

ولحذار الـذل ألقى نفسـه ذو يزن فى لج بحر قد طمى

ويتكلم بعد ذلك عن معجزات الرسول ـ يفعل فعل من سبقه من أصحاب المدائح النبوية ـ فيذكر منها تدفق الماء من كفيه ، وحنين الجذع له ، وتسبيح الحصا .. يقول فيها :

يا مضفيا للناس ظل رحمـة بات العدى منها على جمر الغضا
يا موسع الألف بصاع شبعـا ومن مشى الدوح اليه وسعى
وأخصب الفرع بلمس كفـه وبادر المزن لـه لما دعـا
وسلم الظبى عليـه كرمـا وكلـم الميت فقـام ووعـى
واستشهد الضب فحيا معلنـا بصدقه ومثبتا لمـا ادعـى

ويحتال ليصف الخمر ، فيقول :

لا تحسبن الراح راحا قرقفـا للشرب منهـا قبس ومنتشى
اذا اداروها وقد جن الدجـى وشى بهم نيرهـا فيمن وشـى
قد حجبت فى دنها دهرا الى أن برزت كأنها صبح فشـا
لم يبق من جوهرها الا سـنا ينشىء أفراح الفتى اذا انتشى
كأنها والكأس قد حفت بهـا متيم أصبح مضـروم الحشـا
يديرهـا مختلف الحسن اذا أقبل بدرا ، واذا تاه رشـا
يحكى القطا والظبى والغصن اذا ما قد تثنى او تجنى او مشـى
وانما الراحـة زهد المرء فى اعراض دنيا تورث العين العشا
والمجد ايقادك نيران القـرى يعشو لها فى الأزمات من عشا

ومن الواضح أنه قد تأثر بابن دريد كما بحازم ، واستقل هو بذكر بعض العبر كذكره لجعفر ، والفضل ، وذهاب دولة بني مروان • ومن تعبيرات حازم التي ذكرها كلمة « منتشي » و « جمر الغضا » وقد ذكرها ابن دريد أيضا « وجزل الغضا » ووشي النار بأصحابها ، الذي يشبه ما قاله حازم عن اشراق وجه محبوبته الذي كاد أن يتضح أمرها لولا ما أشكل على الرقباء من أمر هذا الضوء ، هل مصدره الشمس الحقيقية أم وجه تلك المحبوبة ، وكذلك الدعوة الى الزهد التي تكررت في مقصورة حازم • ثم يقول ابن جابر دون أن يذكر من سبقه :

والآن قد اكملتهـا في مدحـه مقصورة يقصر عنها من خـلا

فلا شك أنه يقصد حازما وابن دريد لأنهما قد مدحا عظيمين من أجل عرض زائل ، صرح بذلك المكودي في مقصـورته التي سنعرضها في الصفحات التالية •

فمن هو المكودي ؟ ••• « هو أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي بتخفيف الكاف ، من بني مكود احدى قبائل هوارة الواقعة ما بين فاس وتازة ، عاش في عصر المرينيين : أبي عنان وأبي سالم وابن فارس ، كان يقرئ كتاب سيبويه بمدرسة العطارين بفاس ، ومدرسـة الصـهريج ، شرح ألفية ابن مالك ، وله شرح الاجرومية وشرح على نظم المقصور والممدود لابن مالك ، ورجز بديع في التصريف سماه البسط والتعريف ، ومن آثاره الأدبية المقصورة المشهورة التي نظمها في السيرة النبوية وعارض بها مقصورتي ابن دريد وحازم وسخر فيهما بهما فقال :

مقصورة ، لكنهـا مقصـورة على امتداح المصطفى خير الورى
ما شبتها بمدح خلق غـيره لرتبة أحظى بها ، ولا جـزا

فاقت علاء كل ذى مقصورة   وان هم نالوا الأيادى والنهى
فحازم قد عد غير حازم   وابن دريد لم يفده مادرى

وتقع فى مائتين وتسعين بيتا ، وقد أكثر اقتباسه فيها ، ومجاراته لحازم والشقراطيسى والبوصيرى ، ومع ذلك فانه أجاد فى بعض أبياتها اجادة نادرة .. توفى المكودى على الأصح الأرجح سنة ٨٠٧ هـ ، خلافا لما فى الضوء اللامع من أنه توفى سنة ٨٠١ هـ ، ودفن بزقاق الأصدع من فاس المعروف الآن بفندق اليهودى ، وقبره هناك فى مسجد معروف .. » . وأولها قوله :

ارقنى بارق نجد اذ سرى   يومض بين فرادى وثنى

فهو يبدؤها بالغزل كما هو المعتاد فى المقصورات بعد ابن دريد ، وان كان غزلا من المحتمل جدا أن يكون صوفيا ، فيفسر بأنه حنين الى الجزيرة العربية حيث الأماكن المقدسة . ثم ينتقل الى جوبه الفيافى . والسباسب . على جمل بازل قوى ثم يأخذ فى وصفه بما هو مألوف ، فهو قوى كالوحش . صلب كالصخر ، كما يصف الدجى ومطاردة الصباح له ، وفزع الشهب من ذلك ، ويصف روضة باكرها المطر وهزت الصبا قضبانها فغنى عليها الطير وشدا ، ويشكو الدهر وما رماه به من اغتراب ، وبعد عن الأحباب ، واصفا الأماكن التى شب فيها ، ولها ، فكم تنزه على صهوات الجيل ، وكم هصر أغصان الظباء ، ولثم أزاهير الثغور ويتشوق للعودة الى تلك الديار :

ياليت شعرى والأمانى خدع
هل يرجع الدهر لنا ما قد مضى

ويأخذ فى الاستدلال على ما يفعله الدهر بالآمنين ـ بما حدث فى التاريخ لساسان وعاد ، وسبأ :

وأين بانى ارم وجيشـــــــــــه

صاروا رميما تحت اطبـاق الثرى

وممن يذكرهم : كسرى وملك غسان، ويعقب على ذلك بقوله :

هذى هى الدنيا فـلا يغررك ما

تراه فيهـــا من ســــرور وهنــا

وينتقل بعد نصحه بترك ملذات الحياة الى ذكر بعض النصائح والعظات ، وان كان فى بعضها ما لا يلائم روح الدين كظن السوء بالناس .. فيقول :

فظن بالاخـــوان شرا واخشـــــهم

وصــير الأحبـاب منهــم كالعدا

ولكنه يناقض نفسه فيقول :

وساير الناس على أخلاقهـــــم   وساعد المسعد ، واحمل من جفا

وصافهم وان أساءوا نيـــــة   فانما لكـــل مرء ما نـــــوى

ومن أجمل ما حث عليه طلب العلم الذى يرى فيه العلا والمجد للانسان : يقول في ذلك :

وما المعالى غير علم رائــــق   يصير المرء على أعلى السهـــــا

طوبى لمن برز فــى ميدانــــه   وابتدر الســبق لديه ، وجرى

ودان بالدين القويم والعــــلا   وازدان بالخلق الجميل والتقـى

ويدعو الى الرضا ، فى بيت رائع هو :

لله قــوم قمعــوا انفسهـم   عن الهوى اذ قرعوا باب الرضا

ويلوم نفسه على انشغالها باللذات ، وخوضها بحر المعاصي وهو يرى ألا أمل له فى النجاة الا بمدحه للرسول ·

وليس ذخرى غير مدح أحمد — سيد أهل الأرض طرا وكفى

فقد بشرت به التوراة ، والانجيل ، وتداعى صرح كسرى يوم مولده ، كما خمدت نيران الفرس ، وغارت بحيرة ساوة ، وقد نطق الذئب مصدقا له ، كما نطق الجمل ، والذراع والغزال ، وسبح الحصا فى كفه ، والجذع حن اليه اذ فارقه ، والسرحة قد سجدت له بالشام ، والأيكة أقبلت حين دعاها ، والشاة العجفاء درت حين مسح ضرعها ، والبدر قد انشق آية له ، والغمامات كانت تظله · ويذكر ما حدث له فى الغار هو وصديقه أبى بكر ·

وآية الاسراء والمعراج ، وأفاض فى ذكر قصة المعراج ، وحديث الغار ، من ذلك قوله :

وليلة المعراج أجلى آية — اذ سار من مكة ليلا وسرى
فاخترق السبع الطباق صاعدا — حتى انتهى منها لأعلى منتهى
وائتم سكان السموات به — من ملك ومن نبى مجتبى
سايره جبريل حتى اشرفا — معا على بحار نور وسنا
فقال جبريل تقدم راشدا — هذا مقامى فى السموات العلى
فاخترق الأنوار يمشى وحده — والحجب تنجاب له حيث انتهى

الى أن يقول :

وكان ذاك كله فى ليلة
لم يستلبها الصبح الواب الدجى

ومن معجزاته عليه السلام نزول المطر سبع ليال بدعائه ، واشباعه بالصاع الفا ، وارواؤه ألفا ونصف الألف بالقليل من

الماء ، كما أروى الجيش حين وضع كفه في الماء الضحل . ويذكر ما حدث لعين قتادة .. كما يذكر معجزة القرآن الخالدة .. ثم يذكر كرمه .. ويأخذ في سرد غزواته ممجدا للأبطال المغاوير من أصحابه .

فهم اذا جن الظلام سجد وفى النهار مضرمو نار الوغى

فيذكر من غزواته غزوة بدر ، وكيف قذيت عيون أعدائه حين رماهم بالحصا ، وغزوة الخندق وقتل بنى قريظة .

ومن ميزات المكودى اطالته فى نظم كل وقعة بل ومزجها ببعض البطولات التى هى من قبيل الأساطير ، كحمل على بن أبى طالب لباب حصن خيبر ، واستعماله كترس لحمايته .. فيقول :

وفى على اذ أراد بعثه لبعضهم معجزة لمن يرى
كان يعنيه أذى من رمد فتفل النبى فيها فبرى
وسار فى الحين البهم ناشرا رايته يجوب باجيش الفلا
قلع باب خيبر فما عصى راحته كأنه فيها عصا
أنابه عن ترسه فلم يزل بيده حتى جرى ما قد جرى

وحصاره لوادى القرن ثم فتح مكة ، واصفا كتيبة الرسول الخضراء ، وكيف اهتزت رحاب مكة فرحا وتهليلا بقدومه ، وكيف حطم الأصنام :

وعاد برق الشرك برقا خلبا من بعد ما أومض حنيا وخفى

ثم يذكر غزوة حنين وما حدث فيها :

فخرج النبى فى عساكر من كل صنديد كريم المنتمى
عساكر تتبعها عساكر كل له عزم اذا الخطب عرا

ويذكر الصراع والكر والفر ، وهزيمة المسلمين أولا ، ثم انتصارهم حين ثبت الرسول فى المعركة ٠٠ ثم يأخذ فى وصف قنوته وزهده :

هو الذى فاق النبيين معـــا في خلقـــه وخلقـــه منذ بدا
وكلهـــم من بحره مغـــترف معترف بأنـــه خير الـــورى

ويختمها بالدعاء طالبا من الله أن يأخذ بيده ، ويعفو عن خطاياه قابلا توبته ، طالبا الرحمة للنبى وآله :

وصل صلاة منك تتـــرى أبدا عليه ما هبت على الروض الصبا

فالمكودى فى مقصورته متأثر بحازم وبابن دريد وبسواهما ٠٠ وقد سلك نفس الطريق الذى سلكاه فتغزل ، وشكا ، وحن ووصف ومدح ٠٠٠ وقد سلك بهذه الأغراض طرقا جديدة ٠٠ فهو تغزل غزلا دينيا ، وحن لزيارة الأماكن المقدسة ، وشكا من ذنوبه وخطاياه ، ووصف معارك الرسول ومعجزاته الخالدة ، ومدح النبى وآله ٠ والمقصورة سهلة ، وان كان سلك سبيل حازم فى الاكثار من المحسنات : كما فى قوله :

نائى الزيازى ، والفـلا دانى الصفا
خالى الفيافى والذرى خافى الصوى

اذ نراه رصع ، وطابق بين نائى ودانى ، وجانس بين خالى وخافى والصوى والصفا ٠٠ ويكثر مثله من الترديد كما فى قوله : يقذف بى من فدفد لفدفد ، وينتهى بى من فلا الى فلا ، كما يأتى بأبيات يكرر فيها بعض الكلمات المتشـــابهة فى بعض الحروف صانعا من ذلك جناسا ٠٠ كقوله :

أهبنى اذ هب منه موهـــبنا ما سد ما بين الثريا والثرى

ويأخذ من حازم تصويره البارع لذعر النجوم حين داهمها الصبح فيقول :

حتى اذا انتضى الصباح نصله ... وقد جلباب الدياجى فانفرى
كأنه كتائب قد نشرت ... راياتها على الأكام والربا
أحست الشهب بها فأجفلت ... وأمت الغرب وجدت فى السرى

وقوله :

وكم سعدت اذ صعدت صهوة ... لمنزه ذى نزه لمن رنا

يشير الى قول حازم :

وكم سعدنا اذ صعدنا حولها ... من سرحة لصرحة ومستوى

ومن تعبيرات حازم التى تتردد عند المكودى « ربح الكبا » ، « روض راضه » « منازلا كانت بنا نواهلا » « وهويت فى قعر هوى » ، وتضمينه المثل الذى ضمنه قبله كل من ابن دريد وحازم وهو « بلغ السيل الربا » · ويمتاز باقتراب عمله هذا من الملاحم ، بل أرى أن صفات الملحمة قد تحققت كاملة فى هذا العمل ، لولا قصرها عن الملاحم المشهورة ، وبخاصة فيما ضمنه من أحداث شبيهة بالأساطير ، ومن تحريك للأحداث ، وتصوير ناطق للمعارك ·· وان كانت ينقصها ما فى مقصورة حازم من غنى ثقافى انفرد به حازم ، دون سواه ·

لقد امتد تأثير المقصورتين الدريدية والحازمية كما رأينا فى الأجيال التى جاءت بعدهما ، بل استمر ذلك حتى العصر الحديث ، فوجدنا رشيد رضا العالم الدينى ينظم مقصورة يقول « انه لا يحب أن يؤثر عنه من الشعر غيرها » ، مهنئا بها صنوه وزميله فى طلب العلم ومذاكرات الأدب ، الشيخ عبد القادر المغربى ، بزفافه ليلة

١٢ ربيع الثانى سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) ٠ وقد نشر أصل هذه المقصورة مع طائفة من الزيادات عليها فى الكتاب الذى ألفه الأمير شكيب أرسلان وسماه « السيد رشيد رضا أو اخاء أربعين سنة » ٠٠ وهو يبدؤها بالتأمل فى خلق الكون ، وكيف أن كل ما فيه يدل على قدرة الله وخلقه له ، مستدلا على أحكام هذا التدبير بأدلة علمية ممزوجة بأسلوب شعرى جميل ، كقوله :

والباسقات رفعت أكفهـــــا تستنزل الغيث وتطلب الندى
تمتلج الكربون من ضرع الهوا اذ آثرتنا بالآزوت المنتقـــى

والذى نقصده هو البيت الأول من البيتين السابقين ، أما الثانى فهو ليس من الشعر فى شىء ٠٠ ويتحدث عن الكتب وفوائدها الجمة ، كما يأخذ فى الحديث عن صديقه وزفافه ، وينهيها ببعض الحكم ٠ ولقد حققها الدكتور أحمد الشرباصى مع مقدمة قصيرة عن فن المقصورات ، ومقتطفات يسيرة من المقصورات التى سبقتها ٠

الباب الرابع

مكانة حازم وآراء الأدباء والنقاد
فى أدبه وشعره

لقد كانت لحازم القرطاجنى مكانته التى تحققت له بفضل شعره ، وعلمه – فى موطنه بمرسية ، وفى مهاجره بمراكش فى عهد الرشيد الموحدى أو مهاجره فى تونس حيث قضى بقية حياته . ففى مراكش يلتقى بالأدباء ، ويحضر مجالسهم الأدبية . ويشارك فى مناقشاتهم ، وارتجالاتهم الشعرية ، فقد نقل لنا ابن رشيد أن حازما شارك الشعراء فى تذييل بيتى الجوزى اللذين قالهما ارتجالا معتذرا عن الاكتحال فى يوم عاشوراء ، وقد نقد عليه الشيعة ذلك فقال :

ولائم لام فى اكتحـــــــال ... يوم استحلوا دم الحسين
فقلت دعنى أحــق عضــو ... يحظى بلبس السواد عينى

فذيلهما حازم بمقطوعة من خمسة أبيات وقصيدة من تسعة وعشرين بيتا . وفى تونس حظى بتقريب الخليفتين الحفصيين : أبى زكريا يحيى ، وابنه أبى عبد الله المستنصر فأسكناه فى بيت الأدباء ، وجعلا له راتبا ، وأسندا اليه النظر فى الكتب الأدبية ، والبحوث العلمية التى ترفع اليهما ليقرر صلاحها . وقد كان الى جانب أمانته العلمية ، محبا للأدباء ، والشعراء ، فقد نصح اللبلى

ليدخل بعض الاصلاحات على مؤلفه الذى قدمه للخليفة المستنصر . فأحاله المستنصر الى حازم ليرى فيه رأيه · أما آراء الأدباء والعلماء القدامى فى حازم وأدبه ، فهى آراء ـ كعادتهم فى ذلك ـ عامة ·· وسنحاول أن نعرض ما وصلنا منها فى هذا الجزء من البحث ·

لقد نبغ حازم كما قلنا فى أكثر من فن ، فقد تقدم فى الشعر ، والنحو ، والعروض والبلاغة ·· لذلك نجد نظرات العلماء والأدباء اليه مختلفة ، فالنحاة يثنون عليه ، ويخصون بالثناء منظومته النحوية ، والبلاغيون يثنون على كتابه « منهاج البلغاء » الذى ألفه فى هذا الفن ، وأصحاب الموسوعات الأدبية يخصون بالاطراء شعره ، وبخاصة ملحمته الشعرية · أما الأدباء المحدثون فقد لفتهم اليه كتابه « منهاج البلغاء » وما فيه من دراية واسعة بكتاب الشعر لأرسطو ، ومحاولة حازم تطبيق بعض المقاييس التى أصلها مؤلفه أرسطو على الشعر العربى ، وادخالها فى نسيج البلاغة العربية ·

حازم فى مرآة الأدباء والنقاد القدامى :

ولنبدأ بذكر معاصره الأديب صاحب « المغرب فى حلى المغرب » وغيره من الكتب ـ أبى الحسن على بن موسى بن سعيد الذى استظل معه بظل الدولة الحفصية ، وشاركه فى مدح الخليفة أبى عبد الله المستنصر ·· والذى التقى بحازم فى تونس ، وقرأ له ، ونقل جزءا يسيرا من أشعاره · والذى أرجحه أن حازما لم يكن أنجز ملحمته العظيمة المقصورة حين التقى بابن سعيد ، والا فان صداها العظيم كان قد دفع ابن سعيد الى الكتابة عنها أو تسجيل أجزاء منها ، على كل فقد ذكر ابن سعيد حازما ، وأثنى عليه ، فمما قاله عنه انه « شاعر مجيد ، وحسيب مجيد ، بيته فى قرطاجنة من عمل مرسية مشهور ·· » ، كما مدح شعره فوصفه بأنه « يطوى الأقطار ،

وذكره منشور ٠٠ ، وهو فى نظمه طويل النفس ، منير القبس ، مقتدر على حوك الكلام ٠٠ ، مديد الباع فى ميدان النظام ، لا يخلو من الألفاظ المبتدعة ، والمعانى المولدة المخترعة ٠٠ » ، فابن سعيد قد استلفته طول نفس حازم فى نظم قصائده ، اذ ان قصائده تتسم بالطول ٠٠ كما لمسنا ذلك من خلال عرضنا لقصائده ٠٠٠ ولأن حازما يسير على نهج القدامى فى الغالب ـ فى نظم قصائده ٠٠ وجدنا ابن سعيد يحترس فى الحديث عن معانيه المبتدعة فيقول « لا يخلو من الألفاظ المبتدعة ، والمعانى المخترعة ٠٠ » ، ثم يشير الى شهرته ، وشهرة قصائده مرة ثانية ٠٠ سواء كان فى حضرة الرشيد بمراكش ، أو فى ظل الدولة الحفصية بتونس ، فيقول ابن سعيد فى صدد ذلك : « رحل الى المغرب (أى مراكش غالبا) فاشتهرت له به قصائد لم يخل نظمها من فرائد ، ثم قصد هذه الحضرة العلية ، فى الدولة الأميرية ، فكانت له بها أمداح كطاوع أنوار الصباح ، وهو الآن تحت احسان المقام المستنصر خلد الله دولته ، وأبقى على الكل بركته ٠٠ » ٠

ويقول ابن سعيد ان حازما كان يحضر المجالس السلطانية ، ومعه ما يجذب الحاضرين ، وجلهم من الأدباء والعلماء ـ الى المذاكرة من النظيم والنثير ، ثم يقول : وهو ممن استفدت من آدابه ، وأنشدنى شعره ، فقيدت فى هذا الباب ما اخترت من لبابه ، فمن ذلك قصيدة أميرية يذكر فيها بيعة أهل اشبيلية :

مدت اليك يد المطيع ، وبايعت منك الامام المرتضى المتخيرا

وبعد أن يذكر بيتا آخر من القصيدة التى ينيف عدد أبياتها على الستين بيتا ، يقول :

وقوله الذى بان فيه مقدار فكره ، وللقائل أن يقول انه أمين شعره ، وهو من قصيدة فى وصف سحابة :

عن كل بكر حـــرة ما فارقـــت
اطرافهـــا ، وبكاءهـــا وحيـــاءها

يبدو احمرار البرق فى صفحاتهـا
خجلا اذا رفع النسيم ٠٠ رداءهـــا

والبيتان اللذان ذكرهما ابن سعيد ، هما من قصيدة عدد أبياتها ثمانية وتسعون بيتا فى مدح الخليفة أبى عبد الله محمد المستنصر ، والقصيدة رائعة ، فلم اكتفى ابن سعيد بالبيتين ؟ فى رأيى أن شعراء عصر حازم ٠٠ بل ربما شعراء الأندلس بعامة فى عصور الأدب المزدهرة لم يكونوا يأبهون كثيرا بشعر المديح الذى يرون فيه ــ فيما أظن ــ وسيلة للاكتساب والارتزاق ٠٠ أما الشعر الحقيقى ، فهو ما جاء فى وصف الطبيعة ، أو ما جاء بحسب التعبير العصرى ــ معبرا عن تجارب الشاعر الذاتية فى الحياة ٠٠ لا مما تفرضه عليه الظروف فرضا ٠٠ بدليل أن ابن سعيد يختار لحازم بعد ذلك مقطوعة فى وصف اللحظات التى يخرج فيها الصباح من رحم الليل ، حيث يتلفع الجو بغلالة من الندى الرقيق ٠٠ ويرش النسيم على الكون ما فى قوارير الأزهار من عبير ٠٠ وأول الأبيات :

فتق النسيم لطائم الظلمـــاء عن مسكة قطـــرت مع الأنداء

ثم يسوق له ثلاثة أبيات فى وصف وردة ، وأولها « ومبيضة الأثواب تدعى بوردة ٠٠ » ويذكر له بيتا هو :

سلطان حسن عليه الصبا علم اذا رأته جيوش الصبر تنهزم

ويذكر ابن سعيد أن حازما قد قال سبعة أبيات ارتجالا ، وهى القصيدة التى يصف فيها هبوط احدى قصائده عليه من عالم الفكر ، فاستقبلها باهتمام ، ومن أبياتها :

ملات من أبــدع الحكـــم   دلو آمالـى الــى الــوذم
بنت فكر قمت اذ قدمـــت   لتلقيهــــا على ٠٠ قــدم

كما نقل من شعر حازم أربعة أبيات يفخر فيها بقصيدة له ، وأولها :

بنت فكر ، لا نظـير لهــا   صـــاغها من لا نظـير لــه

هذا كل ما ذكره له ابن سعيد من شعره ، وهو مما يدور فى فلك الشعر الذاتى ٠٠ متجاهلا ابن سعيد مدائح حازم الطويلة ٠٠ التى فاق فيها كل مدائح معاصريه ، وابن سعيد واحد منهم ٠٠ فهل يكون الحسد أحد عوامل هذا الاهمال لتلك المدائح التى عن طريقها اشتهر حازم ، وعاش فى ظل الحفصيين فى أمن ورخاء ٠٠ ربما ؟

ومن الذين أشـــادوا بحازم تلاميذه الذين تلقوا على يديه العلم ، ورددوا بعض شعره ٠٠ أو نقلوا عمن نقل عنه ، من هؤلاء أبو حيان الذى اعترف بتأثره بحازم ٠٠ فقال :

« وممن كتبت عنه من مشاهير الأدباء أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن المالقى ، وأبو الحسن حازم بن محمد حازم الأنصارى القرطاجنى ٠٠ » ، ويعترف بذلك فى رسالته التى رد بها على الصفدى الذى طلب منـــه أن يكتب له بما رواه من المســـانيد والمصنفات ، ومن روى عنهم ٠٠ كما يعترف بذلك فى صدر تفسيره الكبير المسمى بالبحر المحيط ٠ والذى يهمنا هنا هو اطراؤه لأستاذه حازم اذ قال عنه : « كان أوحد زمانه فى النظم والنثر ، والنحو ، واللغــة ، والعروض وعلم البيـــان ، روى عن جمـــاعة يقـــاربون الألف ٠٠ » ٠ وشهادة أبى حيان تعكس اعجابه ، وتقديره لحازم ، اذ يصفه بأنه أوحد زمانه فى أكثر من علم ٠٠ ويروى عنه قصيدته

النحوية ، وغيرها ، قال السبكى : أفادنا شيخنا أبو حيان أن أبا الحسن بن أبى عبد الله بن حازم كان نحويا أديبا بارعا ، شاعرا مفلقا امتدح بعض خلفاء الغرب الذين ملكوا مدينة تونس بقصيدة طنانة ضمنها علوم النحو » . ويذكر السبكى أبياتا منها ، فأبو حيان فيما نقل عنه السبكى يصفه بالبراعة ، وبأنه شاعر مفلق ، وقصيدته طنانة .. مما يدل على مدى ما يكنه لحازم من اكبار واجلال .

ومن الذين أثنوا على حازم تلميذه ابن رشيد الذى نرجح التقاءه بحازم وتتلمذه عليه .. فقد روى عنه قصيدته النحوية على ما ذكره الدمامينى فى حاشيته .. ، وتأثره بأستاذه واضح ، فمن مؤلفاته الاضاءات والاشارات ، والمعنونة بالاضاءة والانارة من صنيع حازم ، اذ نجده يجعلها عنوانات لفصول كتابه أو لفقرات من فصول كتابه « منهاج البلغاء » .. كما ألف كتابا أسماه « شرح التجنيس لحازم » ، وكتابا أسماه « وصل القوادم بالخوافى فى ذكر أمثلة القوافى » ، شرح فيه كتاب القوافى لشيخه أبى الحسن حازم . ويهمنا ما ذكره عن أستاذه حازم اذ انه أثنى عليه بقوله : « حبر البلغاء وبحر الأدباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائعة ، ولا نعلم أحدا ممن لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقد علم البيان ما أحكم من منقول ومبتدع . أما البلاغة فهو بحرها العذب ، والمتفرد بحمل رايتها أميرا فى الشرق والغرب . وأما حفظ لغات العرب وأشعارها ، وأخبارها ، فهو حماد رواتها ، وحمال أوقارها ، يجمع الى ذلك جودة التصنيف وبراعة الخط ، ويضرب بسهم وافر فى العقليات ، والدراية أغلب عليه من الرواية .. » .

ان ثناء ابن رشيد على حازم هذا الثناء العاطر لا يدع فى

نفوسنا شكا فى أنه تتلمذ على حازم ، والتقى به ، ومن هذا الثناء نستخلص ما يأتى :

١ ـ أنه صاحب اختيارات واختراعات ·

٢ ـ وأنه أحاط بالكثير من فروع علوم اللسان العربى ·· من منقول ومبتدع ·

٣ – تفرد حازم فى علم البلاغة جعله علما عليها فى وقته فى الشرق والغرب العربيين ·

٤ ـ حفظه لكثير من اشعار العرب ، وأخبارها ، ولغاتها ·

٥ ـ حسن خطه ، وجودة تصنيفه ·

٦ ـ تفوقه فى العقليات من علوم الفلسفة ، والحكمة وما يدور فى فلكهما ·

٧ ـ غلبة التفكير العقلى والاستنباط ، على الحفظ والرواية لدى حازم ·

وممن أعجبوا بحازم وأثنوا عليه « العبدرى » الذى قال فى صدد الحديث عنه « حازم وما أدراك ما حازم ·· » ، وحين عرض لذكر الساقية التى جلب منها المستنصر الماء الى حدائقه وبساتينه بزغوان ، تذكر ما قاله حازم فيها ، فقال : ولله در خاتمة الحكماء ، وبليغ العلماء ، وأديب الرؤساء ، ورئيس الأدباء ، وتاج البلغاء ، وامام الفصحاء أبو الحسن حازم الأنصارى الأندلسى ، فى مقصورته التى مدح بها أبا عبد الله المستنصر أمير تونس » ، ويذكر الأبيات التى تعبر عن ذلك · ان اطراء العبدرى لحازم اطراء المعجب اعجابا يعجز معه عن أن يجد ما يخلعه عليه من الصفات ، فيلجأ الى

الأوصاف العامة التى تجعله رئيسا ، وأستاذا للعلماء ، والأدباء ، والبلغاء والفصحاء .

أما ابن « القويع » المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٨ هـ ، والمولود بتونس سنة ٦٦٤ هـ ، والذى نبغ فى الفقه والأصول والحديث ، والأدب ، واللغة ، والعروض ، والطب والحكمة ، والخط ، والذى قيل عنه انه كان يدمن قراءة الشفاء لابن سينا ، فانه أولع بكتاب « منهاج البلغاء لحازم » الى درجة أنه كان كلما قرأ شعرا وجد فيه أمثلة لما قاله حازم فى كتابه ، قال ابن القويع فى التعبير عن ذلك : « ولما وقفت على قوانينه (قوانين كتاب منهاج البلغاء) ووعيتها ، وان كان ترك التمثيل لها ، صار كل ما أقرؤه ، وأنظر فيه من كلام بليغ ، أو بديع ، يصير كله لى أمثلة لتلك القوانين » .

ومن الذين أعجبوا بحازم وبشعره ، واعتدوا برأيه ، واعتزوا به تلميذه « أبو الفضل التجانى » .. فهو يعتز باعجاب حازم بلاميته ــ كما أشرنا الى ذلك فى فصل سابق . ويصف صادية حازم بأنها فريدة ، ويرثيه بعد موته واحتذى أستاذه فى جيميته وبعض قصائده ، كما أن أحد أقربائه وهو أبو محمد عبد الله التجانى شرح مقصورة حازم ، وأسمى شرحه الذى لم يصل الينا « أداء اللازم فى شرح مقصورة حازم .. » .

ومن الذين أقروا لحازم بالتقدم فى فن الشعر « أبو بكر بن حبيش » معاصره .. والذى وصفه تلميذه ابن رشيد فى رحلته بقوله : « أما النظم فبيده عنانه ، وأما النثر فانه مال اليه وتوكف له بنانه ، مع تواضع زائد .. » ، كما كان ضليعا فى الرواية وذكر الشواهد كما يتضح من مناقشته لأبى زكريا يحيى حول استعمال ابن حبيش « لماذا » للدلالة على التكثير لا على الاستفهام . وله شعر لا يرقى الى مستوى شعر حازم رغم ادعائه ذلك ، كما

يتضح من عبارته التى سنوردها فيما بعد .. يقول فى قصيدة غزلية له :

أكل ذا الاجمال فى ذا الجمال ... الله أستحفظ ذاك الكمـــال
يا مالكا بالبر رقى .. امــا ... يكفيــك أن تملكنى بالوصال
سرت الى ربعى زورا .. كما ... سرى الى المهجور طيف الخيال
العيد لى وحدى بين الــورى ... حقا لأنى قد رأيت الهــلال
صــومى مقبول ، وبرهانـــه ... انى ادخلت جنــان الوصــال

ان أسلوبه فى الشعر أقرب الى أسلوب العلماء منه الى أساليب الشعراء ، فمن تعبيراته غير الشعرية قوله : الاجمال ، استحفظ ، زورا ، أى زائرا ، حقا ، صومى مقبول وبرهانه ، ادخلت ـ مما يوحى بانه أرغم على دخول جنة الوصال .. ، يقول ابن حبيش عن نفسه ، وعن حازم ، فيما نقله أحد تلاميذه لأبى الفضل محمد التجانى : « شيخنا أبو بكر يبلغك سلامه ، ويقول لك كان ابو الحسن (حازم) حامل راية الأندلسيين وكنت فى حياته حامل راية الافريقيين ، فلما توفى حملت الرايتين ، وفزت بمزية التفنن على الطريقتين .. » شتان ما بين شعر حازم الذى يتسنم ذروة الفن ، وشعر ابن حبيش الذى دلت عليه أبياته الهابطة .. وما أظن ابن حبيش بحامل راية أحد ، لأنه لو كان كذلك لما احتاج الى أن يعلن عن نفسه أمام التجانى تلميذ حازم المعجب به وبشعره .. وكأنه برسالته الشفوية هذه مع تلميذه، يلوم التجانى على تعصبه لحازم . ومن الغريب أن أبا بكر هذا كان الناس يتعجبون من تواضعه ، فلا يفتخر بشعره كما يفتخر حازم ، فمما نقله ابن رشيد قوله : « حكى بعض أصحابنا أنه أى أبا بكر بن حبيش ـ كان هو وشيخنا أبو الحسن حازم رحمه الله فى هذا المعنى (التواضــع والفخر) ضدين ، اذ كان أبو الحسن رحمه الله يفخم كلام نفسه ،

ويمدحه ، ويظهر ما فيه من المحاسن ، وأنه شاهد اجتماعهما يوما في مجلس واحد ، وكان الشيخ أبو الحسن يعلي محاسن كلامه جريا على عادته ، والفقيه أبو بكر يخفي محاسن كلامه ، حتى عجب الحاضرون من أمرهما .. » . ان ما يفعله كل منهما نابع من شعوره بقيمة فنه ، فحازم يفتخر ويتباهى ، لشعوره بروعة ما يقول ، وابن حبيش يتقازم ، وينكمش لشعوره برداءة ما ينظم . وأنه لا يرقى الى مستوى ما يقوله الشعراء .. وليس ما يفعله ابن حبيش نابعا من تواضع العلماء ، بدليل أنه لما خلا له الجو بموت حازم تملكه الغرور ، وزعم أنه حامل الرايتين في الشعر .. راية الأندلسيين بموت حازم ، وراية الافريقيين من قبل موته ومن بعده .

ومن الذين عرفوا بحازم ، ولكن في ايجاز « صلاح الدين بن أيبك الصفدى » المتوفى سنة ٦٩٦ هـ ، فذكر اسمه ، ووصفه بأنه شيخ البلاغة والأدب .. وانفرد بما ذكره من أن حازما يلقب « بهنيء الدين » .. هذا اللقب الذى نقله عنه السيوطى في بغية الوعاة .. وذكر الصفدى أن من مؤلفاته كتابا « أسماه سراج البلغاء » ، وكتابا في القوافي ، وله ارجوزة في النحو ، وأورد له أبياتا من قصيدة ، هى التى يبدؤها :

أيعلم ما يلقى من الشوق لائمه اذا ما شجته من حبيب معالمه

ونطالع في صدر شرح المقصورة للشيخ أبى القاسم محمد بن أحمد الغرناطى الحسني ـ المسمى « برفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة .. » اطراءات لحازم ومقصورته .. فممن نقل عنهم الغرناطى شيخه الامام أبو القاسم بن عبد الله بن الشاط الأنصارى الذى كان يردد في مجلسه العلمى غير مرة « وصل الى بلدنا جزء من كلام أبى الحسن حازم يحتوى على مقصورته الألفية ، وجملة من قصائده ، فدعانى الاعجاب بكلامه أن أوقفت عليه شيخ الجماعة أبا

الحكم مالك بن المرحل رحمه الله ، فتأمل ذلك ، ثم قال : لا أقول ان هذا شعر ، ولكنى أقول هو ديوان علم ·· » · ولا يفهم من ذلك أن مقصورته أشبه بالمنظومات العلمية منها بالملاحم الشعرية ، وانما يعنى ابن المرحل بقوله انها تحتوى من الاشـــارات التاريخية ، والعلمية ، والأمكنة والبقاع الأندلسية ·· وما تسجله من حياة اجتماعية ، وصراع بين العرب وأعدائهم ·· ما يؤلف فيه الكتب الأدبية والعلمية ·· وينقل الغرناطى عن بعض الشيوخ ممن التقوا بأبى عبد الله بن خميس التلمسانى « وهو ما هو فى البلاغة ، والعلم بالشعر » ، أنه كثيرا ما كان يفتخر بلقاء حازم فيقول : « لقيت حازما ، وما أدراك ما حازم » يردد ذلك فى أكثر أوقاته · والقاضى الغرناطى الذى نقل لنا اعجاب العلماء بمقصورة حازم ، وشعره ، لا يخفى اعجابه ، فهو يقول : « لما تأملت مقصورة الامام الأوحد أبى الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم الأنصارى القرطاجنى ألفيتها تجمع ضروبا من الاحسان وتشتمل على أفانين من البيان ، وتتضمن فوائد جمة من علم اللسان ، وتشهد لمنشئها بما انتظمته من غرائب الأنواع ، واتسمت من عجائب الابداع ·· » ، ويمكن تلخيص مواطن اعجابه فيما يأتى :

١ ـ ريادته وسبقه الى معارضة مقصورة ابن دريد ·

٢ ـ احتواؤها على الكثير من وصف المعاهد ، وضرب الأمثال الشوارد ، والوقائع والمشاهد ، والمعارف المختلفة ·

٣ ـ كثرة ما اشتملت عليه من أساليب بيانية ، وفنون من البديع ·

وينهى حديثه عن المقصورة ، وما فيها من محاسن بأنه قد قرر أن يضع عليها كتابا يضمنه شرح غريبها ، والكلام على بدائع أسلوبها

« منبها على ما اخترع من أنواع الأغراض ، وضروبها ٠٠ » متحدثا عن أيام الأوائل ، وحروبها ٠٠ ذاكرا قصائد الشعراء التى مر لها ذكر فى المقصورة مع ذكر الأحداث التى تدور حولها ٠

ومن الذين ذكروا حازما ، ونقلوا عنه العلامة « جلال الدين السيوطى » المتوفى سنة ٩١١ هـ / ١٥١٥ م — الذى استشهد فى كتابه المزهر بنصوص من منهاج البلغاء لحازم ، كما استشهد بنصين : أحدهما فى كتابه الاقتراح ، والآخر فى الاتقان » ٠ وقد نقل عنه المقرى ما نقله عن كل من ابن رشيد والعبدرى فى اطراء حازم ، ووصف السيوطى حازما بأنه شيخ البلاغة والأدب ، وذكر أسماء مؤلفاته ٠٠ وذكر سنة مولده ، وسنة وفاته ٠٠ ونص على أنه قد تحدث عن حازم فى كتابه « الطبقات الكبرى » الذى لم يصل الينا ، كما لم يصل الى المقرى أيضا ، اذ قال بعد أن انتهى من سرد ما ذكره السيوطى : « ولنورد نحن ما امكننا حيث لم يوف السيوطى بحقه فى الطبقات الصغرى لأنها مبنية على الاختصار ، ولم نقف على الطبقات الكبرى التى أحال عليها » ٠ لكن مما لم يذكره المقرى أن السيوطى قال فى التعريف بحازم : « القرطبى النحوى ٠٠ أبو الحسن هنىء الدين شيخ البلاغة والأدب » ٠٠ فتلقيبه بهنىء الدين لم يذكره سواه وسوى الصفدى من قبله ، والمظنون أن السيوطى قد نقله عنه ، أما القرطبى ٠٠ فالذى أرجحه أنه تحريف من الناسخ فكتب القرطبى بدلا من القرطاجنى ، والكلمتان متشابهتان فى أكثر حروفهما ٠

وممن ترجموا لحازم فى ايجاز « ابن القاضى » المتوفى سنة ٩٦٠ هـ / ١٥٥٣ م ، ناقلا ما سبق أن ذكره غيره من ذكر لحازم وأنه صاحب المقصورة ، وأن ابن رشيد قد تتلمذ على يديه ، ويشير الى عدد أساتذته الذين يقربون من الألف ، ويذكر أنه أجاد فى

قصيدته المقلوبة من قصيدة امرىء القيس فى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وينفرد بذكر اجازة « وجيه الدين منصور ابن العمادية » جوابا عن استدعائه الاجازة منه ، ويورد الأبيات الستة التى سبق ذكرها فى فصل سابق ، وعلى ما ذكره فى هذا الصدد اعتمد المقرى فيما أظن ، اذ لم يرد ذكر هذه الاجازة عند أحد قبله ٠

ويذكر أسماء كتب منها : الدرة المضيئة فى تاريخ الاسكندرية ، وهو فى مجلدات ، والبسيط فى الجمع بين الوجيز والوسيط ، والمستفاد من شيوخ بغداد ـ ومن المؤكد أن هذه الكتب لابن العمادية وليس لحازم منها شىء ٠٠ ولكن الناسخ أو الطابع جعلها عقب الحديث عن اجازته لحازم فأشكل الأمر ، وكان من المفروض أن يذكرها فى الفصل الذى عقده لابن العمادية ان كان قد عقد له فصلا خاصا به ٠

أما شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى ـ فقد ترجم له فى نفح الطيب وفى أزهار الرياض ٠٠ وهو فى نفح الطيب لا يذكر سوى قصيدته التى ضمن فيها أعجاز قصيدة امرىء القيس ٠٠ التى ذكرته بها قصيدة لأبى بكر بن جزى ، صنع فيها مثل هذا الصنيع مع قصيدة أخرى لامرىء القيس ، وأول قصيدة ابن جزى :

اقول لعزمى ، او لصالح اعمالى — ألا عم صباحا ايها الطلل البالى

ويذكر جيمية حازم ، مقدما لها بقوله « ومن بارع ما وقع له قوله ٠٠ » :

ادر المدامة ، فالنسيم مـؤرج — والروض مرقوم البرود مدبـج

وقوله « من بارع ما وقع له ٠٠ » ٠ يدل على اعجاب المقرى بهذه الجيمية ، التى يورد عنها ثناء من العلماء فيما يكتبه عنها فى أزهار الرياض ٠ أما فى أزهار الرياض فترجم له ترجمة واسعة اذ

نقل كل ما ذكره السيوطى وما ألمعنا اليه فيما مضى ، ويضيف الى الترجمة اضافات قيمة ، اذ يذكر أن قرطاجنة التى ينتسب اليها حازم من سواحل كورة تدمير من شرقى الأندلس ، ويصفه بما يدل على الاعجاب « فهو خاتمة شعراء الأندلس الفحول » مع « تقدمه فى معرفة لسان العرب وأخبارها ٠٠ » ، ثم يذكر هجرته الى افريقيا وانتشار صيته هناك ، وأن له أمداحا فى الرشيد كثيرة ، ومدح أبا زكريا وولده أبا عبد الله المستنصر ، وله ألف المقصورة ، ويذكر مطلعها ، كما يذكر تضمينه هو للمطلع باكتفاء وتورية ، كما يقول : وبيتاه هما :

لم أنس يوما للنـــوى عـبرته فى نهر فاس شجن هاج الجوى
فقلـــت اذ ذكرنى معاهـــدا «لله ما قد هجت يا يوم النوى»

وهو يطرى مقصورة حازم ، ومقدمتها : « مقصورته تدل على اطلاعه ، وصدرها بخطبة بليغة جدا ٠٠ ثم يثنى أيضا على جيمية حازم واصفا لها « بأنها غريبة المنزع ، لها صيت عظيم عند الحذاق من أهل الأدب ، والنحارير من الفضلاء ، عارض بها فى المعنى رائية ابن عمار الوزير للمعتمد بن عباد » ، ويذكر أن غير واحد ، قد فضل هذه الجيمية الحازمية على تلك الرائية العمارية ، ويذكر عددا من قصائد حازم ٠ ونلمس فى شهاب الدين المقرى أمانة العلماء واضحة ، وتوخيهم الصدق ، اذ أنه بعد أن ينسب قصيدة ابن جزى السابقة لحازم ، يعود فينسبها لابن جزى ، معترفا بأنه أخطأ فى المرة الأولى حين نسبها لحازم ، ولننقل عبارته كما ذكرها ، قال بعد أن أورد القصيدة كلها : « قلت : هكذا وجدت بخط أعلام مراكش نسبة هـــذه القصيدة لأبى الحسن حازم المذكور ، واعتمدت على هـــذه النسبة ، ثم بان لى خطؤها ، وانما هذه القصيدة من نظم الفقيه العلامة أبى بكر بن جزى الكلبى الغرناطى حسبما نص على ذلك

غير واحد ·· » ، ثم يعود الى ذكر حازم مرة ثانية ليقول عنه وعن ابن الأبار : « كان أبو الحسن حازم والكاتب الفقيه المحدث أبو عبد الله بن الأبار فرسى رهان فى ميدان الآداب ، وقد جمعهما الزمان ، وتعلقهما من الدولة الحفصية بأهداب ·· » ·

وقد ذكر فى موضع آخر من « النفح » رسالته فى الرد على المقرب لابن عصفور ، كما ذكر عددا من تلاميذه كأبى حيان وابن رشيد ، وتقدير العلماء والحكام له ·

أما بهاء الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧٣ هـ فقد نقل عن كتاب حازم « منهاج البلغاء » فى أكثر من أحد عشر موضعا ـ ذيل بها الدكتور الحبيب بن خوجة « كتاب منهاج البلغاء » ـ مما يدل على اعجاب السبكى بهذا الكتاب القيم ·· كما نقل عن أستاذه أبى حيان قوله ·· ان أبا الحسن حازما ·· كان نحويا أديبا بارعا شاعرا مفلقا » · ثم يذكر أجزاء من قصيدته النحوية ·

هذه آراء بعض النقاد ومؤرخى الأدب فى حازم · وهى آراء تتسم بالعموم والشمول ، شأن الدراسات الأدبية فى تلك الأعصر الذاهبة ـ استخلصناها من كلامهم ، وهى تجمع على تقديم حازم فى مجالى الشعر والبلاغة · وسنعرض آراء بعض النحاة ·· وهى آراء سريعة ، وعامة فى الغالب ، اذ كان هم النحاة التوقف عند ذكر قصيدته النحوية ·· التى شدتهم اليها ·· لأن حازما استطاع فيها أن يمزج الموضوعية العلمية بالنظرة الذاتية ـ معبرا فى أجزاء منها تعبيرا أدبيا فيه احساس الفنان ، وذوقه ، وبخاصة فى الجزء الأول الذى يمدح فيه الخليفة المستنصر ، من ذلك قوله :

خليفة خلفت أنـــوار غرتـــــه

شمس الضحا ، ونداه يخلف الديما

سالت فواضـــله للمعتفى نعمـــا
صـــــالت نواصله بالمعتدى نقمـــا

ادام قــول نعم حتى اذا اطـــــردت
نعماه من غــير وعد لم يقل نعمـــا

يأيهــا الملك المنصـــور ملكك قـــد
شب الزمــان به من بعد ما هرمــا

فلو راى من مضى أدنى مكارمكـــم
لم يذكروا بالندى «معنا» ، ولا «هرما»

ويثنى فيها على تونس التى « تؤنس الأبصار رؤيتها ٠٠ » ، واقبال الناس اليها كاقبالهم الى الكعبة بفضل دعوات ابراهيم عليه السلام :

فاقبـــلت نحـــوها للنـاس افئـــــدة
ترتاد غيثا من الاحســـــــان منسجمـــا

وأبدل اهل الأندلس بها جنة من جنة خرجوا
منهـــا ، وقد بوئوا من ظلهـــا حرمـــا

وأشبهـــوا سبا اذ جاءهم عـــــــرم
من العـــدا لم يدع ســــدا ولا عرمـــا

ومن أبياته التى يمزج فيها قواعد علم النحو الجافة ، ببعض التعبيرات الشعرية قوله :

فان ان لها أخت مذ ارتضعـــا ثدى التشبه بالأفعـــال ما فطما

والأمثلة التى يسوقها أدبية جميلة ، ليس منها « ضرب زيد عمرا » كقوله :

فباب أعطى ، كســا منه ، ومنه سقى
كما تقول : سقاك الله صوب ســما

وقوله :

كما تقول لمـن تهــوى النعيم له
اناالك النعم الوهـــاب والنعمــا

وقوله :

كمثل كان واضحى ثم اصــبح او
أمسى كقولك : اضحى الزهر مبتسما

أو قوله : فى الأسماء الخمسة :

تقول عمرو ابوه او أخوه آتــى ... فافتر فوه من السراء وابتسما
وخولة هام ذو مال بها وصــبا ... وجدا ففار حموها منه واحتشما

وينظم المسألة الزنبورية فى أبيات يسجل فيها واقعة ما حدث بين سيبويه وابن حمزة الكسائى ، وابن زياد العربى الذى استعان به الكسائى . وكيف غاظ ذلك سيبويه حتى مات مكظوما .. مازجا ذلك بتعاطفه النفسى مع سيبويه الذى يرى أن الكسائى ومن معه قد جاروا عليه جور سدوم ، وملمحا الى ما حدث بين عمرو بن العاص وعلى بن أبى طالب .. منطلقا الى ذلك من اتفاق أسمى عمرو بن العاص وعمرو بشر سيبويه واتفاق اسم على بن حمزة الكسائى مع اسم على بن أبى طالب .. ولنذكر هذه الصورة الشعرية .. لأنها بما منحته من جمال ، قد جذبت اليها ابن هشام النحوى ، فذكرها فى « مغنى اللبيب » ، ثم تبعه كل من جاء بعده ممن تعرضوا بالشرح أو التعليق على كتابه السالف الذكر ، **وأبيات حازم هى :**

فان توالى ضميران اكتسى بهمـــا
وجه الحقيقية من اشكالـــه غممـــا

لذاك أعيت على الأفهـــام مسألـــة
أهدت الى سيبويه الحتف ، والغيمـا

قد كانت العقرب العوجاء أحسبهـا
قدما أشد من الزنبور وقـــع حمـى

وفى الجواب عليها ، هل اذا هو هى
او هل اذا هو اياها قـد اختصمـا

وخطا ابن زياد ، وابن حمزة فـى
ما قال فيها ابا بشر ، وقد ظلمـــا

وغاظ عمـرا على فى حكومتـــــــه
ياليته لم يكن فى امره حكما

كغيظ عمرو عليـــا ـ فى حـكومته
ياليته لم يكـن فى امره حكمـــا

وفجع ابن زياد كل منتحـــــب
من أهله اذ غدا منه يفيض دمـــا

كفجعة ابن زياد كل منتحـــــب
من اهله اذ غدا منه يفيض دمـــا

فظل بالكرب مكظوما ، وقـد كربت
بالنفس انفاسه أن تبلغ الكظمـــا

قضـت عليـه بغير الحق طائفـة
حتى قضى هدرا ما بينهم هدمـــا

من كل اجور حكما من سدوم قضى
عمرو بن عثمان مما قد قضى سدما

ويختمها بحكمتين يلمسان وترا حساسا فى نفس حازم ، وفى نفس كل عالم أو أديب يتعرض لخسة الحاسدين ، فيقول :

حسادة فى الورى عمت ، فكلهـــم
تلفيه منتقدا للقـــول ، منتقمـــا

فما النهى ذممـــا فيهم معارفهـــا
ولا المعارف فى أهل النهى ذممـــا

واصبحت بعده الأنفـاس باكيـــة
فى كل طرس كدمع سح وانسجما

وليس يخلو امرؤ من حاسد أضم
لولا التنافس فى الدنيـا لما اضـــما

وذروة الألم عند حازم ، يلخصها فى هذه الحكمة الشاجية :

والغبن فى العلم اشجى محنة علمت
وابرح الناس شجوا عالم هضـــما

حازم فى مرآة النحاة :

لقد كان جمال الدين بن هشام الأنصـــارى أول من ذكر قصيدته النحوية ، اذ قال ٠٠ لقد أحسن الامام الأديب أبو الحسن حازم بن محمد اذ قال فى منظومته فى النحو حاكيا هذه الواقعة (واقعة الحوار الذى دار بين سيبويه والكسائى) حول المسألة الزنبورية ٠٠ ويسوق منها أربعة عشر بيتا ٠٠ واصفا حازمـا

« بالامام الأديب » مما يدل على أن صفة الأدب هى الصفة الغالبة عليه حتى لدى النحاة ٠٠ ثم يأتى الأمير المتوفى سنة ١١٥٤ هـ ويعلق على ما أورده ابن هشام فى حاشيته المعروفة ٠٠ قائلا : القرطاجنى بفتح القاف وسكون الراء ، فطاء مهملة فألف فجيم فنون مشدودة نسبة الى قرطاجنة الأندلس ، لاقرطاجنة تونس ـ أحد مشايخ أبى حيان ، ريان من الأدب ، امام كبير فيه ، نزل تونس ، وامتدح فى قصيدته هذه « المنصور » صاحب افريقية أبا عبد الله محمد بن الأمير أبى زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص . ومات سنة ٦٨٤ هـ (وردت فى النسخة سنة أربع وستين وثمانمائة ـ وأرجح أنه خطأ مطبعى) قال السيوطى له كتاب يسمى منهاج البلغاء فى ستة مجلدات ٠ ومنظومته هذه لم يوجد منها الا نحو مائتى بيت ٠٠ قلت (أى الأمير) وله مقصورة عظيمة شرحها الشريف الغرناطى شرحا جليلا ٠٠ » ٠ ويسوق أبياتا من منظومته النحوية ، وأبياتا من المقصورة أيضا ٠

فالأمير يصف حازما بأنه امام كبير ، ريان من الأدب ، وأنه شيخ أبى حيان النحوى المشهور ، ويعرف أن له مقصورة ويصفها بالعظمة ٠ والظاهر أن الأمير ينقل عن الدمامينى المتوفى سنة ٨٢٧ هـ بالهند ، اذ يقول فى كتابه « تحفة الغريب فى الكلام على مغنى اللبيب » : هو حازم بن محمد بن خلف بن حازم الأنصارى القرطاجنى . بقاف مفتوحة ٠٠ الخ ٠ نسبة الى قرطاجنة الأندلس، لا قرطاجنة تونس : كان اماما بليغا ريان من الأدب ، نزل بتونس ، وامتدح بها المنصور صاحب افريقية ، ومات حازم سنة ٦٨٤ هـ » ٠ ثم يأخذ فى شرح الأبيات ٠٠ لكن الشمنى فى حاشيته على المغنى المسماة « المنصف من الكلام على مغنى ابن هشام ٠٠ » ينقل عن الدمامينى زيادة لم ترد فى « تحفة الغريب » هى أن الدمامينى قد تلقى هذه القصيدة النحوية عن شيخه قاضى القضاة ولى الدين

عبد الرحمن بن خلدون المالكى الذى تلقاها عن أستاذه المحدث العلامة أبي محمد عبد المهيمن ، الذى رواها عن ابن رشيد ، الذى قال : أنشدنى حازم . كما رواها عن طريق آخر ، عن طريق أستاذه مجد الدين اسماعيل الكتانى الحنفى ، الذى رواها عن الشيخ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن محمد الغمارى المالكى رحمهما الله تعالى قال أخبرنا الشيخ أثير الدين أبو حيان قال : أنشدنا حازم . ثم يقول الشمنى والموجود من هذه القصيدة نحو مائتين وعشرين بيتا ، ثم يأخذ فى ضبط اسم حازم كما فعل الدمامينى والأمير ، وكذلك يضبط قرطاجنة ناصا على أنها قرطاجنة الأندلس لاقرطاجنة تونس ، ثم يقول : ومات سنة أربع وثمانين وستمائة . ويرجع الشمنى أن المنظومة ربما تكون أطول مما وصل اليه منها « فلعله أتى فيها على جميع أبواب النحو . » . وقد نقل عبد الهادى نجا الأبيارى ما قاله الأمير بشأن حازم دون زيادة . ويسوق أبياتا متفرقة من منظومته النحوية فى كتابه المسمى « القصر المبنى على حواشى المغنى » .

وقد ترجم لحازم ابن الطيب فى كتابه « نشر الانشراح على الاقتراح »، وهو حاشية علق بها على كتاب الاقتراح فى أصول النحو، للسيوطى .. ومما قاله ابن الطيب — عن حازم : « هو الامام الأديب البارع المتفنن أبو الحسن حازم .. » . وبعد أن يورد نسبه يبين أنه من قرطاجنة الأندلس ، لا قرطاجنة افريقية ، ويزيد على ما ذكره الدمامينى والأمير قوله « خلافا لمن زعمه .. » ، ثم يواصل وصفه بأنه « كان اماما بليغا ريان من الأدب ..» ويقول انه امتدح المنصور بمقصورته المشهورة ، وغيرها ، وله التصانيف العجيبة . فى الأدب والعربية ، وغيرها .. ، ويشير الى أن من تلاميذه : الامام عبد الله بن رشيد الذى ذكره فى رحلته البديعة ، وأثنى عليه ،

وترجم له العبدرى فى رحلته ٠٠وقال : « حازم وما أدراك ما حازم » ويقول بعد ذلك « ووسع ترجمته شيخ شيوخنا الامام الكبير الحافظ البارع الجهبذ أبو العباس الشهاب أحمد المقرى فى زهر الرياض ، وأشار الى ذكره فى نفح الطيب وغيره ٠٠ » ، ويذكر ابن الطيب انه ذكر حازم فى كتابه الفهرست الكبرى ، وأورد شيئا من غرائبه ٠ ويقول « ووسعت هنالك بما لا مزيد عليه » ٠ وكنا نود لو وصل الينا كتابه « الفهرست الكبرى » لنرى ما توسع فيه من ذكر حازم وأدبه ٠

حازم فى مرآة المعاصرين :

قبل أن نتناول بالحديث ما كتبه الأدباء والنقاد المعاصرون — نذكر أن ممن كتبوا عن حازم بالطريقة المتوارثة « محمد بن محمد مخلوف » المؤرخ المعاصر فى كتابه « شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ٠٠ » ، وقد خلع عليه من الصفات ما يدل على اجلاله لعلمه وأدبه فقال : « حازم ، وما أدراك ما حازم العالم الأديب ، الألمعى الأريب ، الفقيه اللغوى ٠٠ المتفنن ، الماهر ، الخطيب الشاعر ٠٠ » ٠ ولا نعلم ما مصدره فى اسباغ صفة الخطيب على حازم ٠ ومخلوف قد نقل ما كتبه عن حازم فيما يبدو من نفح الطيب ، وأزهار الرياض ٠٠ فكل ما ذكره عنه لا يتعدى هذين المصدرين ٠ كما ذكر أبا جعفر اللبلى معرفا به ، وبشيوخه ومؤلفاته ، منوها باشارة حازم عليه باصلاح ما رآه من أخطاء فى كتابه « وشى الحلل وشرح الجمل » قبل تقديمه للخليفة المستنصر ٠

ولعل من أوائل من قاموا بدراسة علمية جادة لشعر حازم ٠٠ والترجمة له الدكتور مهدى علام ، وقد نشر هذه الدراسة باحدى حوليات كلية الآداب عام ١٩٥١ — بعنوان « أبو الحسن حازم

القرطاجنى ، وفن المقصورة فى الأدب العربى ٠٠ » ٠ وفى هذه الدراسة تحدث عن الاختلاف فى اسمه ، وقد بالغ فى ذلك ٠٠ وعزا اليه ، والى أسباب أخرى اهمال الناس له ، مرجحا أنه ولد فى قرطاجنة ، وأن والده شغل وظيفة قاضى مرسية ، وقد صححنا نحن ذلك فى الترجمة لحياة حازم – ثم تحدث عن الجو الثقافى الذى عاش فيه بايجاز ، متهما اياه بضيق عطنه فى علم الفقه ، ناقدا لبيته الذى يقول فيه ٠

ولا تبيعـــى خلـــة بخلـــة فان بيـع المثـل بالمثـل ربـا

ثم يأخذ فى مناقشة أمر هجرته الى مراكش ثم تونس ، مرجحا ألا يكون قد غادر الأندلس الى شمال افريقية قبل سنة ٦٣٢ هـ وهى السنة التى مات فيها أبوه ٠ ويتحدث عن احتفاء الحفصيين به ، مشيرا الى قلق حازم بالرغم مما لقيه من حفاوة ، يرجع ذلك الى وجود بعض الحساد له ، الى جانب اغترابه عن بلده الذى نكبه الأعداء ، ومع ذلك فقد نعم بصداقة بعض الأصدقاء ٠

ويستنتج من المقصورة أن حازما كان مولعـا بالصيد ، ثم يتحدث عن ثقافته التى تشبه « ثقافة جميع العلماء فى عصره ، تتألف من دراسة القرآن والحديث والأدب بأوسع معانيه ٠٠ » ٠ ثم يتحدث فى ايجاز عن أساتذته وعن تلاميذه ، ومؤلفاته ٠ وينتقل بعد ذلك الى الحـديث عن نشـأة المقصـــورة فى الأدب العربى وخصائصها ٠٠ تمهيدا لتحقيق مقصورة حازم ٠٠ ، فالدراسة مقدمة لهذا العمل الذى قام به ، وهو تحقيق المقصورة ٠٠ لذلك جاءت الدراسة موجزة ٠٠ فلم يحلل شيئا من شعره أو يستخلص من شعره شيئا من صفاته ، وأخلاقه وثقافته ، ولم يترجم لشيوخه أو تلاميذه ، ولم يضع يدنا على أسلوبه ، وأهم خصائص هـذا

الأسلوب ، وعلى كل فالباحث يشكر لريادته هذا المجهل الذى لم يسبق اليه ·

وفى سنة ١٩٦٤ م أصدر الاستاذ عثمان الكعاك ـ مدير عام دار الكتب بتونس ديوان حازم القرطاجنى ، معتمدا ـ كما جاء فى المقدمة ـ على مخطوطة الأسكوريال ، وقدم لهذا الديوان بمقدمة ترجم فيها لحازم ، ترجمة موجزة ـ كما ذكر هو ذلك ، اذ قال : « ولسنا نثبت فى هذه المقدمة الا تعريفا موجزا بحازم دون دراسته ، أو دراسة شعره ، معتمدين على ترتيب ما جاء فى المراجع المذكورة ·· وقد نقل فى المقدمة ثناء ابن سعيد ، وابن رشيد على حازم ، ووصفه بالسذاجة فى شئون الحياة العملية · وقد ذكر مصنفاته ، كما أشار الى الفصل الذى نشره الدكتور عبد الرحمن بدوى عام ١٩٦٢ م من كتاب « منهاج البلغاء » لحازم ، عارضا بعض النماذج التى تمثل آراء حازم كما فى هذا الكتاب ·

وفى سنة ١٩٧٢ م أعاد الدكتور محمد الحبيب بن خوجه ، تحقيق ديوان حازم تحقيقا علميا دقيقا ، اذ رجع الى كل المظان التى ذكرت شعرا لحازم فى العالم العربى ، وفى خارجه ، فرجع الى العديد من المخطوطات التى أشار اليها برموز واشارات استحدثها ، ليعرف منها المصدر · وقد اعتمدت فى شعر حازم على هذا الديوان الموثق توثيقا علميا ·· كما أنه قد أعاد تحقيق المقصورة التى سبق للدكتور مهدى علام أن قام بتحقيقها · وقد قدم للديوان الذى جمعه وحققه بمقدمة ضافية : حلل فيها المقصورة ، فتحدث عن أغراضها غرضا غرضا ·· ثم ذيل حديثه عنها ببيان منزلتها ، فهى : أطول المقصورات نظما وأوسعها غرضا ، وأحكمها وأبدعها صياغة ، ويوافق الدكتور مهدى علام فى أن حازما « أستاذ المقصورات شأنه فى هذا الضرب من النظم شأن الحريرى فى المقامات ·· » ـ

ثم تناول بالحديث القسم الثانى من أشعار حازم القرطاجنى ، وهو ما يشتمل على القصائد والمقطعات ، والقصيدة النحوية ، فتحدث عن الأوزان التى نظم فيها حازم شعره ، وقد حصرها فى تسعة أوزان فقط ، هى : الكامل ، والبسيط ، والطويل ، والوافر والمديد والمنسرح ، والرمل ، والخفيف ، والمقتضب ٠٠ حاصرا عدد القصائد التى نظمها فى كل وزن ، كما تحدث عن القوافى والروى ٠ ثم انتقل الى ذكر الأغراض الشعرية التى حصرها فى : المدح والغزل ، والوصف ، والزهد « فلم نقرأ له فخرا ولا رثاء ٠٠ ولا وقفنا له على بيت هجو ٠٠ » معللا للسر فى بعده عن الهجاء ٠ ثم تحدث عن كل غرض ، مبتدئا بالمدح الذى جعل منه قصيدة حازم التى صاغها فى مدح الرسول ـ عليه السلام ـ والتى ضمنها أعجاز معلقة امرىء القيس ٠ ثم تحدث عن الغزل والوصف ، والزهد أو التصوف ، الذى أطلق عليه جد الجد ٠ وأشار الى أن بعض قصائد حازم لا يمكن ادراجها فى أى قسم من الأقسام المتقدمة ، ويعنى بها شعر الصنعة والألغاز ، والمعارضات والتضمينات ، والتذاييل ٠ ثم أفاض الباحث المحقق فى الحديث « عن طريقة حازم فى النظم وخصائصه الفنية » مستعينا بآراء حازم التى عرضها فى كتابه منهاج البلغاء ـ على جلاء طريقته وأسلوبه ٠ ولكن مما يؤخذ على الباحث اسرافه فى النقــل ، فقــد نقل عن حازم قرابة خمس صــفحات متوالية ، دون تدخل منه بالشرح والتعليق ٠٠ وهو يثنى على حازم لقدرته على توليد المعانى ، من معانى الأقدمين ، وحسن التخلص ، ووصفه لبعض التجارب الشخصية ، التى مر بها الشاعر ، ومطالبته بفتح الأندلس ، وميله للمزج بين التخييل والاقناع ، ويذكر بعض الصور التى راقت له فى شعر حازم ٠٠ وحين يتعرض لقصائد حازم التى عارض بها غيره يقول : « ويمكننا القول بأن حازما قد وفق

فى المعارضـــات توفيقـا كبيرا ٠٠ » ٠ ثم يتحدث عن الغـازه وتذييلاته ، وان لم يبد رأيه الخاص فى الأحاجى والألغاز الشعرية عند حازم ٠ ومن أروع ما تحدث به عن حازم قوله : « فهو شاعر مفن ، عجيب التصرف فى النظم ، يصدر عن علم بالصناعة ٠٠ » ٠ ثم يأخذ فى سرد أنواع من المحسنات البديعية التى وشى بها حازم بعض أبياته ٠٠ كما يذكر بعض تضميناته واقتباساته ٠ وينهى مقدمته الضافية بقوله : « ولعل الناظر فى هذا المجموع لا يكتفى بعد اليوم بما صورناه له من جوانب ، وتحدثنا عن القرطاجنى به من أوصاف ، مثل شهادتنا له بالفحولة وجزالة النظم ، وقـوة البناء ، وسعة الثقافة ، وكامل البراعة فى المعارضات ونحوها من الصناعات الفنية الأدبية فيحمله ذلك على دراسة أوسع ، وبحث أعمق وأجود ، فاذا حصل ذلك فهو ما ننشده ، ونطلبه ، ونؤمله ونرحب به ، ويكفينا من هذه العجالة أنها كانت لمعا واشارات تنير للسالك السبيل » ٠

ونحن بدورنا نشكر الدكتور المحقق على أنه مهد لنا الطريق ، ويسر السبيل ، فلولا ما جمعه وحققه ، ولولا مقدماته ودراسته لما اهتدينا الى شعر حازم الذى كان متفرقا فجمعه ، وبعيدا فقربه من أيدى كل متناول ، كما نشكر له تواضع العلماء ، الذى دعاه الى الترحيب بكل عمل يسير على الدرب ليتم ما بدأ ٠

بعد هذا لم يبق سوى الاشارة الى بعض الجهـود الرائـدة لاستكشاف عالم حازم القرطاجنى فى البـلاغة ، وصلته الوثيقة بالفكر اليونانى ٠٠ وقد ارتاد هذا الحقل الدكتور عبد الرحمن بدوى فقد نبه الى قيمة كتاب حازم « منهاج البلغاء » وصلته بالفكر اليونانى ، وقد نشر منه فصلا فى كتابه « الى طه حسين » وهو الفصل الذى يتكلم فيه حازم عن نظرية أرسطو فى الشعر والبلاغة

فيعرف بالكتاب ، ويحدد اسمه الحقيقى من بين الأسماء الكثيرة التى ترددت فى مؤلفات الباحثين ، ويشير الى أن ابن رشد سبق حازما فى الاستفادة من كتاب الشعر لأرسطو ، حيث حاول تطبيق ما فيه على البلاغة العربية ، والشعر العربى ٠٠ ويناقش السبب فى اهمال حازم لذكر ابن رشد ، ويرجع ذلك الى المنافسة العلمية التى توجد عادة بين العلماء ٠ وبعد أن يذكر مشابه بين ما قاله حازم وما قاله أرسطو ٠٠ كحديث حازم عن المحاكاة ، وتفرقته بين الشعر والخطابة ، والصدق والكذب فى الفن - يشير الى أن حازما استفاد من الفارابى وابن سينا ٠٠ كما أنه اعتمد على نفسه فى حديثه عن التخييل - « وهكذا أبان حازم فى هذا الفصل عن ثقافة فلسفية عميقة ٠٠ » وفى سنة ١٩٦٦ م حقق الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة كتاب « منهاج البلغاء » لحازم ، ونال بنشره وتحقيقه ، شهادة الدكتوراة من جامعة السوربون ، فمكننا من قراءته ، والاطلاع على آراء حازم التى عرضنا بعضها فى الحديث عن « آراء حازم فى الشعر » ٠ وتبين لنا من دراستنا واطلاعنا على الكتاب أن آراء أرسطو ليست مقتصرة على الفصل الذى ذكره ونشره الدكتور عبد الرحمن بدوى ٠٠ وانما هى مبثوثة فى تضاعيف كل فصول الكتاب ٠

ويبدو أن الدكتور شكرى محمد عياد قد سبق الدكتور عبد الرحمن بدوى الى التعريف بحازم ، فقد ترجم كتاب الشعر لأرسطو ، وحقق معه ، الترجمة التى قام بها أبو بشر متى بن يونس ، مشيرا الى التلخيصات التى قام بها ابن سينا وابن رشد ، واقفا وقفة طويلة عند « أثر كتاب الشعر فى البلاغة العربية ٠٠ » ٠

وفى هذا الفصل ، والفصل الذى عقده عن العرض التاريخى للبلاغة وكتاب الشعر - عرف بحازم ، وبآرائه فى البلاغة ٠٠ كقضية

اللفظ والمعنى ، والأقاويل الشعرية وغير الشعرية ، والتخييل والمحاكاة ، وماهية الشعر ، وطرق التخييل ، والصدق والكذب ، والجد والهزل أو التراجيديا والكوميديا ‥ ويقول الدكتور شكرى عياد « والحق أن تأثير كتاب الشعر فى « منهاج البلغاء » عميق أشد العمق ، وأن حازما قد جهد أن ينتفع بهذا الكتاب أو بالصور التى عرفها منه ــ أعظم الانتفاع ‥‥ » . وما يجعلنا نرجح سبقه للدكتور بدوى هو أن هذا البحث قد نوقش لنيل الدكتوراه عام ١٩٥٢ م ــ كما ورد ذلك فى المقدمة التى عقدها الباحث . فى صدر الكتاب . وكنت أود أن يشير الدكتور بدوى ، الى جهد تلميذه الذى سبقه الى الاهتداء لما فى كتاب « منهاج البلغاء » من صلة وثيقة بكتاب الشعر لأرسطو ، ولكنه لم يفعل .

ومن الكتب المتأخرة فى الصدور ، كتاب « تاريخ النقد الأدبى عند العرب » من القرن الثانى حتى القرن الثامن الهجرى ، للدكتور احسان عباس ‥ وفيه تناول آراء حازم البلاغية بالعرض ‥ فتحدث عن قضية الوحدة الفنية عند حازم ومن سبقه من علماء البلاغة ، وقضية الصدق ، والعلاقة بين الشعر والأخلاق ، والسرقات ، كما عرض منهج حازم ‥ ثم يقول « لقد ربط حازم بين الشعر والحياة الطبيعية أو حياة الحس عامة وأنه حاول أن يبعد الشعر عن العلم قدر استطاعته ، وجعل ينبوع الشعر من حركات النفس ومصبه النفوس الانسانية فى مدى تقبلها أو اعراضها ، بحسب الفطرة أو بقوة الاكتساب » . وقد ظهر لنا أخيرا أن أسبق من تحدثوا عن حازم ــ الشيخ الخضر حسين شيخ الأزهر السابق فى مجلة الهداية ، ثم الشيخ شعراوى الأستاذ بكلية البنات الاسلامية فى رسالته « فى البلاغة ‥ » .

وتحت عنوان « قضية النظم والفلسفة الجمالية عند حازم القرطاجني » كتب الدكتور ماهر حسن فهمي فصلا عن بلاغة حازم ، ناقش فيه القضايا التي سبق أن ناقشها الدكاترة : شكري عياد ، واحسان عباس ، وبدوي ، ثم قال : « ان حازما ينظر الى العمل الأدبي نظرة جمالية كلية بالقياس الى عبد القاهر ، وفي النظرة الكلية لابد من التخلص المستمر من الرتابة ، لأن الرتابة كفيلة بقتل الاحساس بالجمال في النص نفسه ، ولدى متذوق العمل الفني أيضا .. » كما ذكر أن محور فكرته الجمالية أو البلاغية قائمة على التناسب من ناحية ، والتنوع من ناحية أخرى . ويتعرض الدكتور فهمي لدراسة الخيال ، والصدق الفني ، والمحاكاة .. ولكن في ايجاز .

ويدور في هذا الفلك البلاغي نفسه ، وتأثر حازم بأرسطو ، ما كتبه الدكتور بدوي طبانة في كتابه البيان العربي ، فهو ينقل مناهج الكتاب كما عنون لها الدكتور الخوجة ، ثم يعقب عليها بقوله « جل ذلك في دراسة نظرية ينقصها التطبيق ، وتقل فيها الأمثلة التي تساعد على الافادة منها .. » . وقد أهمل كغيره ذكر الأسباب التي دعت حازما الى الاقلال من ذكر الأمثلة التطبيقية ، كما يذكر في صدر البحث أسماء من تأثروا بالثقافة اليونانية كالجاحظ ، وقدامة ، وابن وهب ، وعبد القاهر الجرجاني . وهكذا يحكم الدكتور حكما قاطعا على أن هؤلاء جميعا تأثروا بالثقافة اليونانية .. بالرغم من الاختلاف الواسع في وجهات النظر حول هذا التأثير ، فالمستشرق الروسي كراتشكوفسكي يقول : « ان كتاب الشعر الأرسطي لم يؤثر في علم الشعر عند العرب » ، والدكتور طه حسين « يقرر أن كتاب الشعر لم يفهمه أحد من العرب .. » .

من أهم مراجع البحث

١ ـ الآيات المقصــورات ـ الطبرى المكى ـ مخطوط بدار الكتب المصرية .

٢ ـ ابن سينا ـ الشفاء ـ المنطق ـ الشعر تحقيق د/عبد الرحمن بدوى ـ الدار المصرية للتأليف ١٩٦٦ .

٣ ـ اختصار القدح المعلى ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل ـ مخطوط بدار الكتب المصرية .

٤ ـ أدباء العرب فى الأندلس ـ بطرس البســـــتانى ـ بيروت ١٩٣٧ .

٥ ـ الأدب الأندلسى د / احمد هيكل ـ ط ثانية ـ مكتبة الشباب

٦ ـ الأدب فى الأندلس د / عبد الحسيب طه حميده ـ محاضرات مخطوطة .

٧ ـ الأدب المقارن ـ فان تيجم ـ دار الفكر العربى .

٨ ـ الأدب المقارن ـ ماريوس فرانسوا جويار ـ ترجمة د / محمد غلاب ، و د / عبد الحليم محمود ـ البيان العربى .

٩ ـ ازهار الرياض ـ شهاب الدين أحمد بن محمد المغربى ـ لجنة التاليف والترجمة ١٩٤٢ .

١٠ ـ أزهار الشر ـ بودلير ـ ترجمة محمد أمين حسونة ـ مطابع جريدة الصباح ١٩٥٧ .

١١ ـ بغية الوعاة ـ السيوطى ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط أولى ١٩٦٤ .

١٢ ـ البلاغة الفنية ـ الأستاذ على الجندى ـ نهضة مصر .

١٣ ـ البناء الفنى للقصيدة العربية د / محمد عبد المنعم خفاجى ـ مكتبة القاهرة .

١٤ ـ تاريخ الأدب العربى فى الأندلس د / ابراهيم على أبو الخشب ـ الفكر العربى ١٩٦٦ .

١٥ ـ تاريخ الاندلس ـ يوسف أشباخ ، ترجمة محمد عبد الله عنان ـ ط ثانية ١٩٥٨ .

١٦ ـ تاريخ الدولتين الحفصية ، والموحدية ـ الزركشى ـ تونس ١٢٨٩ هـ .

١٧ ـ تحفة الغريب فى الكلام على مغنى اللبيب ـ الدمامينى ـ مخطوط ـ الأزهر .

١٨ ـ التفسير الكبير ـ لأبى حيان ـ مطبعة السعادة ١٣٢٨ هـ .

١٩ ـ الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ـ لأبى عبد الله السراج ـ تونس .

٢٠ ـ حوليات كلية الآداب ـ مجلد أول مايو ١٩٥١ م ـ القاهرة ١٩٥١ م .

٢١ ـ ديوان حازم القرطاجنى ـ تحقيق عثمان الكعاك ـ بيروت ـ ١٩٦٤ ٠

٢٢ ـ رحلة ابن رشيد مصورة الاسكوريال رقم ١٧٩٧ ـ معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ٠

٢٣ ـ رفع الحجب المستورة ـ القاضى الغرناطى ـ مطبعة السعادة ١٣٤٤ هـ ٠

٢٤ ـ شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ـ محمد بن محمد مخلوف ـ المطبعة السلفية ١٣٥٠ هـ القاهرة ٠

٢٥ ـ شرح المقدمة الأدبية لشرح الامام المرزوقى على ديوان الحماسة ـ محمد الطاهر بن عاشور ـ تونس ١٩٥٨ م ٠

٢٦ ـ شرح مقصورة ابن دريد ـ التبريزى ـ المكتب الاسلامى للطباعة بدمشق ١٩٦١ م ٠

٢٧ ـ شرح مقصورة ابن دريد ـ عبد الله اسماعيل الصاوى ـ مطبعة الصاوى الحديثة ٠

٢٨ ـ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ـ مصطفى عبد اللطيف السحرتى ـ المقتطف والمقطم ١٩٥٦ م ٠

٢٩ ـ العمدة ـ ابن رشيق ـ مكتبة مصطفى محمد ـ مصر ١٩٥٥ ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ٠

٣٠ ـ فى الأدب الأندلسى ـ جودت الركابى ـ دار المعارف ـ مصر

٣١ ـ قصائد ومقطعات ـ حازم القرطاجنى ـ تحقيق د / محمد الحبيب بن الخوجة ـ الدار التونسية ١٩٧٢ م ٠

٣٢ ـ قصة الأدب فى الأندلس ـ د / محمد عبد المنعم خفاجى ـ المعارف ـ بيروت ٠

٣٣ ـ منهاج البلغاء ، وسراج الأدباء ـ لحازم القرطاجنى ـ تحقيق د / محمد الحبيب بن الخوجة ـ تونس ١٩٦٦ ٠

٣٤ ـ نفح الطيب ـ المقرى ـ تحقيـــق محمـد محى الديـن عبد الحميد ـ مطبعة مصطفى محمد ١٩٤٩ ٠

فهـــرس

الباب الأول :

الفصل الأول : حازم · حياته وثقافته · · · ٣

الفصل الثاني : ثقافته وأساتذته · · · · · ٢٤

الباب الثاني :

الفصل الأول : شعره · · · · · · · ٤٧

أغراضه الشعرية · · · · · · · ٥١

المديـح · · · · · · · · ٥٢

الغــزل · · · · · · ٦٦

الوصف · · · · · · · · ٩٠

رثاء الممالك والمدن الزائلة والحنين الى الديار · ١١٢

الشعر الديني عند حازم · · · · · ١٥٠

الفصل الثاني : الأفكار والمعاني · · ١٨١

الفصل الثالث : الأسلوب · · · · · ١٦١

الفصل الرابع : الصور والأخيلة · · · · ١٩٩

الفصل الخامس : المحسنات البديعية في شعر حازم · ٢١٨

الفصل السادس : الموسيقى فى شعر حازم . . ٢٣٦
التلميحات الاسطورية ، والاشارات التاريخية
فى الأدب العربى ٢٤١

الباب الثالث :

الملاحم وآثارها فى الشعر العربى المطولات العربية . ٢٦٣
القصائد والمقصورات ٢٨١
مقصورة حازم القرطاجنى ٢٨٧
أثر مقصورة حازم فيما بعدها . . . ٣٤٢

الباب الرابع :

مكانة حازم وآراء الأدباء والنقاد فى أدبه وشعره . . ٣٥٣
من أهم مراجع البحث ٣٨٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٢٤٩/ ١٩٨٦

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٩٢٥ ـ ٨

هذا الكتاب خلاصة لأربع وثلاثين مرجعا أدبيا لمجموعة ـ نابغة ـ من الأدباء والشعراء القدامى والمعاصرين ، وقد حصل به مؤلفه على درجة الدكتوراه عام ٧٥

يوضح هذا الكتاب تاريخاً حافلاً عن الأندلس وعن الكثيرين من أعلام العرب من خلال مؤلف حازم القرطاجنى (منهاج البلغاء) ومقصورته الشعرية التى كافأه عليها الخليفة المستنصر بألف دينار من الذهب بحساب دينار لكل بيت وقد نظم حازم أشعاره فى تسعة أوزان فقط هى (الكامل والبسيط والطويل والوافر والمديد والمنسرح والرمل والخفيف والمقتضب) فى أغراض (المدح والغزل والوصف والزهد) .

وعموماً هذا الكتاب لا يستغنى عنه أى قارىء أو باحث أو دارس للغة العربية مطلقاً فهو واحة رحبة حافلة بشتى أنواع القطاف الشهية المبدعة . .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب